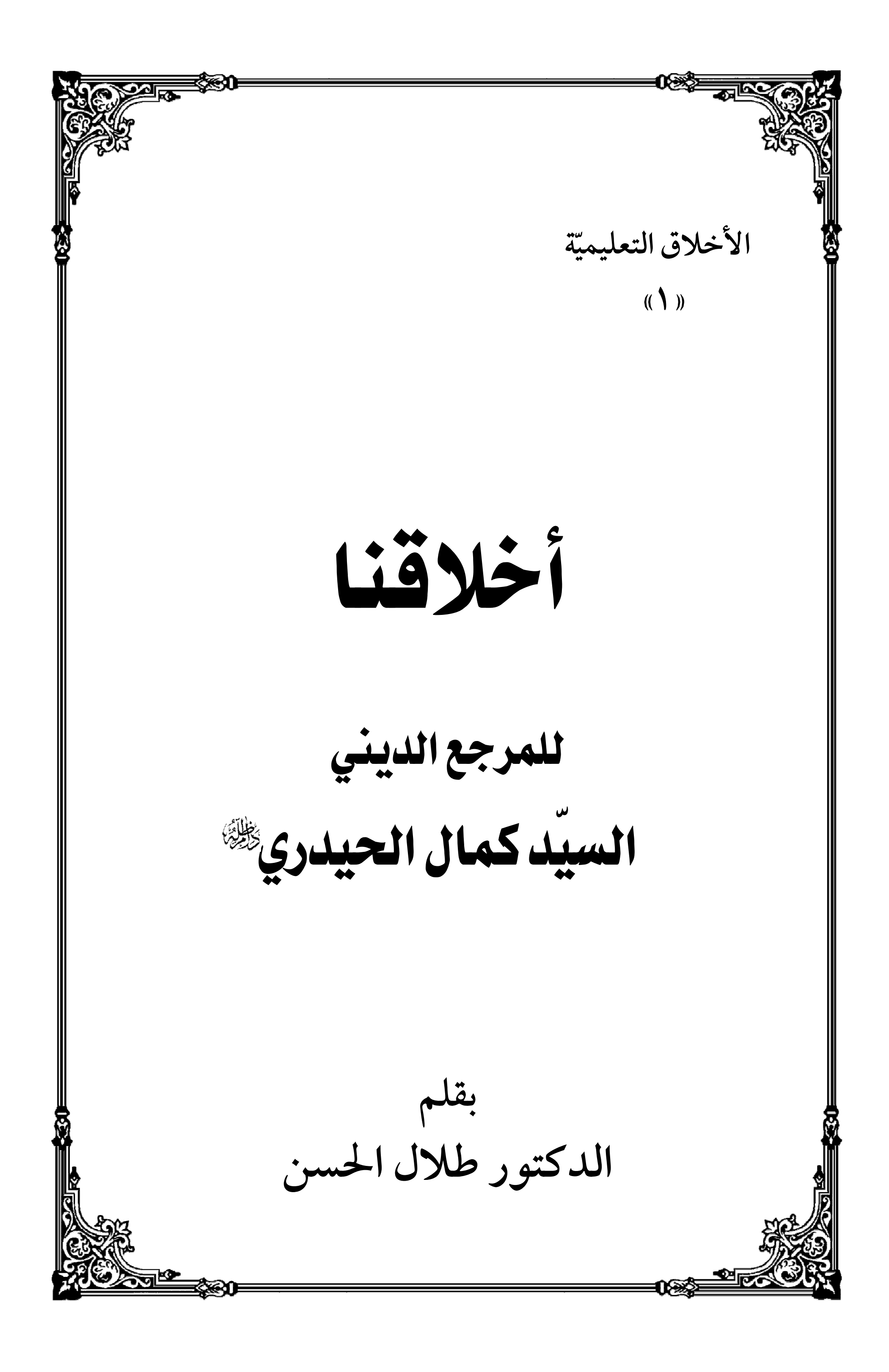


الأخلاق التعليميّة

«١»

أخلاقنا

للمرجع الديني

السيّد كمال الحيدري دام ظله

بقلم

الدكتور طلال الحسن

مؤسّسة الإمام الجواد (عليه السلام)
للفكر والثقافة

الكاظميّة المقدّسة ـ باب الدروازة

١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

يطلب من

- مؤسّسة الإمام الجواد (عليه السلام) للفكر والثقافة؛ بغداد
  ٠٠٩٦٤-٧٧٠٧٩٠٠٨٤٢
  ٠٠٩٦٤-٧٨٠٠٢٣٠٠٢٩
- مؤسّسة الثقلين للثقافة والإعلام؛ كربلاء
  ٠٠٩٦٤-٧٨٠١٤٢١١٩٤
- معرض الكتاب الدائم؛ النجف الأشرف
  ٠٠٩٦٤-٧٧١١٦٤١٦٦٩
- مكتبة زين العابدين
  البصرة ـ الطويسة
  ٠٠٩٦٤-٧٧٠٦٠٧٢٢٧١
- مكتبة دار الأمير
  الناصريّة ـ الحبّوبي
  ٠٠٩٦٤-٧٨٠٣٠٩٨٤٩١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وقفةٌ جلاليّةٌ

ما أبكى رسول الله صلّى الله عليه وآله

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: ١١٢).

قال ابن عبّاس: «ما نزل على رسول الله صلّى الله عليه وآله آيةٌ كانت أشدّ عليه، ولا أشقّ من هذه الآية؛ ولذلك قال لأصحابه ـ حين قالوا له: أسرع إليك الشيب يا رسول الله!ـ: **شيّبتني هودٌ، والواقعة**»[1].

وعن ابن مسعود قال: «أمرني رسول الله صلّى الله عليه وآله أن أتلو عليه شيئاً من القرآن، فقرأت عليه من سورة يونس، حتّى إذا بلغتُ قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (يونس:٣٠)، رأيتُه وإذا الدمع تدور في عينيه الكريمتين»[2].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، تأليف: محمد ناصر الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٥هـ: ج٢ ص٦٣٩، الحديث رقم (٩٥٥). أيضاً:
ـ سلسلة الأحاديث فيما اتّفق عليه أهل الحديث، تحقيق وتعليق: الدكتور حمزة أحمد الزين، دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى: ج٥ ص٣٠٧، الحديث رقم (١٨٦٤٥).
ـ الخصال، للشيخ الجليل الأقدم الصدوق، المتوفّى ٣٨١هـ، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفّاري، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤٠٣هـ: ج١ ص١٩٩، الباب (٤)، الحديث رقم (١٠).

(٢) سنن النبيّ صلّى الله عليه وآله، للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي: ص٣٤٢، تحقيق الشيخ محمّد هادي الفقهي، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، ١٤١٦هـ، قم المشرّفة.

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وآله الطاهرين.

الأخلاق هي الهدف الأسمى الذي يتحرَّك الإنسان السويُّ باتّجاهها قولاً وعملاً، وهي الأرضيّة التي تقف عليها الفطرة السليمة، والنبض الذي يحكي حياة القلوب السليمة، ممّا جعلها مطلباً ومقصداً عقليّاً وشرعيّاً وعقلائيّاً، ولذلك لا خلاف في ضرورة تحصيلها، وإنّما الكلام في تشخيصها وفي كيفيّة تحصيلها.

ونحن في هذه السطور من سلسلة «الأخلاق التعليميّة» ارتأينا الوقوف على أبرز العناوين التي سجَّلتها الكتب الأخلاقيّة، وعرضها من خلال رؤيةٍ قرآنيّةٍ روائيّةٍ فلسفيّةٍ عرفانيّةٍ، وهذا ما دعانا إلى تسجيل عناوين جديدةٍ لم تُبرَّز في المصنّفات الأخلاقيّة، رعايةً منّا إلى تحقيق الهدف الذي نصبو إليه، وهو تركيز فكرة معرفيّة الأخلاق أوّلاً لِتُصبَّ بعد ذلك في قوالبها العمليّة في مجال التطبيق.

من هنا اقتضت الصنعة بيان معنى الأخلاق وضرورتها في حياة الإنسان الفرديّة والاجتماعيّة، ثمّ التعرّض إلى الخطوط العامّة للنظريّة الأخلاقيّة في بُعدَيها الفلسفي والعرفاني، ومن ثَمَّ تشخيص السعادة الحقيقيّة في خضمّ التيه الكبير الذي تعيشه الإنسانيّة في تشخيص المصداق الحقيقي لذلك، وهذا ما دعا إلى بيان أهمّ مجسَّات التشخيص الصائب لحقيقة الأخلاق، وهي الفطرة الإنسانيّة السليمة، التي تدعونا تلقائيّاً إلى

إصلاح النفس وإعلان التوبة وشروطها، وبيان الاستغفار وشروطه، وتحديد معاني وضوابط المشارطة والمراقبة والمحاسبة، لاجتناب مفاسد الأخلاق، وللتخلّص من مكائد الشيطان؛ ثمّ التعرّض إلى علاقة أهل البيت عليهم السلام بإصلاح النفس وتهذيبها، والتي تُشكِّل عموداً أساسيّاً في ضبط سلوك الإنسان، باعتبارهم يمثّلون التجربة العمليّة الحقّة للقيم النبيلة والأخلاق الحميدة، التي عمادها الصدق في النيّة والقول والعمل، وصولاً للتقوى التي تهب لأهلها مفتاح الغيب والملكوت، ثمّ التعرّض إلى مدخليّة الشهامة والشجاعة في نيل المقامات العُليا والكمالات الأسمى في السَّير، وما للسخاء من علاقةٍ وثيقةٍ بالكمال والسموّ، باعتباره منفذاً حقيقيّاً للخلاص من حاكميّة المادّة وسلطتها على النفس، وهذا ما يدعونا للتزوُّد بالصبر باعتباره الزاد المعنوي الطاهر والدواء الساحر في سفرنا الإلهي، لنيل مقام الرضا بما كان وما يكون من القضاء الإلهي، فذلك هو عين التمحُّض في الإيمان.

فإذا ما سجَّلنا ذلك ـ تحقيقاً وتحقُّقاً ـ تنطلق رحلة العود للخلق على بساط معاملتهم بالمداراة والسماحة والعفو وحسن الظنّ، فذلك من كواشف طهارة القلب، دون أن نغفل عن كون النطق ضرورةً تفرضها الحاجة، وأنّ الأصل في السَّير هو الصمت الذكري، فالصمت ذكرٌ نبويٌّ لا ينبغي الغفلة عنه أبداً.

فإذا تمَّ كلّ ذلك، تحقَّق عندنا الغنى عن الناس أجمعين، والفقر إلى الله وحده؛ فالمؤمن الصادق مَنْ صانع وجهاً واحداً ليكفيه الوجوه، وهذا هو خلاصة وثمرة وحدة المقصود والمقصد، ويكون هذا التوحّد والتوحيد

الخالص زاداً طيّباً يحكي عظمة تفكّره بالموت واستعداده له.

هذا ما نريد عرضه في هذه السلسلة الأخلاقيّة، والتي ستكون باكورتها هذه الحلقة الأولى، التي ستُركِّز على معنى الأخلاق في أبعاده المختلفة، وعلى بيان الاستعدادات الواقعيّة عندنا، وبيان مسالك التهذيب وصفات الإنسان في القرآن.

السيّد كمال الحيدري

١ رجب ١٤٣٦هـ

المقدّمة

إنّها صرخةٌ قرآنيّةٌ مُدوّيةٌ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ...﴾ (هود: ١١٢)، ولم يكن المُخاطب فيها رسول الله صلّى الله عليه وآله وحده، فالخطاب لأمّة الإنسان، في كلّ زمان ومكان، ولذلك حملت هذه الصرخة تنبيهاً ـ في الآية نفسها ـ على واقعيّة الشمول، ونفي فكرة الاختصاص، فقالت: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾.

ولكنّنا نتساءل بوضوح:

أَلم نُؤمن بالله وبرسوله وباليوم الآخر؟ فأيّ استقامةٍ تعني؟

كثيرٌ منّا يقوم بالواجبات وينتهي عن المحرّمات، فأيّ استقامةٍ تُطلب؟

نعم، إنّها استقامة العودة العلميّة للفطرة الأولى، واستقامة العودة العمليّة إلى مقام الأحسنيّة المشار إليه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤)، ولأنّنا امتزجنا بعالم المادّة والقصور والنقص، عالم الظلمة والتقهقر، عالم الانكفاء على النفس، فقد مُزِّقت جدران الأحسنيّة، وتسرّب للروح والقلب درنُ الأنا، فسالت أوديةُ العُجب والأنفة والكِبر والخُيلاء، ولمّا رأت مَن هو أفضل منها تفرّعت أوديةٌ أُخرى من تلك السابقة، فكان الكذب والحسد، وكان بعد ذلك كلّ شيءٍ، حتّى بلغ الإنسان مقام التقهقر: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (التين: ٥)، وماذا سيكون بعد هذا التقهقر والتردّي غير الخطاب الناصح الأمين: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، ولأنّ الإنسان ظلومٌ غشومٌ، كان لابدّ من الردع في الآية نفسها، فكان قوله تعالى: ﴿...وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: ١١٢).

ولكي نستقيم كما أُمرنا، ولا نتمادى في الطغيان، فلابدّ لنا من حصانةٍ

إلهيّةٍ رشيدةٍ، وليس هنالك غير الأخلاق، فكثيرون هم المُتعلِّمون، وكثيرون هم الموحّدون، وكثيرون هم المتشرّعون، وكثيرون هم المجتهدون، ولكن كم هم العاملون؟ بل كم هم الصادقون والمخلصون؟ بل كم هم الناجون؟

إنّها الأخلاق الإلهيّة والنبويّة التي لأجلها وُصِفَ رسول الله صلّى الله عليه وآله بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، ومن هذا الأُفق العالي المديد تستمدّ عقولنا وقلوبنا زاد رحلتنا لمقام الأحسنيّة، ومقام الخُلُق العظيم، ومقام الكينونة في عالم الأخلاق القرآنيّة.

وليس هنالك ما يعتق النفس من ماضٍ أرهقتْه تبعاتٌ مؤلمةٌ، يُؤمِّنها من مستقبلٍ مجهولٍ، سوى الكينونة في الأخلاق الكريمة، فإنّها مصفاةٌ من الماضي، ومنجاةٌ من الآتي، وهي اللغة السامية للروح، بل هي أرضية الظاهر والباطن.

هذا الكتاب

في هذه السلسلة المسمّاة «الأخلاق التعليميّة» ستكون هنالك ستّ وقفاتٍ، في ستّ حلقاتٍ، وهي كالتالي:

الحلقة الأولى: أخلاقنا.

الحلقة الثانية: إصلاح النفس وتهذيبها.

الحلقة الثالثة: الصدق في النيّة والقول والعمل.

الحلقة الرابعة: روحانيّة العبادات.

الحلقة الخامسة: أخلاقيّات الشعائر والزيارات.

الحلقة السادسة: وحدة المقصد والرحلة إليه.

وقد ارتأى السيّد الأستاذ دام ظلّه تقديم الحلقة الرابعة (روحانيّة

العبادات) لا لأنّها مقدّمةٌ على الحلقات السابقة، وإنّما لسببين آخرين، هما:

الأوّل: أنّها الحلقة التي أُنجزت قبل الحلقات الأُخرى.

والثاني: لأنّها تُلبّي حاجةً ماسّةً، وقد لُوحظ ذلك بصورةٍ عمليّةٍ في سرعة انتشار الكتاب بعد طبعه، حتّى بدأ العمل على تكرار طبعه عدّة مرّاتٍ.

في هذه الحلقات الستّ سنجد ارتباطاً وثيقاً؛ حيث لابدّ من الوقوف أوّلاً على حقيقة الأخلاق ودورها في حياتنا، وبيان أبعادها القرآنيّة والروائيّة والفلسفيّة والعرفانيّة، وحركيّتها بتبع الزمان والمكان، وبيان معنى التخلّق بأخلاق الله سبحانه، ثمّ بيان مسالك تهذيب النفس، وهذا ما تتكفّل ببيانه هذه الحلقة (الأولى) من الحلقات الستّ، لنذهب بعدها إلى كيفيّة تهذيب النفس الإنسانيّة.

إنّ هذه السلسلة تحاول بيان الأخلاق والسلوك الذي عليه الإنسان، فهي تنقسم إلى فرديّة واجتماعيّة من جهة، وإلى ظاهريّة وباطنيّة من جهة أخرى، فينتج عن الفرديّة والاجتماعيّة، والظاهر والباطن أقسامٌ أربعةٌ، هي:

١. أخلاقٌ فرديّةٌ ظاهريّةٌ.
٢. أخلاقٌ فرديّةٌ باطنيّةٌ.
٣. أخلاقٌ اجتماعيّةٌ ظاهريّةٌ.
٤. أخلاقٌ اجتماعيّةٌ باطنيّةٌ.

من هذا المنطلق تُسجِّل هذه الدراسة الأخلاقيّة بحوثها ومحاورها، فالفرديّة والاجتماعيّة، والظاهر والباطن، سقوفٌ مشتركةٌ في تفاصيل هذه الدراسة، ولذلك حاولت هذه السلسلة أن تعتق نفسها من الاستغراق في الجانب النظري.

بعبارةٍ أُخرى: إنّها محاولةٌ تمسّ الواقع ولا تتنكَّر للمثاليّة، إلّا أنّها بمجسَّاتها الوجدانيّة نأَتْ بنفسها عن المثاليّة الصوريّة التي جعلت الأخلاق العمليّة طائراً غريباً لا عشَّ له في قلوبنا، ولا صدى له في عقولنا، إنّها محاولةٌ جادّةٌ تتحرَّك وتُصوِّب بوصلة القلب باتّجاه حلم الأنبياء في صناعة باطن الإنسان وتسويته حقَّانيّاً، أو كما أُريد لها في سورة هود: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾.

ولأنّها واقعيّةٌ، فلابدّ لها من أن تكون تعليميّةً.

والمراد من التعليميّة هو أنّها كُتبت بطريقةٍ ممنهجةٍ، فكلّ درسٍ يشتمل على أهدافٍ خاصّةٍ، ومتنٍ تفصيليٍّ تنعكس فيه تلك الأهداف، ثمّ عرض خلاصة الدرس مع أسئلةٍ تذكيريّةٍ.

وأمّا الواقعيّة فتعني الانطلاق ممّا هو موجودٌ في عمق الإنسان، فالبحث ليس نظريّاً، وإن كان يبدو بظاهره كذلك، إلّا أنّه في واقعه استطاع أن ينتقل إلى محطّاتٍ عملانيّةٍ بها يرتقي المستجيب لها، كما رُوعي جانب الواقعيّة لتكون الكلمات والمضامين في تماسٍّ مباشرٍ مع حياة الإنسان وتفاصيله في بعدها المعنوي.

إنّ هذه السلسلة ـ ومنها هذه الحلقة الأولى ـ قد جمعت بين المنهجيّة العلميّة في العرض، والعمق في الفهم والتطبيق، والوضوح وحسن البيان؛ إيماناً من السيّد الأستاذ دام ظلّه بضرورة إفشاء الجانب التعليمي، وهذا ما ينسجم تماماً مع مشروعه المعرفي الذي تبنَّاه وروّج له منذ أكثر من ثلاثة عقودٍ، في إلزاميّة التفقّه في الدين، عقيدةً وشريعةً وتفسيراً وحديثاً وأخلاقاً وعرفاناً، لتكتمل المنظومة الإسلاميّة في ذاكرة كلّ مكلّفٍ.

جديرٌ بالذكر أنّ هذه الحلقة من هذه السلسلة وإن اعتمدت أسلوباً تربويّاً تعليميّاً هادفاً من خلال المداخل والمخارج لكلّ درسٍ فيه، ورغم

توخّيها السهولة في الطرح، إلّا أنّها اشتملت على مطالب كثيرةٍ هي بحاجةٍ إلى تدبّرٍ وتأمّلٍ ومطالعةٍ لأكثر من مرّةٍ؛ ولم يكن الهدف من وراء ذلك خلق حواجز أمام القارئ، وإنّما طبيعة هذه الأبحاث تفرض نوعاً خاصّاً من العرض.

وقد اشتملت هذه الحلقة على خمسة عشر درساً، منظّمةً بنحوٍ طوليٍّ، فلا ينبغي التقديم والتأخير في مطالعتها، فإنّ نظمها قد لوحظ فيه عمليّة التدرّج في التلقّي، سواءً في البحوث النظريّة أو في البحوث العمليّة.

تنبيه

إنّ الدرس الأوَّل قد وجّهه السيّد الأستاذ (دام ظلّه) أوّلاً وبالذات إلى طلبة العلوم الدينيّة؛ باعتبارهم رُعاة الأُمّة والأدلّاء على الآخرة، ولكنَّ هذا لا يمنع من تعميم الخطاب للناس أجمعين.

جديرٌ بالذكر أنّ عنونة الدروس بالأوّل والثاني و...، لا تعني أنّ لكلّ درسٍ حصّةً واحدةً؛ فقد يحتاج الدرس منها إلى حصّتين أو ثلاث حصصٍ، وقد يكتفي بحصّةٍ واحدةٍ؛ فيكون التركيز على إيصال مادّة الدرس شكلاً ومضموناً، وإعطاء البُعدين التعليمي والمعنوي أهمّيّةً متناسبةً، فلا يصحّ الإغفال عن الجانب التعليمي طلباً للمعنوي، كما لا يصحّ العكس أيضاً.

وعلى الأساتذة الكرام ـ طبقاً لوصايا السيّد الأستاذ ـ أن يكونوا قدوةً عمليّةً في جانبهم التعليمي وجانبهم المعنوي، فإنّ شخصيّة الأُستاذ في الدرس الأخلاقي لها أثر كبيرٌ جدّاً في الجذب والطرد، وليس مطلوبٌ من الأُستاذ ـ في الجانب التعليمي ـ أكثر من معرفة المطالب المطروحة، وليس مطلوبٌ منه ـ في الجانب المعنوي ـ أكثر من أن يكون صادقاً؛ فالمعرفة

بالمطالب والصدق في عرضها كفيلان بتحقيق جانب الجذب؛ وليستحضر الأُستاذ الكريم قول الله تعالى: ﴿...إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨)، فذلك نافع جدّاً.

د. طلال الحسن

ذي القعدة / ١٤٣٥هـ

قم المشرّفة

دروس الحلقة الأولى

الدرس الأوّل: معنى الأخلاق، وأهمّيّتها لطلبة العلم
الدرس الثاني: الأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة في حياة الإنسان
الدرس الثالث: الأخلاق في بُعدها القرآني
الدرس الرابع: الأخلاق في بُعدها الروائي
الدرس الخامس: الأخلاق في بُعدها الفلسفي
الدرس السادس: الأخلاق في بُعدها العرفاني
الدرس السابع: حركيّة الأخلاق بتبع الزمان والمكان
الدرس الثامن: التخلّق بأخلاق الله سبحانه
الدرس التاسع: تشخيص السعادة
الدرس العاشر: الأخلاق والضيافة الإلهيّة
الدرس الحادي عشر: الاستعدادات الأوّليّة للأخلاق الإلهيّة
الدرس الثاني عشر: مسالك تهذيب النفس (١)
الدرس الثالث عشر: مسالك تهذيب النفس (٢)
الدرس الرابع عشر: أخلاق الإنسان وصفاته في القرآن (١)
الدرس الخامس عشر: أخلاق الإنسان وصفاته في القرآن (٢)
الدرس السادس عشر: الاقتداء الإيجابي والاقتداء السلبي

- خاتمةٌ وتوصياتٌ

الدرس الأوّل

معنى الأخلاق وأهمّيّتها لطلبة العلم

- أهداف الدرس
- تمهيد
- الأخلاق ورسالة الأنبياء
- الأخلاق وطلبة العلم
- المراد من الأخلاق وعلم الأخلاق
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- رسالة الأنبياء كلمة التوحيد والدعوة إلى مكارم الأخلاق.
- الإسلام دين التوحيد ودين مكارم الأخلاق التامّة.
- طلبة العلم مطالبون بأن يكونوا أُسوةً وقدوةً في الأخلاق.
- المراد من الأخلاق، وعلم الأخلاق.

تمهيد

التوحيد والأخلاق أهمّ ما جاء في رسالة الأنبياء، وقد انعكس ذلك بشكلٍ واضحٍ في الدين الإسلامي، فقدّم موازنةً بين الفرد والمجتمع على مستوى الحقوق والواجبات، وعلى مستوى الأخلاق، فنشأت الأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة، ومن خلال هذه الرؤية ستنطلق الأفكار الأساسيّة لهذا الدرس[1].

الأخلاق ورسالة الأنبياء

اجتمع سائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام على دعوتين أساسيّتين، هما:

الأولى: كلمة التوحيد.

الثانية: الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

أمّا التوحيد فلإخراج الإنسان من ظلمات الشرك والعبوديّات الزائفة إلى نور الواحد الحقّ، فالشرك ليس له جهةٌ واحدةٌ، ولذلك فمصير الإنسان فيه إلى الشتات والتشرذم والتيه والضياع؛ فكان التوحيد لإخراجه من ذلك الشتات.

---

(١) إنّ هذا الدرس والدرس الثاني أيضاً مُوجّهان بالدرجة الأساس إلى طلبة العلوم الدينيّة، ولكنّهما لا يقتصران عليهم. (منه دام ظلّه).

وأمّا دعوتهم إلى مكارم الأخلاق فلأنّ الأخلاق الحميدة هي الضمانة الحقيقيّة لسير الإنسان وسلوكه على الجادّة وحفظ القيم الإنسانيّة الفطريّة فيه.

ولذلك فنحن عندما نقول بأنّ الإسلام هو دين الفطرة، فإنّه دين التوحيد ودين مكارم الأخلاق التامّة، كما جاء ذلك على لسان رسول الله صلّى الله عليه وآله في قوله: «**إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**»[١]؛ ولأنّه صلّى الله عليه وآله قد أتمّها قولاً وعملاً؛ فقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: ٤)، وفي ذلك ينقل العلّامة المجلسي قولاً في تفسير الآية، حيث يقول: «**سُمِّي خُلُقُه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه**»[٢].

إذن، فالخُلُق العظيم هو مكارم الأخلاق عملاً، وهو التوحيد عقيدةً، ولذلك فإنّ التوحيد لو تجلَّى لنا في صورةٍ عمليّةٍ لصار أخلاقاً، وإنّ الأخلاق لو صعدت إلى السماء لكانت توحيداً، فالعلاقة بينهما صميميّةٌ، أشبه ما تكون بالعلاقة بين الصورة والمادّة، وبين الروح والجسد، وبين الظاهر والباطن.

وهذا الارتباط الوثيق هو ما التفت إليه العلّامة الطباطبائي، حيث

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ـ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ: ج١٤ ص٥١٢، الحديث رقم (٨٩٥٢).
قال المحقّق: صحيحٌ، وهذا إسنادٌ قويٌّ، رجاله رجال الصحيح غير محمّد بن عجلان، فقد روى له مسلم متابعةً، وهو قويّ الحديث. أيضاً:
ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، مصدر سابق: ج١ ص١١٢، الحديث رقم (٤٥).
ـ ترتيبٌ الأمالي، ترتيبٌ موضوعيٌّ لأمالي المشايخ الثلاثة: الصدوق والمفيد والطوسي، لمحمّد جواد المحمودي، مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ: ج٦ ص٣٤٩، أمالي الطوسي، المجلس (٢٦)، الحديث رقم (٨).

(٢) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار عليهم السلام، للعلّامة محمّد باقر المجلسي: ج٦٨ ص٣٨٢، مؤسّسة الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، بيروت.

يقول: «من أهمّ ما يُشاهد في هذا الدين ارتباط جميع أجزائه ارتباطاً يؤدّي إلى الوحدة التامّة بينها، بمعنى أنّ روح التوحيد ساريةٌ في الأخلاق الكريمة التي يندب إليها هذا الدين، وروح الأخلاق منتشرةٌ في الأعمال التي يُكلَّف بها أفراد المجتمع، فجميع أجزاء الدين الإسلامي ترجع بالتحليل إلى التوحيد، والتوحيد بالتركيب يصير هو الأخلاق والأعمال، فلو نزل لكان هي، ولو صعدت لكانت هو، ﴿...إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾ (فاطر: ١٠)»[1].

ومن هنا يتّضح: أنّ الأخلاق الحميدة تهدي إلى التوحيد، وأنّ التوحيد يهدي إلى الأخلاق الحميدة، وأنّ هذه الثنائيّة بين التوحيد والأخلاق هي ثنائيّةٌ تحليليّةٌ، وإلّا فالتوحيد بلا أخلاقٍ حميدةٍ وجودٌ مشوّهٌ لا مردود له، والأخلاق بلا توحيدٍ هي أخلاقٌ نفعيّةٌ أو مجرّد اعتيادٍ وتربيةٍ، وليسا قِيَماً عُليا يؤمن بها الإنسان ويدافع عنها، ولذلك فإنّ: «الأخلاق بمفردها لا تفي بإسعاد المجتمع، ولا تسوق الإنسان إلى العمل الصالح، إلّا إذا اعتمدت على التوحيد، وهو الإيمان بأنّ للعالم ـ ومنه الإنسان ـ إلهاً واحداً سرمديّاً لا يعزب عن علمه شيءٌ، ولا يُغلب في قدرته عن أحد، خلق الأشياء على أكمل نظامٍ، لا لحاجةٍ منه إليها، وسيعيدهم إليه فيحاسبهم، فيجزي المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته، ثمّ يخلدون منعَّمين أو معذَّبين»[2].

وقد تعرّضت الأخبار إلى ذكر أهمّ مصاديق مكارم الأخلاق، ولم تحدِّد لها معنىً خاصّاً، كما هو ديدن الأخبار في اتّجاهها التطبيقي؛ من قبيل:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي: ج٤ ص١٠٩، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة.

(٢) المصدر السابق: ج١١ ص١٥٦.

جاء رجلٌ إلى الإمام جعفرٍ الصادق عليه السلام، فقال: «يا ابن رسول الله، أخبرني بمكارم الأخلاق، فقال: **العفو عمّن ظلمك، وصلة مَن قطعك، وإعطاء مَن حرمك، وقول الحقّ ولو على نفسك**»[١]، وفي خبرٍ آخر عن جراح المدائني أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال له: «**ألا أحدّثك بمكارم الأخلاق؟** قلت: بلى، قال: **الصفح عن الناس، ومواساة الرجل أخاه في ماله، وذكر الله كثيراً**»[٢].

جديرٌ بالذكر أنّ من أعظم وأُولى الأهداف التي يُراد تحقيقها من وراء التوحيد هو التحلِّي بالأخلاق الحميدة، فالتوحيد أشبه ما يكون بالشجرة، والأخلاق منها بمثابة الثمرة، ومن الواضح أنّ الغرض الحقيقي من وراء

---

(١) الأصول من الكافي، لثقة الإسلام أبي جعفرٍ محمّد بن يعقوب الكليني الرازي، تحقيق: قسم إحياء التراث، مركز بحوث دار الحديث، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ، كتاب الإيمان والكفر، باب العفو، الحديث رقم (١٧٨٨): ج٣ ص٢٧٧. أيضاً:

ـ ترتيب الأمالي: ج٦ ص٥٧٤، الحديث رقم (٣٤٥٣)، أمالي المفيد، المجلس (٢٣)، الحديث رقم (٢).

ـ بحار الأنوار، للعلّامة محمّد باقر المجلسي، مؤسّسة الوفاء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة المصحّحة، ١٤٠٣هـ، كتاب الإيمان والكفر، مكارم الأخلاق، الحديث رقم (٦). وهي روايةٌ معتبرةٌ سنداً:

ـ مشرعة البحار، لآية الله الشيخ محمّد آصف محسني، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ: ج٢ ص٣٤٦.

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج٢٨ ص٦٥٤، الحديث رقم (١٧٤٥٢).

وقال المحقّق: إسناده حسنٌ. ابن عيّاش: هو إسماعيل، وهو صدوقٌ في روايته عن الشاميّين كما هو الحال في روايتنا هذه، وباقي الأسناد ثقاتٌ.

ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، مصدر سابق: ج٢ ص٥٥٢، الحديث رقم (٨٩١).

(٢) المصدر السابق.

الشجرة هو الثمرة؛ كما أنّ الهدف الحقيقي من وراء العلم هو العمل، والعلم هو التوحيد، والعمل هو الأخلاق.

وخير ما يُؤدَّب به الإنسان هو الأدب الإلهي، فإنّه الأدب التامّ الذي يُغذّي جميع الكمالات المعنويّة، وهو أدب العصمة الذي أشار إليه رسول الله صلّى الله عليه وآله بقوله: «**أدّبني ربّي فأحسن تأديبي**»[1].

فالأدب الإلهي، أو أدب النبوّة ـ بحسب تعبير العلّامة الطباطبائي ـ هو هيئة التوحيد في الفعل[2]؛ فأحدهما يحكي الآخر ويدعو له.

الأخلاق وطلبة العلم

ونحن بصفتنا من طلبة العلوم الدينيّة أَولى الناس برعاية الأخلاق الإلهيّة والنبويّة وأخلاق أهل العصمة عليهم السلام، وذلك من خلال ما يتجلَّى فينا من التوحيد الخالص، في نوايانا وأقوالنا وأفعالنا وأحوالنا؛ لأنّنا في نظر الشريعة وفي نظر الناس أيضاً الأدلّاء على الآخرة، فإذا ما تقاعسنا عن تهذيب أنفسنا وتهذيب الناس معنا، سنكون قطّاع طريق.

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، لمحمّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ. قال الألباني: وروي بلفظ «أدّبني ربّي وأحسن تأديبي»، ولا يعرف له إسنادٌ ثابتٌ، لكنّ المعنى صحيحٌ.

وهذا ما قاله ابن تيمية في: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم، تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربيّة السعودية، ١٤٢٥هـ: ج١٨ ص٣٧٥.

انظر أيضاً: بحار الأنوار، مصدر سابق: ج١٦ ص٢١٠، تاريخ نبيّنا، باب «مكارم أخلاقه وسيرته وسننه».

(٢) انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٦ ص٢٥٨.

نعم، مسؤوليّة الطلبة تجاه أنفسهم وتجاه مجتمعهم عظيمةٌ وخطيرةٌ جدّاً، شاؤوا ذلك أم أبَوا، وكما يقول السيّد الإمام الخميني في نصيحةٍ منه لطلبة العلوم الدينيّة: «تقع على عاتقكم مسؤوليّةٌ ثقيلةٌ وجسيمةٌ، فإذا لم تعملوا بمسؤوليّاتكم في الحوزات العلميّة ولم تفكّروا بتهذيب أنفسكم، واقتصر همّكم على تعلّم عددٍ من المصطلحات وبعض المسائل الفقهيّة والأصوليّة، فإنّكم ستكونون في المستقبل عناصر ضارّةً ـ لا سمح الله ـ للإسلام والمجتمع الإسلامي، ومن الممكن أن تتسبّبوا ـ والعياذ بالله ـ في إضلال الناس وانحرافهم، فإذا ما انحرف إنسانٌ وضلَّ بسبب سلوككم وسوء عملكم، فإنّكم ترتكبون بذلك أعظم الكبائر، ومن الصعب أن تقبل توبتكم»[1]؛ لاسيَّما وأنّ طلبة العلوم الدينيّة لا غرض لهم في الدنيا سوى حفظ الدين والترويج له، والعمل على إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهو عمل الأنبياء ووظيفة المعصومين عليهم السلام؛ فحياتهم شعارها البساطة والزهد، ومع هذه الأحوال من ظاهر العيش ينبغي أن لا يتوقَّع منهم التكالب على الحياة أو وقوع الاختلاف بينهم، «فهل من المعقول ـ مع هذه الحال التي عليه حياتكم من بساطةٍ وزهدٍ ـ أن تختلفوا فيما بينكم وتتكالبوا على الدنيا ويعادي أحدكم الآخر؟

إنّ جذور كلّ الاختلافات التي تفتقد إلى الهدف المحدّد والمقدّس، تعود إلى حبّ الدنيا؛ وإذا ما وجدت الاختلافات في أوساطكم فهو لأنّكم لم تُخرجوا حبّ الدنيا من قلوبكم؛ ونظراً لأنّ المنافع الدنيويّة محدودةٌ فإنّ كلّ واحدٍ يتنافس مع الآخر للاستحواذ عليها، أنت تريد المقام الفلاني، وغيرك أيضاً يكافح من أجله، فمن الطبيعي أن يقود ذلك إلى التحاسد

---

(١) الجهاد الأكبر، للسيّد الإمام روح الله الخميني: ص٧، منشورٌ في المكتبة الشاملة.

والاختلاف، بيد أنّ رجال الله الذين أخرجوا حبّ الدنيا من قلوبهم، وليس لهم هدفٌ غير رضا الله تعالى، لن يبتلوا بأمثال هذه المفاسد والمصائب، فلو اجتمع اليوم أنبياء الله في مدينةٍ واحدةٍ، لما وقع بينهم أيّ اختلافٍ مطلقاً؛ لأنّ هدف الجميع واحدٌ، والقلوب جميعها متوجّهةٌ نحو الله تعالى، وخاليةٌ من حبّ الدنيا»[1].

هكذا ينبغي أن نكون، حيث السير بسيرة الأنبياء عليهم السلام، فلا شاغل لنا سوى رضا الله تعالى، وهذا ما ينبغي تجسيده بعزمٍ وإخلاصٍ في نوايانا وأقوالنا وأفعالنا ونحن نأخذ بأيادي الناس إلى جادّة الحقّ وضفاف اليقين، فلا معنى أن تتخطّفنا سهام الدنيا، وتتصيّدنا حبائل الشيطان، فذلك يعني السقوط الحقيقي والانكفاء في مقام أسفل السافلين، وسيكون مثَلنا مثَل الذي: ﴿...**خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ (الحجّ: ٣١).

ونحن لسنا كذلك، بل لا يجوز لنا أن نكون كذلك، فإذا كان الطبيب يكتب السمَّ لمرضاه بدلاً عن الدواء فالحياة إلى زوالٍ، ونحن إذا وقع منّا الشرّ وأصبحنا فريسةً سهلةً لحبّ الدنيا وإغواء الشيطان فالدين إلى زوالٍ، وقد قال تعالى: ﴿...**فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (الأعراف: ٨٥)، ونحن أولى الناس بأن نَفِي الكيل والميزان، وأولى بأن نكون من المصلحين.

نعم، نحن المطالبون أوّلاً وبالذات بإيفاء الكيل والميزان للناس من خلال حفظ معاني الأُسوة الحسنة؛ فالناس تتّخذنا أُسوةً وقدوةً، أو على

---

(١) الجهاد الأكبر، للسيّد الإمام روح الله الخميني: ص٧، منشورٌ في المكتبة الشاملة.

الأقلّ هم يروننا كذلك، فنحن من خلال تفقّهنا في الدين وأخلاقيّاتنا القرآنيّة والنبويّة نُعطي للحياة شكلاً ومعنىً يُمكِّن الناس أو يساعدهم على محاربة الشيطان.

نعم، نحن أشبه بالملح، نُعطي الطعام طعماً طيّباً، ونحفظ الأشياء من الفساد، فإذا ما فسد الملح فسد كلّ شيءٍ؛ وهذا ما يجعل مهمّتنا عظيمةً وخطيرةً.

المراد من الأخلاق

الأخلاق: هي ملكاتٌ راسخةٌ في النفس، أو مجموعة كمالاتٍ معنويّةٍ وسجايا باطنيّةٍ للإنسان، وقد تُطلق على العمل والسلوك الذي ينشأ من الملكات النفسانيّة للإنسان أيضاً؛ فما كان منها متعلّقاً بالسجايا الباطنيّة يسمَّى بالأخلاق الصفاتيّة، وما تعلَّق منها بالسلوك الخارجي للإنسان يسمَّى بالأخلاق السلوكيّة، فهنالك أخلاقٌ ظاهريّةٌ تفرضها طبيعة السلوك الخارجي للإنسان، تُعبِّر عن أخلاقه وسلوكه، كالبشاشة وحسن المنطق وعدم بذاءة اللسان، وغير ذلك، كما أنّ هنالك أخلاقاً باطنيةً تتعلَّق بالملكات الذاتيّة التي عليها الإنسان، كالصدق وحسن الظنّ.

وقد ذكر الأخلاقيّون حدوداً للأخلاق لا تخلو من فائدةٍ؛ منهم مسكويه[1]، حيث يرى أنّ: «الخُلُق حالٌ للنفس داعيةٌ إلى أفعالها، من غير

---

(١) هو أبو علي أحمد بن محمّد بن يعقوب الرازي، المعروف بمسكويه؛ وهو حكيمٌ وأخلاقيٌّ ومؤرِّخٌ مشهورٌ، جاءت ترجمته في عدّة كتبٍ باسم «ابن مسكويه»، ولكنّ الصحيح هو «مسكويه» . ولد في الري (جنوب طهران)، وسكن أصفهان وتوفّي فيها عام (٤٢١هـ)، له كتبٌ كثيرةٌ، منها: «تجارب الأُمم وتعاقب الهمم؛ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق؛ طهارة النفس؛ ترتيب السعادات» . (انظر: الأعلام قاموس تراجمٍ، لخير الدين الزركلي:

فكرٍ ولا رويّةٍ»[١]، بمعنى أنّ التوجّه للفعل مساوق للخُلق والصفة التي عليها صاحب الفعل بنحوٍ من الاضطرار وفقدان الإرادة، فإرادته منساقةٌ لخُلقه وصفته الحاكمة، ولذلك فهو لا يملك إزاء ذلك شيئاً إلّا في صورة الالتفات وإرادة المخالفة بنحوٍ من القهر.

وقد تبعه على هذا التعريف الإمام الغزالي في قوله: «الخُلق: عبارةٌ عن هيئةٍ في النفس راسخةٍ، عنها تصدر الأفعال بسهولةٍ ويسرٍ من غير حاجةٍ إلى فكرٍ ورويّةٍ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سمّيت تلك الهيئة خُلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سمّيت الهيئة التي هي المصدر خُلقاً سيّئاً، وإنّما قلنا: إنّها هيئةٌ راسخةٌ؛ لأنّ مَن يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة، لا يقال: خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوتَ رسوخٍ»[٢].

والأخلاق إنّما تُلحظ بآثارها الخارجيّة، فالصفات النفسانيّة والسجايا الباطنيّة لا تنفكّ عن آثارها الخارجيّة، ولهذا فإنّ الغرض الحقيقي من وراء الأخلاق هو تربية الإنسان والارتقاء به إلى كماله المطلوب، الذي به يكون الإنسان إنساناً، وبه يتسنّم مقام الخلافة الإلهيّة والكينونة في الولاية لله تعالى، فيكون العبد وليّاً لله تعالى، فيُكمل سيره اللايقفي وهو مرتدٍ ثوب الولاية[٣].

ج١ ص٢١١، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م، بيروت).

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لأبي علي مسكويه أحمد بن محمّد: ص٥١، تحقيق قسطنطين زريق، نشر الجامعة الأمريكيّة، ١٩٦٦م، بيروت.

(٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي: ج٣ ص٥٣، دار المعرفة، بيروت.

(٣) يمكن مراجعة بعض التفاصيل في كتاب «من الحقّ إلى الخلق» أو «مراتب السير والسلوك إلى الله»، من أبحاث المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن.

المراد من علم الأخلاق

في ضوء ما تقدّم من بيان معنى الأخلاق نكون قد اقتربنا من الفهم الإجمالي لعلم الأخلاق، فهو: «الفنّ الباحث عن الملكات الإنسانيّة المتعلّقة بقواه النباتيّة والحيوانيّة والإنسانيّة، وتمييز الفضائل منها عن الرذائل، ليستكمل الإنسان ـ بالتحلّي والاتّصاف بها ـ سعادته العلميّة، فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العامّ والثناء الجميل من المجتمع الإنساني»(١).

والملكات تعبيرٌ آخر عن الهيئات الراسخة في الإنسان، فالراسخ منها يسمّى «ملكةً»، وغير الراسخ هو «الحال»، وأمّا الراسخ غير القابل للزوال أبداً فيسمَّى «المقام»، في حين أنّ «الملكة» صفةٌ راسخةٌ يُمكن أن تزول بصورةٍ بطيئةٍ(٢).

إذن، ملكات الإنسان الأساسيّة تتعلّق بقوىً ثلاثٍ موجودةٍ فيه، هي النباتيّة والحيوانيّة والإنسانيّة، وإنّ مهمّة علم الأخلاق هي التمييز بين الصالح والطالح من هذه الملكات، ليستكمل الإنسان بالصالح منها سعادته العلميّة والعمليّة(٣).

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿...وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التغابن: ١٤).

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١ ص٣٧٠. جاء في الأصل «وتميّز الفضائل منها عن الرذائل»، ولكنّ الصحيح هو ما أثبته السيّد الأستاذ دام ظلّه.

(٢) سيأتي بيان المسألة في الدرس الثاني.

(٣) يُنظر تفصيل المسألة: مقدّمةٌ في علم الأخلاق، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري.

- قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «**كفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك**»[١].
- قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله عزّ وجلّ خصّ رسله بمكارم الأخلاق، فامتحنوا أنفسكم، فإن كانت فيكم فاحمدوا الله، واعلموا أنّ ذلك من خيرٍ، وإن لا تكن فيكم فاسألوا الله، وارغبوا إليه فيها**»[٢].

خلاصة الدرس

- اجتمع الأنبياء عليهم السلام على أهمّ دعوتين: كلمة التوحيد، ومكارم الأخلاق.
- الأخلاق الحسنة ضمانةٌ حقيقيّةٌ للسير على الجادّة وحفظ القيم الفطريّة.
- الخُلق العظيم هو مكارم الأخلاق عملاً، وهو التوحيد عقيدةً.
- لو تجلَّى التوحيد عملاً لكان أخلاقاً، ولو صعدت الأخلاق إلى السماء لكانت توحيداً.
- من مكارم الأخلاق: العفو عمّن ظلمك، وصلة مَن قطعك، وإعطاء مَن حرمك، وقول الحقّ ولو على نفسك، وذكر الله كثيراً.
- طلبة العلوم الدينيّة أولى الناس برعاية الأخلاق الإلهيّة والنبويّة.
- إذا وقع الشرّ من طلبة العلم وأصبحوا فريسةً لحبّ الدنيا وإغواء الشيطان، فالدين إلى زوالٍ.
- طلبة العلوم الدينيّة أشبه بالملح، فإذا ما فسد الملح فسد كلّ شيءٍ.

---

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام عليٍّ عليه السلام: ج٤ ص٩٦ رقم (٤١٢)، جمع الشريف الرضي، تحقيق: الشيخ محمّد عبده، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) أصول الكافي، طبعة دار الحديث، قم: ج٣ ص١٤٤، الحديث رقم (١٥٦١).

- الأخلاق ملكاتٌ راسخةٌ في النفس، وقد تُطلق أيضاً على العمل والسلوك الذي ينشأ من الملكات النفسانيّة للإنسان.
- علم الأخلاق فنٌّ باحثٌ في ملكات الإنسان، وتمييز فضائلها من رذائلها.

مذاكرة

- هل عرفت وجه العلاقة بين الأخلاق والتوحيد؟
- هل عرفت سرَّ بعثة النبيّ الخاتم صلّى الله عليه وآله؟
- لماذا الإسلام دين مكارم الأخلاق؟
- ما هي وظيفة طلبة العلوم الدينية في الأخلاق الحميدة؟
- ما هي الأخلاق؟
- ما هو المراد من علم الأخلاق؟

الدرس الثاني

الأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة في حياة الإنسان

- أهداف الدرس
- تمهيد
- ضرورة الأخلاق في حياتنا
- الأخلاق المنطبعة تتجلَّى في سكرات الموت
- الأخلاق ضمانة النجاة في الآخرة
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- ضرورة الأخلاق في حياتنا الفرديّة والاجتماعيّة.
- الفرق بين الحال والملكة والمقام في الأخلاق.
- الأخلاق الحميدة طاردةٌ للأخلاق الذميمة، ومزيلةٌ لآثارها.
- التوبة النصوح طريقٌ لنبذ الأخلاق الذميمة وليست علّةً.
- ما ينطبع في النفس يتجلَّى في سكرات الموت.
- الأخلاق ضمانة النجاة في الآخرة.

تمهيد

الإنسان بصفته مدنيّاً بالطبع، لا يستطيع أن يعيش منفرداً، وارتباطه بالمجتمع يفرض عليه سلوكيّاتٍ تحفظ له حياته وعلاقاته، وهنا تأتي الأخلاق الفرديّة والأخلاق الاجتماعيّة لتنظّم سلوكيّاته الخاصّة والمشتركة، وهذا ما ستتعرّف عليه في هذا الدرس، مع بياناتٍ أخرى تتعلّق بما ينطبع في النفس من الأخلاق وتجلّيها في سكرات الموت.

ضرورة الأخلاق في حياتنا

إنّ حياة الإنسان تارةً تُلحظ فرديّةً، وأُخرى اجتماعيّةً، وللأخلاق الحميدة والذميمة معاً آثارٌ عظيمةٌ على أخلاقنا الفرديّة والاجتماعيّة، من هنا اقتضى الأمر الفصلَ بين الأثَرَين، ولنبدأ بالأخلاق الفرديّة.

أوّلاً: ضرورة الأخلاق في حياتنا الفرديّة

إنّ النفس كالفرس الجموح والشموس هائجةٌ تريد ما لها وما ليس لها،

وهذا ما يجعل الناس في خطرٍ عظيم، فلابدّ من لجم النفس بلجامٍ يرتقي بالنفس لا أن يهبط بها، وهذا اللجام الإلهي هو المسمَّى بالأخلاق الحميدة، ولا يمكن للأخلاق أن تكون فاعلةً في النفس إلّا إذا صارت ملكاتٍ، فللأخلاق ثلاث مراتب طوليّة، هي:

أوّلاً: مرتبة الحال، وهي مرتبةٌ متزلزلةٌ، سرعان ما تزول، سواءً في الأخلاق الحميدة أم في الأخلاق غير الحميدة، فتكون أشبه ما تكون بحالة الجوع والعطش، فسرعان ما يزول العطش بالارتواء، والجوع بالشبع.

ثانياً: مرتبة الملكة، وهي مرتبةٌ شبه ثابتةٍ، أو قل: بطيئة الزوال.

ثالثاً: مرتبة المقام، وهي المرتبة الثابتة التي لا تزول أبداً، والمسمّاة ـ في الأخلاق غير الحميدة ـ بـ«الرين» حسب الاصطلاح القرآني؛ قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطفّفين: ١٤).

وكلّ مرتبةٍ ـ من المراتب الثلاث المذكورة آنفاً ـ في دائرة الأخلاق الحميدة هي مرتبةٌ مقبولةٌ ومطلوبةٌ، كما أنّ كلّ مرتبةٍ منها في الأخلاق الذميمة مرفوضةٌ ومنبوذةٌ، فالأخلاق الذميمة منبوذةٌ على مستوى الحال، فكيف بالملكة؟ وكيف بالمقام؟

كما أنّ الأخلاق الحميدة ممدوحةٌ أيضاً على مستوى الحال، فكيف بالملكة؟ وكيف بالمقام؟

إنّ الأخلاق الحميدة لكي تكون فاعلةً ومؤثّرةً لابدّ أن تكون ـ على أقلّ التقادير ـ في مرتبة الملكة، وأمّا في مرتبة الحال فإنّها ضعيفةٌ، ولا تستطيع أن تحرّك الإنسان إلّا لمسافاتٍ قصيرةٍ، فهي أشبه ما تكون بالفولتيّة الضعيفة، فإنّها لا تستطيع إضاءة مصباحٍ كبيرٍ، وكالحبل الضعيف لا تستطيع أن تجرَّ به مركبةً، بخلاف الملكات فإنّها صفاتٌ منغرسةٌ في النفس،

ولذلك عندما عبَّرنا عن الأخلاق بالملكات الراسخة في النفس فإنّما هو بلحاظ تأثيرها، وحيث إنّ الأخلاق الأحواليّة ضعيفة التأثير فإنّها لا تُسمَّى أخلاقاً حقيقيّةً إلّا من باب المجاز والتوسعة.

ولكن لابدّ من الالتفات إلى كون الأخلاق الذميمة في مرتبة الحال إذا لم نعمل على تطهير نفوسنا منها فإنّها ستتحوَّل في المستقبل إلى ملكاتٍ راسخةٍ في النفس، كما أنّ الملكات إذا لم تُعالَج ـ وإن كانت تحتاج إلى زمنٍ طويلٍ ـ فإنّها ستتحوّل إلى مقاماتٍ، والمقام هو الموت القلبي بعينه، وهو الغفلة التامّة، وكأنّهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٨)، وعندئذٍ لا ينفع معهم علمٌ ولا قولٌ ولا عملٌ؛ قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (الزخرف: ٤٠).

كما أنّ الأخلاق الحميدة في مرتبة الحال إذا لم تُراعَ وتُغذَّ وتُدعم، فسوف تزول شيئاً فشيئاً، وهكذا الحال في الملكات الحسنة فإنّها سوف تتحوّل إلى أحوالٍ، والأحوال إلى زوالٍ، وليس أمامنا لتنمية الأخلاق الحميدة وترسيخها في النفوس غير إخلاص النيّة والعمل بها؛ فإخلاص النية يُوجب تنميتها، كما أنّ العمل بها يُوجب ترسيخها، وإذا ما ترسَّخت الأخلاق الحميدة في النفس فإنّها ستقوم بدورٍ عظيمٍ جدّاً، وهو دور تصفية القلب والنفس من الآثار الوضعيّة التي تركتها الأخلاق الذميمة في النفس.

بعبارةٍ أُخرى: إنّ الدواء يقضي ـ عادةً ـ على المرض، ولكنّه لا يعمل على إصلاح ما أفسده المرض في الجسد، فلابدّ من شيءٍ آخر يقوم بهذا العمل، فالغذاء الصحِّي ـ مثلاً ـ يقوم بهذا الدور البنائي.

وهنا نفس الأخلاق الحميدة تقوم بطرد الأخلاق الذميمة، وهذه مرتبةٌ كماليّةٌ جليلةٌ، ولكن هنالك مرتبةٌ كماليّةٌ أدقّ وأعمق، وهي مرتبة إزالة ما

تركته الأخلاق الذميمة في النفس من براثن الملكات السيّئة، وهذا ما يقوم به الإخلاص في النيّة، وإدامة العمل بالأخلاق الحميدة، أي: القيام بنشر الفضيلة، فديمومة العمل بالأخلاق الحسنة يُنقِّي زوايا النفس من تبعات الماضي السيّئ، وتركات الذنوب السابقة.

فقد يتوب الإنسان توبة نصوحاً، وقد يتقبّل الله تعالى منه توبته، وقد يغفر له ذنوبه، ولكنّ الآثار الوضعيّة والتكوينيّة التي خلّفتها المعاصي في النفس لا تزول بالتوبة، ولا تزول بالرغبة، ولا تزول بالمغفرة، كالمدمن على شرب السجائر، فإنّه إذا تاب عن عمله السيّئ هذا فإنّه لا يزول أثر السجائر عن بدنه، فلابدّ له من أيّامٍ طويلةٍ وعملٍ دؤوبٍ للتخلّص من ذلك.

من هنا لابدّ من مداومة العمل الصالح، والعمل بالأخلاق الحميدة؛ لأنّها موجبةٌ لزوال الآثار الوضعيّة التي تركتها الذنوب السابقة، وإذا لم نعمل على إدامة الأخلاق وترسيخها في النفوس فإنّ سنخيّة الآثار الوضعيّة تستدعي ما يُسانخها من الذنوب والأعمال الخبيثة، وبالتالي سيعود الإنسان التائب شيئاً فشيئاً إلى المعاصي، وربّما سيكون أسوأ ممّا كان عليه قبل التوبة.

والمحصّلة من ذلك: أنّه لا تكفي الإنسان التائب توبته وإن كانت نصوحاً، ولا يكفي نبذ الأخلاق الذميمة، ولا يكفي تعلّم الأخلاق الحميدة أو الميل إليها أو التحلّي المرحليّ بها، وإنّما لابدّ من مداومة العمل بها وترسيخها في النفس، كما لابدّ من الإخلاص في النيّة[1]، لتخليص النفس من تبعات الماضي وآثار الذنوب.

---

(١) سيأتي الحديث عن النيّة وكيفيّة الإخلاص في النيّة، في الحلقة الثالثة من هذه السلسلة.

ولذلك فإنّه: «من الواجب عند التعليم أن يتلقّى المتعلِّم الحقائق العلميّة مشفوعةً بالعمل حتّى يتدرّب بالعمل ويتمرَّن عليه؛ لتزول بذلك الاعتقادات المخالفة الكائنة في زوايا نفسه، ويرسخ التصديق بما تعلّمه في النفس؛ لأنّ الوقوع أحسن شاهدٍ على الإمكان، ولذلك نرى أنّ العمل الذي لم تَعْهد النفس وقوعه في الخارج يصعب انقيادها له، فإذا وقع لأوّل مرّةٍ بدا كأنه انقلب من امتناعٍ إلى إمكانٍ، وعظُمَ أمر وقوعه، وأورث في النفس قلقاً واضطراباً، ثمّ إذا وقع ثانياً وثالثاً هان أمره وانكسرت سَورته، والتحق بالعاديّات التي لا يُعبأ بأمرها، وإنّ الخير عادةٌ، كما أنّ الشرّ عادةٌ، ورعاية هذا الأُسلوب في التعليمات الدينيّة وخاصّة في التعليم الديني الإسلامي، من أوضح الأُمور، فلم يأخذ شارع الدين في تعليم مؤمنيه بالكلّيات العقليّة والقوانين العامّة قطّ، بل بدأ بالعمل وشفّعه بالقول والبيان اللفظي، فإذا استكمل أحدهم تعلُّم معارف الدين وشرائعه، استكمله وهو مُجَهَّزٌ بالعمل الصالح، مُزَوَّدٌ بزاد التقوى»[1].

والخلاصة من ذلك كلّه: أنّ لجامَ النفس الجموح يبدأ بالتحلّي بالأخلاق الحميدة، ويتحقَّق بدوام العمل بها، كما أنّ العمل بها عملٌ وقائيٌّ لحفظ النفس من الميل والذهاب للباطل مرّةً أُخرى، ومن هنا نكتشف ضرورة الأخلاق الحميدة في حياتنا الفرديّة.

ثانياً: ضرورة الأخلاق في حياتنا الاجتماعيّة

وهنا يكمن البُعد الاجتماعي في الأخلاق وضرورة التحقّق بها، فإنّ المجتمع لا يحيا حياةً هانئةً من دون عنصر الأمان، فإذا غاب الأمن انعدمت

---

(١) انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٦ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩.

الحياة، ولذلك إذا ما تصوّرنا مجتمعاً يعيش بلا أخلاقٍ حميدةٍ فإنّه سائرٌ إلى الزوال، هذه الأخلاق قد يتمّ تعويضها في الدول المدنيّة بالقوانين الوضعيّة، ولكنّ القوانين الوضعيّة تعني القوّة والبطش، فيكون عدم المخالفة من قبل الناس سببه الخوف من البطش، وليس لأنّ المخالفة والخطيئة لا ينبغي عملها، أو لأنّ الأخلاق قيمةٌ إنسانيّةٌ وضرورةٌ دينيّةٌ لابدّ من التحلّي بها، ولذلك نجد الشعوب في الأوقات الحرجة تُختَبر شخصيّتها، هل تحمل الأخلاق كقيمةٍ إنسانيّةٍ ودينيّةٍ عاليةٍ، أم أنّها تتمسّك بظواهرها خشية القانون والبطش بهم؟

ومن الواضح أنّ الشعوب التي تغيب عنها السلطة والحكومة لا تحتفظ بأخلاقها، بل تسير باتّجاه القتل والإرهاب والنهب والسلب.

فممّا سُجِّل في بعض الدول المتقدّمة: أنّ انقطاع التيّار الكهربائي ليلاً في إحدى ولاياتها الكبيرة لمدّة أربع ساعاتٍ فقط بسبب الأحوال الجويّة، قد أدّى إلى سرقاتٍ واسعة النطاق في المؤسّسات والمحلّات من قبل مجتمع المدينة نفسه.

وهذه الصفة ليست منحصرةً بأُولئك، فنحن في مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة يحصل عندنا ذلك أيضاً[1]، وسيحصل ذلك ويبقى ما لم تتسلّح الأُمم بالأخلاق، أي يكون الداعي لعدم ارتكاب الخطيئة هو الاعتقاد الراسخ بكون الأخلاق تمثّل قيمةً إنسانيّةً وضرورةً دينيّةً.

---

(١) وخير شاهدٍ قريبٍ على ذلك: ما حصل في العراق بعد سقوط النظام عام ٢٠٠٣م؛ حيث صار العراق مسرحاً للقتل والنهب والسلب، ومن قبل ذلك كان نفس الأمر في لبنان، وكما هو حاصل في بعض الدول العربيّة الأخرى، وهذا ما يحصل عادةً في معظم الدول التي تغيب حكوماتها عن المسرح لفترةٍ ما.

من هنا يتّضح لنا ضرورة الأخلاق على المستوى الاجتماعي، بعدما اتّضحت ضرورتها على المستوى الفردي، ولا يمكن لمجتمعٍ أن تسود فيه الأخلاق الاجتماعيّة دون أن يكون أبناؤه مُتخلِّقين بالأخلاق الفرديّة، فالأخلاق الفرديّة هي أرضيّة الأخلاق الاجتماعيّة.

ولذلك فإنّ طلبة العلم ما لم يكونوا متزوِّدين بالأخلاق الفرديّة، لا يمكن لهم غرس الأخلاق الاجتماعيّة في الناس، وكما قيل في القاعدة العقليّة: إنّ فاقد الشيء لا يُعطيه.

ما ينطبع في النفس من الأخلاق يتجلَّى في سكرات الموت

إنّ كلَّ ما يُبطنُه الإنسان من علمٍ وأخلاقٍ وسلوكٍ، سوف يظهر له عند موته، بل ويتجلَّى له في سكرات الموت، فيرى ما هو عليه من حقيقةٍ، ولذلك من الممكن للإنسان أن يخدع الناس وأن يخدع نفسه أيضاً بأنّه مؤمنٌ وحسن السيرة، ولكنّ الحقيقة ستبقى هي الحاكمة في رسم الصورة الباطنيّة للإنسان، وهذه الصورة من الممكن مشاهدتها في الدنيا، إلّا أنّها تحتاج إلى عينٍ ملكوتيّةٍ، غيبيّةٍ وبرزخيّةٍ، ترى ما وراء الجدران المادّية[1].

---

(١) يُروى أنّ أحد العرفاء الأخيار كان إذا مرَّ بين الناس يُكثر في سرِّه من القول: «يا ستّار، يا ستّار» ؛ لكي تغيب عن بصيرته الحقائق الباطنيّة المرعبة لكثيرٍ من الناس، فإنّ حقائق بعض الناس تُصيب الإنسان الطاهر بالوحشة والألم، ومنه يتّضح شدَّة الأذى الذي كان يصيب النبيّ محمّداً صلّى الله عليه وآله، والألم الذي كان يكابده وهو يُقابل في كلّ يومٍ جبابرة قريشٍ وطغاتها، ممّن خبثت سريرتهم، وانطوت على السمّ الزعاف ألسنتهم، وقد عبَّر صلّى الله عليه وآله عن ذلك بقوله: «ما أوذي أحدٌ مثل ما أوذيت في الله». (مسند أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج١٩ ص٢٤٥، الحديث رقم: ١٢٢١٢). قال المحقّق: إسناده صحيحٌ على شرط مسلم، وورد أيضاً: ج٢١ ص٤٤٣، الحديث رقم (١٤٠٥٥).

الأخلاق ضمانة النجاة في الآخرة

وأخيراً فإنّ الأخلاق بعيداً عن بُعدها الفردي والاجتماعي، طريقُ النجاة من العذاب في الدار الآخرة، فهي سبيل نجاةٍ من الخطايا والموبقات في الدنيا الزائلة، وسبيل نجاةٍ من العذاب الأُخروي، على أنّ الأخلاق بنفسها تشكِّل عملاً حقيقيّاً يُؤجَر عليه الإنسان، فالإنسان الخلوق مأجورٌ على أخلاقه دون أن يعمل شيئاً؛ لأنّه أصلح سريرته، بل الإنسان الخلوق ينال بأخلاقه درجةً عاليةً من درجات العُبَّاد، كما جاء ذلك صريحاً في قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار**»[1]، بل هو يُدرك بخُلُقه الحسن تلك المراتب الرفيعة وما هو أشرف منها حتّى وإن كانت عباداته عاديّةً، فقد جاء في الخبر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل، وإنّه لضعيف العبادة، وإنّه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجةٍ في جهنّم**»[2]، فالخُلق الحسن ليس جابراً للعبادة فحسب، بل هو عبادةٌ خالصةٌ بنفسه، بل هو ذروة العبادة، والهدف السامي للعبادة؛ فالإنسان لا ينال من أخيه الإنسان شيئاً من صلاته وصومه، ومن سائر عباداته، ولكنّه ينال من أخلاقه، فيحسُن بحُسنِها، ويسوء بسوئها.

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، الحديث رقم (١٧٥٨): ج٣ ص٢٦٣، وهي صحيحة السند. كما جاء في:
- صحيح الكافي، للعلّامة البهبودي: ج١ ص٨٠، الحديث رقم (٢٢٣).
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج٤٢ ص٣٤٦، الحديث رقم (٢٥٥٣٧). قال المحقّق: حديثٌ صحيحٌ لغيره.

(٢) المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد الطبراني: ج١ ص٢٦٠ ح٧٥٤، تحقيق: حمدي عبد الحميد، طبع دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، القاهرة.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصّلت: ٣٤).
- قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**جعل اللّهُ سبحانَهُ مكارمَ الأخلاق صِلةً بينه وبين عبادِهِ، فحَسْبُ أَحدِكُم أَن يتمسّكَ بخُلقٍ مُتَّصلٍ باللّهِ**»[١].
- قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «**لو كنّا لا نرجو جنّةً، ولا نخشى ناراً، ولا ثواباً ولا عقاباً، لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق؛ فإنّها ممّا تدلّ على سبيل النجاح**»[٢].

خلاصة الدرس

- الإنسان مدنيٌّ، وارتباطه بالمجتمع يفرض عليه سلوكيّاتٍ تحفظ له حياته وعلاقاته.
- الأخلاق الفرديّة هي أرضيّة الأخلاق الاجتماعيّة.
- النفس فرسٌ جموحٌ، ولجامها هو الأخلاق الحميدة.

---

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، لابن أبي فراس المالكي الأشتري: ج٢ ص١٢٢، نشر مكتبة الفقيه، قم المقدّسة. أيضاً:

ـ نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، للشيخ الحسين بن محمّد بن الحسن بن نصر الحلواني: ص٥٢ ح٢٧، تحقيق ونشر: مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، الطبعة الأولى المحقّقة، ١٤٠٨هـ، قم المقدّسة.

(٢) مستدرك الوسائل، للميرزا حسين النوري الطبرسي: ج١١ ص١٩٣ ح٢١، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، قم المقدّسة. أيضاً:

ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، لمحمّد عبد الرؤوف المنّاوي: ج٦ ص٣، تحقيق: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، بيروت.

- للأخلاق ثلاث مراتب طوليّة: الحال، والملكة، والمقام.
- لكي تكون الأخلاق فاعلةً لابدّ أن تكون ـ كحدٍّ أدنى ـ في مرتبة الملكة.
- الأخلاق الذميمة في مرتبة الحال إذا تُركت تتحوَّل إلى ملكاتٍ راسخةٍ.
- طريق تنمية الأخلاق الحميدة وترسيخها، إخلاص النيّة والعمل بها.
- التوبة ـ وإن كانت نصوحاً ـ لا تمحو الآثار الوضعيّة للمعاصي السابقة.
- إدامة العمل الصالح موجبٌ لزوال الآثار الوضعيّة للذنوب السابقة.
- طلبة العلم ما لم يكونوا متزوِّدين بالأخلاق الفرديّة، لا يمكن لهم غرس الأخلاق الاجتماعيّة في الناس، وفاقدُ الشيء لا يُعطيه.
- ما يبطنُه الإنسان من علمٍ وأخلاقٍ وسلوكٍ سيتجلَّى له في سكرات الموت.
- الأخلاق الحميدة ضمانة النجاة في الآخرة.

مذاكرة

- ما مدى ضرورة الأخلاق الفرديّة في حياتنا؟
- ما مدى ضرورة الأخلاق الاجتماعيّة في حياتنا؟
- أين خطورة الأخلاق الذميمة بين الحال والملكة والمقام؟
- ما هي وظيفة الأخلاق الحميدة غير كونها طاردةً للأخلاق الذميمة؟
- لماذا لا تكون التوبة النصوح علّةً لطرد الأخلاق الذميمة؟
- هل عرفت أنّ ما ينطبع في النفس يتجلَّى في سكرات الموت؟
- ما علاقة الأخلاق بضمانة النجاة في الآخرة؟

الدرس الثالث

الأخلاق في بُعدها القرآني

- أهداف الدرس
- تمهيد
- قرآنيّة الأخلاق
- القرآن دستورٌ أخلاقيٌّ
- الأبعاد النظريّة للأخلاق في القرآن
- الأبعاد العمليّة للأخلاق في القرآن
- من أسرار التركيز القرآني على الأخلاق
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- أرضيّة البناء القرآني، ودستوريّة الأخلاق.
- علاقة الأخلاق الحميدة بالكمالات الأُخرى.
- نتيجة العلم الذي لا تواكبه الأخلاق الكريمة.
- علاقة دستوريّة القرآن للأخلاق باستراتيجيّته الثابتة.
- الأبعاد الأساسيّة للنظريّة الأخلاقيّة في القرآن.
- الأبعاد العمليّة الأساسيّة للأخلاق القرآنيّة.
- بعض أسرار التركيز القرآني على الأخلاق.
- الفرق بين أسر السيف وأسر الأخلاق.

تمهيد

لا تشكّل الأخلاق فقرةً مهمّةً في القرآن فحسب، ولا أيضاً فصلاً يقع في عرض فصولٍ أُخرى، وإنّما مثّلت الأخلاق أرضيّة البناء القرآني، ولذلك صار القرآن دستوراً أخلاقيّاً، لا بمعنى الانحصار بالأخلاق، وإنّما بمعنى ربط الفقرات والفصول الأُخرى بالبناء الأخلاقي، ولذلك طرح القرآن الكريم أسمى المفاهيم الأخلاقيّة وأشرفها، وضرب لها أروع الأمثلة التطبيقيّة، وكأنّه يُريد أن يُوصل إلينا فكرته البنائيّة للإنسان بأمانةٍ كبيرةٍ، ومهنيّةٍ عاليةٍ، وهي: أنّ الإنسان الواجد للأخلاق الحميدة سيكون مؤهّلاً لتحصيل الكمالات الأُخرى، والإنسان الفاقد لها سيكون في منأىً عن تحصيل الكمالات الأخرى، وإذا ما اتّفق أن يكون بعض الفاقدين للأخلاق

الكريمة واجدين للكمالات الأُخرى فذلك وهمٌ وخداعٌ، فالعلم الذي لا تواكبه الأخلاق سيكون وبالاً على صاحبه، لا يُورثه إلّا الكِبر والخُيلاء والعناد.

قرآنيّة الأخلاق

جاء القرآن الكريم ليبني الإنسان، والإنسان الحقيقي إنّما يكون بصلاح باطنه، وهنا مكمن الأخلاق الكريمة؛ لأنّها ـ كما تقدّم ـ ملكاتٌ وصفاتٌ راسخةٌ في النفس، ولذلك ومن هذا المنطلق نقطع بأنّه لا توجد آيّةٌ قرآنيّةٌ إلّا وفيها نفحةٌ من الأخلاق، وهذا ما يجعلنا نعتقد بأنّ القرآن في واقعه هو «قرآن الأخلاق».

ومن الواضح أنّ الأخلاق الكريمة والحسنة هي الواجهة العمليّة للدين، وإنّما آمن الكثير من المشركين بالإسلام نتيجة تأثّرهم بأخلاق النبيّ محمّدٍ صلّى الله عليه وآله، أو بأخلاق الإسلام، أو قل: بما جاء به القرآن من أرفع المُثُل في التربية والأخلاق، وقد وردت في ذلك روايةٌ تُعبِّر عن عمق الصلة بين الدين والأخلاق، حيث يُروى أنّ رجلاً جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وجلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، ما الدين؟ فقال صلّى الله عليه وآله: **حسن الخلق**. ثمّ أتاه الرجل عن يمينه، فقال: ما الدين؟ فقال صلّى الله عليه وآله: **حسن الخلق**، ثمّ أتاه الرجل من قبل شماله، فقال: ما الدين؟ فقال صلّى الله عليه وآله: **حسن الخلق**، ثمّ أتاه الرجل من ورائه، فقال: ما الدين؟ فالتفت إليه وقال صلّى الله عليه وآله: **أما تفقه الدين؟ هو أن لا تغضب**[1].

---

(١) ورد ذيل هذا الحديث في: صحيح البخاري، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الرسالة العالميّة،

القرآن دستورٌ أخلاقيٌّ

وتبعاً لذلك فإنّ القرآن الكريم لم يكن تعرّضه للقضايا الأخلاقيّة في الأصل من باب الموعظة والتذكير، وإنّما من باب التأسيس لمنظومةٍ ودستورٍ يكون فيه قوام الإنسان، وقد أحسن الأُستاذ الدرّاز عندما كتب «دستور الأخلاق في القرآن»[1]؛ ليُسجِّل أوَّل محاولةٍ في هذا المجال.

إنّ دستوريّة القرآن للأخلاق تنطلق من استراتيجيّته الثابتة، المتمثّلة بالدعوة للتوحيد، ونبذ مختلف أصناف الكفر والشرك والضلال، فالأخلاق هي البُعد العملي والتطبيقي للتوحيد، ولذلك لا معنى للتوحيد من دون أخلاقٍ كريمةٍ، وكلّ أُمّةٍ تمتلك ناصية الأخلاق الكريمة فإنّها أُمّةٌ موحِّدةٌ من الناحية العمليّة وإن كانت كافرةً على مستوى النظريّة، كما أنّ الأمّة التي لا تمتلك ناصية الأخلاق الكريمة هي أمّةٌ غير موحّدةٍ من الناحية العمليّة وإن كانت مؤمنةً من الناحية النظريّة، ولذلك فإنّ دستوريّة الأخلاق هي الواقعيّة العمليّة لدستوريّة التوحيد، ومنه نفهم الخبر المرويّ عن الإمام جعفرٍ الصادق عليه السلام: «**إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أتاه رجلٌ من الأنصار، فقال: إنّي اشتريت داراً في بني فلان، وإنّ أقرب جيراني منّي جواراً مَن لا أرجو خيره، ولا آمن شرّه**، قال عليه السلام: **فأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام وسلمان وأبا ذرّ أن ينادوا في المسجد بأعلى أصواتهم بأنّه: لا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه، فنادوا بها ثلاثاً، ثمّ أومأ بيده إلى كلّ أربعين داراً من بين يديه**

الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، الحديث (٦١١٦).
وورد الحديث كاملاً في: بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٦٨ ص٣٩٣، الحديث رقم (٦٣).

(١) الدكتور محمّد عبد الله درّاز، وكتابه هذا هو رسالة دكتوراه باللغة الفرنسيّة من جامعة السوربون في فرنسا، عرَّبه وحقّقه وعلَّق عليه: الدكتور عبد الصبور شاهين.

ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله»[1].

فالأخلاق ليست خصالاً يتزيَّن بها الإنسان المؤمن وحسب، وإنّما هي الواقع العملي لإيمانه بالله تعالى ورسوله والدار الآخرة، وهذا ما يلزمنا بأن نكون على بيّنةٍ من أمرنا، ويجعلنا شديدي المراقبة لأقوالنا وأفعالنا، ففي هذه المراقبة تكمن مراقبتنا لحقيقة التوحيد الذي تنطوي عليه القلوب.

الأبعاد الأساسيّة للنظريّة الأخلاقيّة في القرآن

انطلاقاً من الرؤية الشموليّة القرآنيّة، وملاحظة خصوصيّات المجالات المعرفيّة الأساسيّة في سَنِّ الأحكام وتحديد وظائف المكلّفين، وملاحظة مقوّمات بناء المجتمع، انطلاقاً من ذلك كلّه وفي ضوئه، بُنيت النظريّة الأخلاقيّة في القرآن، فلم تشذّ النظريّة الأخلاقيّة عن التوحيد، ولم تتبنَّ مفهوماً تعجز عن دركه العقول، ولم تفرض شيئاً تتنفّر منه النفوس، ولذلك يُمكن تسجيل ثلاثة أبعادٍ أساسيّةٍ للنظريّة الأخلاقيّة في القرآن، وهي:

البُعد الأوّل: قيام النظريّة الأخلاقيّة على أصل التوحيد.

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق، كتاب العشرة، باب حقّ الجوار، الحديث رقم (٣٧٥٦).

وهي صحيحة السند، كما جاء في:

ـ صحيح الكافي، للبهبودي: ج١ ص١٦٩، الحديث رقم (٥٧٨).

ـ مسند أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج٢٦ ص٢٩٢. قال المحقّق: إسناده صحيحٌ على شرط الشيخين.

ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، مصدر سابق: ج٦ ص١٢٧٦، الحديث رقم (٣٠٠٠).

ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته، لمحمّد ناصر الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ: ج٢ ص١١٩١، الحديث رقم (٧١٠٢).

البُعد الثاني: اعتماد المفاهيم المُدركة.

البُعد الثالث: ملاءمة المفاهيم للفطرة والطباع البشريّة.

وقد عُرضت النظريّة الأخلاقيّة القرآنيّة بطريقةٍ فنّيةٍ رفيعةٍ؛ حيث اليسر في التعبير، والعمق في المضمون، كما هو ديدن القرآن الكريم في جميع خطاباته ونظريّاته ومتبنّياته.

ولنأخذ شاهداً قرآنيّاً على ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (فصّلت: ٣٣)، فهذه الآية الكريمة تنطلق من أصل التوحيد: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ**﴾، ثمّ تنطلق إلى الواقع العملي فتصبغ الأعمال بالصلاح: ﴿**وَعَمِلَ صَالِحاً**﴾، ثمّ تطلب منه أن يكون من الناس لا أن يتعالى عليهم: ﴿**وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾.

فالتوحيد والواقع العملي والارتباط بالناس ـ هذه الأمور الثلاثة ـ واضحةٌ جليّةٌ، وتتناسب مع الفطرة السليمة والطباع البشريّة السويّة.

الأبعاد العمليّة للأخلاق في القرآن

وهنا يكمن حجر الزاوية في الأخلاق القرآنيّة، فرغم أهمّيّة المفهوم الأخلاقي إلّا أنّه ليس إلّا مرآةً لرؤية المضامين العمليّة. وما جاء في وصف الخُلُق النبوي من أنّه كان صلّى الله عليه وآله خُلُقه القرآن، ليس إلّا القول بأنّ المفهوم الأخلاقي القرآني كان مجرّد ممرٍّ للكينونة في الواقع العملي، والواقع العملي للأخلاق القرآنيّة يفرض ضروباً من التحدّي، على الإنسان القرآني أن يتجاوزها، من قبيل مقابلة التجاوز والتعدّي بالتسامح والعفو، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصّلت: ٣٤)، وهنا تكمن ذروة التحدّي للنفس الأمّارة وقواها الغريزيّة، فكان لابدّ من أداةٍ معنويّةٍ تُقيم صلبه، وهي الصبر: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، وهذا الصبر ليس من عامّة الصبر، وإنّما هو صبر الموحّدين، والموحّدون هم وحدهم أصحاب الحظّ العظيم: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصّلت: ٣٥)، وهذا الحظّ التوحيدي وإن كان هبةً ربّانيّةً إلّا أنّ قوامه استقامة القلب، ولا يمكن للقلب المستقيم أن تنعقد فيه كراهيّةٌ لأحدٍ من البشر، ولا أحد يستحقّ منّا الكراهيّة والعداوة سوى الشيطان: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾ (فاطر: ٦).

إنّ الاستقامة لا تعرف منطقاً غير منطق الحبّ، ومع الحبّ تختفي أوهام الخصومة، وهنا نحتاج إلى قدم الصبر للثبات على أرضيّة التوحيد، ومن هنا يمكن أن نسجّل الأبعاد العمليّة الأساسيّة للأخلاق القرآنيّة، وهي:

البُعد الأوّل: الاستعداد لمواجهة التحدّيات في تحصيل الخُلُق القرآني.

البُعد الثاني: مواجهة التحدّيات بالتسامح والصبر والحبّ.

البُعد الثالث: الكينونة في عالم الاستقامة التي صورتها التوحيد، وأثرها العمل الصالح.

من أسرار التركيز القرآني على الأخلاق

للتركيز على الأخلاق أسرارٌ كثيرةٌ، منها:

الأوّل: أنّ حفظ الدعوة الإلهيّة للتوحيد لا يمكن أن يكون من دون الأخلاق، ولذا فإنّ جميع حملة لواء الدعوة ممّن انحرفوا عن الطريق إنّما كانوا فاقدين لهذه الأرضيّة، فالأخلاق هي الزاد الحقيقي الذي يحفظ للدعاة

الديمومة على الجادّة.

الثاني: أنّ قوّة الجذب للدعوة الإلهيّة تكمن في الأخلاق الكريمة، وهذا ما سلكه خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله في دعوته، وجرى أئمّة أهل البيت عليهم السلام وسائر الصالحين على ذلك، وقد لُوحظ أنّ الذين أسلموا على يد النبيّ صلّى الله عليه وآله تأثّراً بأخلاقه الكريمة قد بقوا على الجادّة، فلم ينحرفوا، ولم يرتدّوا، وهذا هو الفرق العملي بين قبول الدعوة تحت طائلة السيف وبين قبولها تحت طائلة الأخلاق الكريمة، فالسيف يأسر الأبدان ويذلّلها، والأخلاق تأسر القلوب وتطوّعها، وأسر الأبدان لا يُنجيها من عموم الظلمة فضلاً عن ظلمة الأنا، وأمّا أسر القلوب فهو الخلاص الحقيقي من الظلمة والأنا.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قبول التوبة مشروطٌ بالإصلاح، فلا تكفي النيّة وإن كانت صادقةً، فالإصلاح هو أبلغ ترجمةٍ عمليّةٍ للتوبة النصوح؛ قال تعالى: ﴿**فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (المائدة: ٣٩).
- عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «**قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: أفضل الناس من عشق العبادة، فعانقها وأحبّها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا، على عسرٍ أم على يسرٍ**»[1].

خلاصة الدرس

- الأخلاق هي أرضيّة البناء القرآني، ولذلك صار القرآن دستوراً أخلاقيّاً.

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٢١٥، الحديث رقم (١٦٧٠).

- الإنسان الواجد للأخلاق الحميدة مؤهّلٌ لتحصيل الكمالات الأُخرى، والفاقد لها في منأىً عنها.
- العلم الذي لا تواكبه الأخلاق الكريمة وبالٌ على صاحبه.
- الإنسان الحقيقي إنّما يكون بصلاح باطنه.
- الأخلاق الكريمة هي الواجهة العمليّة للدين.
- دستوريّة القرآن للأخلاق، تنطلق من استراتيجيّته الثابتة، المتمثّلة بالدعوة للتوحيد، ونبذ مختلف أصناف الكفر والشرك والضلال.
- الأخلاق هي البُعد العملي والتطبيقي للتوحيد، فلا معنى للتوحيد من دون أخلاقٍ كريمةٍ.
- كلّ أُمّةٍ ذات أخلاقٍ كريمةٍ هي أُمّةٌ موحِّدةٌ عمليّاً وإن كانت كافرةً نظريّاً.
- الأخلاق هي الواقع العملي للإيمان بالله تعالى ورسوله والدار الآخرة.
- من الأبعاد النظريّة للأخلاق في القرآن: قيامها على أصل التوحيد، واعتماد المفاهيم المُدرَكة، وملاءمة المفاهيم للفطرة والطباع البشريّة.
- الاستقامة لا تعرف غير منطق الحبّ، ومع الحبّ يغيب وَهم الخصومة.
- من الأبعاد العمليّة للأخلاق في القرآن: الاستعداد لمواجهة التحدّيات في تحصيل الخُلُق القرآني، ومواجهة التحدّيات بالتسامح والصبر والحبّ، والتزام عالم الاستقامة التي صورتها التوحيد، وأثرها العمل الصالح.
- من أسرار التركيز القرآني على الأخلاق حفظ الدعوة الإلهيّة للتوحيد، وتحقيق قوّة الجذب للدعوة الإلهيّة تكمن في الأخلاق الكريمة.
- السيف يأسر الأبدان ويذلّلها، والأخلاق تأسر القلوب وتطوّعها.

مذاكرة

- ما هي نتيجة العلم الذي لا تواكبه الأخلاق الكريمة؟
- ما هي الاستراتيجيّة الثابتة التي انطلقت منها دستوريّة الأخلاق؟
- ما الفرق بين الأمّة الكافرة التي تمتلك ناصية الأخلاق الكريمة، والأُمّة الموحِّدة التي لا تمتلك ذلك؟
- ما هي الأبعاد الأساسيّة للنظريّة الأخلاقيّة في القرآن؟
- ما هي الأبعاد العمليّة الأساسيّة للأخلاق القرآنيّة؟
- اذكر بعض أسرار التركيز القرآني على الأخلاق الكريمة؟
- ما هو الفرق بين أسر الأبدان وأسر القلوب؟

الدرس الرابع

الأخلاق في بُعدها الروائي

- أهداف الدرس
- تمهيد
- بيانيّة الروايات للأخلاق
- الاتّجاه التطبيقي للأخلاق في الروايات
- من أسرار التركيز الروائي على الأخلاق
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- الامتيازات البيانيّة الروائيّة للأخلاق.
- الاتّجاه التطبيقي للروايات.
- شموليّة الخُلق العظيم.
- أهمّ أسرار التركيز الروائي على الأخلاق الكريمة.

تمهيد

اهتمام السنّة الشريفة بالأخلاق متفرّعٌ على اهتمام القرآن بذلك، وكونها جاءت مُبيِّنةً للقرآن، فقد أعطت الروايات مساحةً كبيرةً للأخلاق، حتّى عُقدت أبوابٌ وفصولٌ في ضبط الأخبار الواردة في الأخلاق. ونتيجة الكثافة الروائيّة في الأخلاق، فإنّه من العسير جدّاً الإحاطة بها فضلاً عن بيانها؛ لذلك فإنّ ما سنحاوله في هذا الدرس هو بيان بعض ملامح الاتّجاه التطبيقي للروايات في الأخلاق، مع عرضٍ موجزٍ لأهمّ أسرار التركيز الروائي على الأخلاق.

بيانيّة الروايات للأخلاق

ضمن الاتّجاه العامّ للسير الروائي الكامن في بيانيّته للقرآن الكريم، تندرج البيانيّة الروائيّة للأخلاق القرآنيّة، وقد امتازت الروايات بالسعة وكثرة البيانات والتطبيقات، ونتيجة ذلك توفَّر لدينا كمٌّ روائيٌّ كبيرٌ في ذلك، حتّى صار من الممكن جدّاً إعداد موسوعةٍ روائيّةٍ كاملةٍ في الأخلاق.

إنّ من أهمّ امتيازات البيانيّة الروائيّة للأخلاق ما يلي:

أوّلاً: اعتماد الواقعيّة في بيان المفاهيم الأخلاقيّة، انطلاقاً من القاعدة النبويّة المستفادة من قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم**»[1]، والمُستفادة من قوله تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا...**﴾ (البقرة: ٢٨٦)، ولذا كان من أبرز طُرق التفهيم ضرب الأمثلة الواقعيّة لتقريب المفاهيم القرآنيّة، وهي الأخرى طريقةٌ قرآنيّةٌ واضحةٌ، تُضرب: «تقريباً لما بعُد من أفهامهم، وتفهيماً لما شرد عن أذهانهم؛ إذ المثل يبرز المعقول بصورة المحسوس، وذلك أسهل في التفهيم، وأجدر في التعليم، لمن ألف طبعُه بالمحسوسات، واشمأزّ عقله عن المعقولات»[2].

ثانياً: إعطاء الثقة للمخاطب، فكانت تسلك سبيل الترويض والتحفيز، فهي بقدر اعتمادها الواقعيّة التي عليها المخاطب، تسلك به طريق الارتقاء والتحفيز، وهي طريقةٌ يكتشف الإنسان من خلالها طاقاته الكامنة التي طالما غفل عنها وظنَّ بأنّه خلوٌ منها.

ثالثاً: انطلاقاً من منطق منح الثقة وسياسة التحفيز، فإنّ الروايات قد اهتمّت كثيراً بزرع الأمل في التغيير، أو قل بأنّها تتماشى مع سياسة رفع المعنويّات، والقطيعة الكاملة مع سياسة التثبيط والتيئيس، وهذا ما نجده واضحاً جدّاً في المعاملات النبويّة مع الأتباع والمخاطبين، فكان صلّى الله عليه وآله لا يذكر إلّا ما هو جميلٌ، فيُعطي للأشياء ـ وإن كانت يسيرةً ـ قيمةً تجعل المُتلقّي سعيداً بأشيائه اليسيرة، وهذا هو المنطق القرآني؛ قال تعالى: ﴿**فَمَنْ**

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٥١، الحديث رقم (١٥).

(٢) شرح أصول الكافي، لمحمّد صالح المازندراني: ج١ ص١٢٢، تعليق: الميرزا أبي الحسن الشعراني، نشر مؤسّسة التاريخ العربي، الطبعة الثانية المصحَّحة، ١٤٢٩هـ، بيروت.

﴿يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧)، ولذلك نجده صلّى الله عليه وآله ـ في مثالٍ تطبيقيٍّ لرفع قيمة الأشياء مهما كانت يسيرةً ـ لمّا «دخل على أمّ هانئٍ بنت أبي طالب يوم الفتح، وكان جائعاً، فقال لها: **هل عندك من طعامٍ نأكله؟** فقالت: ليس عندي إلّا كسرٌ يابسةٌ، وإنّي لأستحيي أن أقدّمها إليك. قال: **هلمّيهنّ.** فكسرهنّ في ماءٍ، وجاءت بملحٍ، فقال: **هل من إدامٍ؟** فقالت: ما عندي يا رسول الله إلّا شيءٌ من خلٍّ. فقال: **هلمّيه.** فصبّه على طعامه، فأكل منه ثمّ حمد الله، ثمّ قال: **نعم الإدام الخلّ، يا أمّ هانئٍ، لا يفقر بيتٌ فيه خلٌّ**»[1].

الاتّجاه التطبيقي للأخلاق في الروايات

إنّ الاتّجاه التطبيقي للروايات يمثّل استراتيجيّةً عامّةً، ولا يقتصر على بابٍ دون آخر، ولكنّه طريقةٌ تتأكّد في مجال الأخلاق والتربية؛ نظراً لارتباط ذلك بالواقع العملي المحسوس، ولذلك نجد النبيّ صلّى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام يسلكون بالأمّة مسلك الواقعيّة العمليّة من دون أن يقطعوا الناس عن الآفاق البعيدة، ففي الوقت الذي يضعون فيه أصابعهم الشريفة على موضع الحاجة، فإنّهم يستشرفون المراتب السامية، ويُحفّزون مخاطبيهم لذلك، وكأنّهم يمدّونهم بقوتٍ ووقودٍ لأيّامهم القادمة؛ ولنأخذ شاهدَين على ذلك:

---

(١) الفروع من الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٤٨٠، الحديث رقم (١١٨٨٣). أيضاً:

ـ من لا يحضره الفقيه، تحقيق: عليّ أكبر الغفاري، نشر جامعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة: ج٣ ص٢٢٦، الحديث رقم (١٠٦٤).

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج٢٣ ص٣٧٠، الحديث رقم (١٥١٩١٩)، وقال المحقّق: إسناده قويٌّ، رجاله رجال الصحيح.

ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، مصدر سابق: ج٥ ص٢٥٦، الحديث رقم (٢٢٢٠).

الشاهد الأوّل: التحفيز بتهيئة الاستعداد لطلب العلم

كان أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام يُنادي في مُخاطَبيه: «**إنّ هاهنا لعلماً جمّاً** ـ وأشار إلى صدره ـ **لو أصبتُ له حملةً**»[1]، وفي هذا الشاهد نجد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام يزرع الطعم في طريق طُلّاب المعرفة، وكأنّه عليه السلام يريد إنقاذ المتلقّين من وهم قراءتهم الخاطئة لقدراتهم واستعداداتهم ومستويات أفهامهم، فيحجبون أنفسهم بداعي القصور، فيحفّزهم ليكونوا من حملة العلم، فما يكتنزه الإمام عليه السلام يحتاج إلى قلوبٍ واعيةٍ، ويحتاج إلى أسئلةٍ فصيحةٍ تطلق سهام السؤال فتصيب المطلوب به، ولعلّ في كلمته عليه السلام إشارةً خفيّةً بأنّ ما تسألون عنه في الأعمّ الأغلب، لا يرقى إلى ما ينبغي أن تكونوا عليه، ولذلك عليكم أن تطلبوا العلم الحقيقي، أو تطلبوا حقائق العلم، وقد كان بعض الخُلّص من أصحابه يلتقطون هذه الإشارات فيسارعون للسؤال عمّا كان يكتنزه في صدره الشريف، وهذا ما سنتحدّث عنه في نموذجٍ راقٍ في الشاهد الثاني.

الشاهد الثاني: توليد الشوق بالسؤال عن أسرار الغيب

ما زلنا في حاضرة أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، فهو علم المعرفة والتوحيد، وقد كان بعض الخُلَّص من أصحابه يتحيّنون الفرص للولوج عن طريقه عليه السلام إلى بعض أسرار الغيب، والنظر بعين البصيرة لا بالعين الباصرة، وكان من أولئك الخُلَّص التابعي الجليل كميل بن زيادٍ رحمه الله،

---

(١) الخصال، للشيخ الصدوق، مصدر سابق: ج١ ص٢١٤، الحديث رقم (٢٥٧)، باب الثلاثة.

ـ ترتيب الأمالي، مصدر سابق: ج١ ص١٣٨، الحديث رقم (٩٣).

فقد كانت نفسه تسوقه إلى تجلية الموقف عمّا أخفته الأنوار الإلهيّة، فكان همّه السؤال عن الحقيقة، ويريد بها سرَّ الكون وعلّته، فلنترقّب سُلّم الأسئلة الكُميليّة، وكيفيّة الارتقاء فيها إلى مسافاتٍ بعيدةٍ من المعرفة، وقد كان الإمام عليٌّ عليه السلام يقرأ واقعيّة كميلٍ، فيُجيبه بما يُحفّزه للانتقالات الأكبر.

«قال كميلٌ: يا أمير المؤمنين، ما الحقيقة؟

فقال الإمام عليه السلام: **ما لك والحقيقة؟!**

فقال كميلٌ: أوَ لستُ صاحب سرّك؟

قال عليه السلام: **بلى، ولكن يرْشَحُ عليك ما يطفح منّي.**

فقال كميلٌ: أَوَ مثلك يُخيّب سائلاً؟!

قال عليه السلام: **الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة.**

فقال كميلٌ: زدني بياناً.

قال عليه السلام: **محو الموهوم مع صحو المعلوم.**

فقال كميلٌ: زدني بياناً.

قال عليه السلام: **هتك الستر لغلبة السرّ.**

فقال: زدني بياناً.

قال عليه السلام: **نورٌ يشرق من صبح الأزل، يلوح على هياكل التوحيد.**

قال: زدني بياناً.

فقال عليه السلام: **أطفئ السراج فقد طلع الصبح**»[1].

---

(١) محبوب القلوب، المقالة الثانية، لقطب الدين محمّد بن الشيخ الأشكوري اللاهيجي: ص٤٩٧، تحقيق: الدكتور حامد صدقي والدكتور إبراهيم الدياجي، التراث المكتوب، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، إيران؛ تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضمّ، للسيّد حيدر الآملي، تحقيق: السيّد محسن الموسوي التبريزي: ج٣ ص٧٨، الحاشية رقم (٤٣).

وقد لاحظنا أنّ كميلاً لم ينل بُغيته في الجواب الأوّل؛ لقصورٍ فيه كان لابدّ أن يقف عليه بنفسه، ولم تستقرّ نفسه بما يرشح عليه، وهو الموافق لكماله وسعة عقله وقلبه، فتحفَّز في السؤال والارتقاء مع كلّ جوابٍ، حتّى بلغه الجواب الأخير، وكأنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول لكميلٍ بأنّ أسئلتك لن تنتهي، واضطرابك لن يزول بذلك؛ حيث تحتاج إلى أداةٍ أخرى، وطريقٍ آخر، وهذا الطريق هو معاينة الحقيقة بصبح اليقين؛ حيث تشرق على القلب وتفيض الحقيقة بقدر ما اتّسع من القلب لا بقدرها، كما هو معلومٌ.

نلاحظ أنّ في الأجوبة الأربعة للإمام عليه السلام مستوياتٍ معرفيّةً ومعنويّةً مختلفةً ومتعاليةً، ومن خلال هذا يمكن أن نفهم ما يلي:

أوّلاً: أنّ الفهم المحدود، أو المكوث على الظاهر، مُوجبٌ للقصور في التلقّي والاستجابة، وهذا ما يُفضي بنا إلى أحد أمرين، هما:

ألف: انتخاب ما تسعه عقولنا وقلوبنا.

باء: العمل على الارتقاء بالاستعدادات المتاحة من خلال المتابعة والمطالعة، والمثابرة في العبادات، والتخلّق بالأخلاق الكريمة.

ثانياً: أنّ الارتقاء بالسؤال فرع أن نفهم ما تقدّم، وقد كان كميلٌ يفهم الجواب السابق ولكنّه لا يجده يروي عطشه، فينتقل إلى معنىً آخر، ولذلك كان يقول: زدني بياناً، ولم يقل له: لم أفهم، فهو كان يفهم جيّداً ما يُقال له، ولكنّه كان يجد مساحات الغموض لم تنجلِ بعدُ، وهو يدري بأنّ الأمر بحاجةٍ إلى تدرّجٍ، فكان يسأل ويسأل ويسأل ليبلغ صبح الحقيقة[1].

---

(١) إنّ صبح الحقيقة يحتاج إلى قلوبٍ واعيةٍ، كما أنّ صورته تحتاج إلى عقلٍ واعٍ مُتدبّرٍ، فلا

من أسرار التركيز الروائي على الأخلاق

ممّا ثبت عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه علَّل بعثته المباركة بإتمامه لمكارم الأخلاق، وذلك في قوله صلّى الله عليه وآله: «**إنّما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»[1]، ولأجل إتمامها فقد وُصف بقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: ٤)[2]، ولكون هذا الخُلق العظيم القائم على اجتماع مكارم الأخلاق ليس مقتصراً على شخص النبيّ صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وإنّما هو مقصد كلّ إنسانٍ سويٍّ، بل هو الصلة الواقعيّة بين العبد وربّه، كما جاء ذلك صريحاً في قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**جعل اللهُ سُبحانَهُ مكارمَ الأخلاق صِلةً بينه وبين عبادِهِ، فحسبُ أَحدِكُم أَن يتمسّكَ بخُلقٍ مُتَّصلٍ باللهِ**»[3]، لأجل ذلك كلّه، كان لابدّ للروايات من التركيز على الأخلاق عموماً، وعلى مكارمها خصوصاً، ففي ذلك حثٌّ حقيقيٌّ على تعميق تلك الصلة بين العبد وربّه، وهذا هو الهدف المنشود والمستفاد من سيرة الأنبياء والأوصياء والصالحين.

إذن، من أهمّ أسرار التركيز الروائي على الأخلاق الكريمة: توثيق الصلة بين العبد وربّه، وهذا العمل الدؤوب لتوثيق عُرى العلاقة والصلة، منطلقٌ

نُجازف في نداءاتنا للحقِّ؛ كي لا يكون ذلك قشراً ومُكاءً وتصديةً، وهذا لا يعني الكفّ عن مناجاته بمطلق الكلمات، وإنّما هي دعوةٌ للتدبُّر فيما نقول وفيما ندعو به. (منه دام ظلّه).

(١) مكارم الأخلاق، مصدر سابق: ص٨؛ سنن البيهقي، مصدر سابق: ج١٠ ص١٩٢.

(٢) قال العلّامة المجلسي: سُمِّي خُلُقُه عظيماً، لاجتماع مكارم الأخلاق فيه. (بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٦٨ ص٣٨٢).

(٣) تنبيه الخواطر، مصدر سابق: ج٢ ص١٢٢؛ نزهة الناظر، مصدر سابق: ص٥٢ ح٢٧.

من أصلٍ قرآنيٍّ ينصّ على انعدام المسافة بين الله تعالى وعباده، كما جاء في قوله تعالى: ﴿...وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦)، وبقي على الإنسان أن يُحقّق هذا القرب وتلك الصلة، وليس هنالك غير مكارم الأخلاق، فهي الطريق الأمثل لتحقيق القرب.

ومن الأسرار الأُخرى للتركيز الروائي على الأخلاق: إعطاء رسالةٍ عمليّةٍ للإنسان من أنّ كلّ ما يُحقّقه من إنجازات علميّة وعمليّة لا يُلحَظ في الميزان الإلهي إذا كان خالياً من الخُلق الكريم، فالخُلق الكريم وإن كان صفةً نفسانيّةً إلّا أنّ أثره الواقعي يتجلّى فيما أنجزه الإنسان، وبقدر ما يشتمل عليه من أثرٍ أخلاقيٍّ، يكون الاعتبار والنظر إليه. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿...فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧)، وما ينفع الناس هو الخلق الحسن والسلوك السويّ.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء: ١١٤)، وهنا نبذٌ صريحٌ لكثرة الكلام إلّا إذا كان مُفضياً لعملٍ صالحٍ، ففي ذلك مرضاة الله تعالى، لاسيّما إصلاح ذات البين، فقد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قوله: «**إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصوم**»[(١)].

---

(١) ترتيب الأمالي، مصدر سابق: ج٧ ص٢٦٥، الحديث رقم (٤٠٨٠). أيضاً:
ـ ثواب الأعمال، مصدر سابق: ص١٤٨، ثواب الإصلاح بين الاثنين.

- قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**ألا أنبّئكم بصدقةٍ يسيرةٍ يحبّها الله، فقالوا: ما هي؟ قال: إصلاح ذات البين إذا تقاطعوا**»[1].

خلاصة الدرس

- نتيجة كثافة الروايات الأخلاقيّة فإنّه من العسير جدّاً الإحاطة بها، ولكثرتها يمكن إعداد موسوعةٍ روائيّةٍ كاملةٍ في الأخلاق.
- من أهمّ امتيازات البيانيّة الروائيّة للأخلاق اعتماد الواقعيّة في بيان المفاهيم الأخلاقيّة، وإعطاء الثقة للمخاطب.
- اهتمّت الروايات كثيراً بزرع الأمل في التغيير.
- كان النبيّ صلّى الله عليه وآله لا يذكر إلّا ما هو جميلٌ، فيعطي للأشياء ـ وإن كانت يسيرةً ـ قيمةً تجعل المُتلقّي سعيداً بأشيائه اليسيرة.
- الاتّجاه التطبيقي للروايات يمثّل استراتيجيّةً عامّةً تتأكّد في الأخلاق.
- الخُلق العظيم ليس مقتصراً على شخص النبيّ وآله عليهم السلام، وإنّما هي مقصد كلّ إنسانٍ سويٍّ، بل هي الصلة الواقعيّة بين العبد وربّه.
- من أسرار التركيز الروائي على الأخلاق توثيق الصلة بين العبد وربّه.
- ومن أسرار التركيز الروائي على الأخلاق إعطاء رسالةٍ للإنسان من أنّ

ـ جامع أحاديث الشيعة، مصدر سابق: ج٢٣ ص٤٥٩، الحديث رقم (٣٤٢٦٠).
ـ الأحاديث المعتبرة في جامع أحاديث الشيعة، لآية الله الشيخ محمّد آصف محسني: ص٤٠٧، الباب (٢)، الحديث رقم (٢).
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج٤٥ ص٥٠٠، الحديث رقم (٢٧٥٠٨)، إسناده صحيح.
ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٦، الحديث رقم (٦١).
(١) مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ج٧ ص٢٦٣ ح٩.

ما يُحقّقه من إنجازاتٍ لا يُلحظ في الميزان الإلهي إذا كان خالياً من الأخلاق.

- الخُلق الكريم وإن كان صفةً نفسانيّةً إلّا أنّ أثره الواقعي يتجلّى فيما أنجزه الإنسان.

مذاكرة

- ما هي أهمّ امتيازات البيانيّة الروائيّة للأخلاق؟
- كيف كان النبيّ صلّى الله عليه وآله يجعل المُتلقّي سعيداً بأشيائه وإن كانت يسيرةً؟
- ما الذي كان يمثّله الاتّجاه التطبيقي في الروايات؟
- هل الخُلق العظيم مقتصرٌ على شخص النبيّ وآله صلوات الله عليهم؟
- ما هي أهمّ أسرار التركيز الروائي على الأخلاق الكريمة؟
- أين تكمن قيمة الإنجازات العلميّة والعمليّة في الميزان الإلهي؟

الدرس الخامس

الأخلاق في بُعدها الفلسفي

- أهداف الدرس
- تمهيد
- عقلنة الأخلاق
- بيانٌ إجماليٌّ للمباني الفلسفيّة في الأخلاق
- بيان الآثار الإيجابيّة للبُعد الفلسفي في الأخلاق
- الفلاسفة الإلهيّون أخلاقيّون
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- المراد من عقلنة الأخلاق.
- إجمالٌ للمباني الفلسفيّة في الأخلاق.
- الآثار الإيجابيّة للبُعد الفلسفي في الأخلاق.
- الفلاسفة الإلهيّون أخلاقيّون.

تمهيد

الاعتدال في كلّ شيءٍ حسنٌ، فلا إفراط ولا تفريط، ومن ذلك ما يتعلّق بالأخلاق، فإنّها هي الأخرى عانت من الإفراط عند قومٍ، وعانت من التفريط عند آخرين، فكان لزاماً العمل على عقلنة الأخلاق، والتزام الطريقة الوسطى، بمعنى الالتزام بالقيم شكلاً ومضموناً، فالعلم والفهم من ناحية، والعمل والتطبيق من ناحيةٍ أخرى، وهذا ما يجعلنا نقف بشكلٍ موجزٍ على بعض المباني الفلسفيّة في الأخلاق وآثارها الإيجابيّة، لنكتشف بعدها أنّ الحكماء الإلهيّين أخلاقيّون.

عقلنة الأخلاق

إنّ البُعد الإيجابي لعقلنة الأخلاق يعني حفظها من غائلة الإفراط والتفريط، وأمّا البُعد السلبي لها، فيعني تجريدها من بُعدها الروحي والكينونة في عالم الألفاظ والنظريّات، وعالم الألفاظ والنظريّات ـ على أهمّيّته ـ يجعل الماكثين فيه مستغرقين في الجدل والمراء.

من هنا ينبغي الحذرُ الشديدُ من الانكفاء على الألفاظ، والتخلّصُ من

سطوة النظريّات، فإنّ الهدف من الاشتغال بالعلوم الحقَّة هو التخلُّق بها، ففي التفسير وفهم القرآن ينبغي أن نخرج بنتيجةٍ عمليّةٍ، وهي أن يكون خُلُقنا القرآن، كما أنّ البحث في مطالب التوحيد يهدف إلى أن نكون موحِّدين عمليّاً لا صوريّاً، وهذه هي الأخلاق القرآنيّة والتوحيديّة، وإلّا فالكينونة في دائرة التوحيد النظري تحجبنا عن التوحيد العملي.

قال السيّد الخميني: «يجب ـ كحدٍّ أدنى ـ أن نهذّب أنفسنا بحيث لا تكون هذه العلوم الرسميّة مانعةً لنا عن الله وذكر الله، وهذه مسألةٌ مهمّةٌ أن لا يصبح الاشتغال بالعلم سبباً للغفلة عن الله، وأن لا يتحوَّل إلى عاملٍ لبعث الغرور فينا فيبعدنا عن مبدأ الكمال، هذا الغرور موجودٌ لدى العلماء بمختلف الاختصاصات، سواءً العلوم المادّيّة والطبيعيّة أو العلوم الشرعيّة أو العلوم العقليّة، فما لم يكن القلب مهذّباً، ظهر الغرور الذي يصدّ الإنسان بصورةٍ كاملةٍ عن الله، عندما ينهمك بالمطالعة يغرق فيها، وعندما يقوم للصلاة يؤدّيها، ولكن ليس هو مع الصلاة، فماذا يعني هذا؟!... فالقلب إذا لم يكن مستعدّاً مهذّباً، يتحوَّل فيه حتّى علم التوحيد إلى غلٍّ وقيدٍ يصدُّ الإنسان»[1].

والخلاصة في ذلك: أنّ ما تضعه العلوم الشرعيّة وغيرها من أثرٍ إيجابيٍّ في القلب والسلوك، يجعلنا مُحصّلين لها شكلاً ومضموناً، فالعلوم لم تُوجد للجدل والمراء، وإنّما للعمل بما هو صحيحٌ منها، ومن جملة ذلك ما يتعلَّق بالأخلاق. فإذا حفظنا هذه النكتة الدقيقة، نكون قد حقّقنا البُعد الإيجابي للأخلاق، واجتنبنا البُعد السلبي، أو قل: نكون قد حقّقنا العقلنة المطلوبة

---

(١) تفسير سورة الحمد، للسيّد الإمام روح الله الموسوي الخميني: ص٢٥٥، تحت عنوان «علم التوحيد قد يصدّ عن التوحيد»، جمع وتحقيق: السيّد أحمد صولي الحسيني العاملي، دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، بيروت.

في الأخلاق.

وما نلاحظه من انغماسٍ في علم المصطلحات وبُعدٍ عن الآثار العمليّة والتطبيقيّة ما هو إلّا صورةٌ مُشوّهةٌ عن علم الأخلاق، بل هي صورةٌ بعيدةٌ عن الأخلاق الواقعيّة، كما أنّ ما نلاحظه من سلوكيّاتٍ باطنيّةٍ لم تقم على أُصولٍ شرعيّةٍ، هي الأُخرى عبارةٌ عن جهالاتٍ وتمحّلاتٍ وتزييفٍ للأخلاق التعليميّة.

بيانٌ إجماليٌّ للمباني الفلسفيّة في الأخلاق

كنّا قد تعرّضنا في بيانٍ موجزٍ إلى إجمال المباني الفلسفيّة في الأخلاق[1]، حيث أوضحنا أنّ فلاسفة المسلمين قد قسّموا الحكمة بالمعنى الاصطلاحي إلى الحكمة بالمعنى الأعمّ والحكمة بالمعنى الأخصّ، والحكمة بالمعنى الأعمّ لا تختصّ بعلمٍ خاصٍّ، بل تشمل جميع العلوم النظريّة والعمليّة معاً، وهو معنىً يرادف الفلسفة بالمعنى الأعمّ[2]، وهو معنىً متعارفٌ في الفلسفة اليونانيّة؛ حيث كانوا يريدون بالفلسفة معنىً عامّاً يشمل كلّ العلوم النظريّة والعمليّة[3].

---

(١) انظر: مقدّمةٌ في علم الأخلاق، للسيّد كمال الحيدري: ص٣٥ فما بعد، دار فراقد للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، قم المقدّسة.

(٢) انظر: إلهيّات الشفاء، لأبي علي بن سينا: ص٣ فما بعد، الفصل الأوّل من المقالة الأولى، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، عام ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة.

(٣) إنّ المعارف المرتبطة بالحكمة النظريّة لا تتضمّن «ينبغي أن نفعل»، و«لا ينبغي أن نفعل»، بخلاف المعلومات المتعلّقة بالحكمة العمليّة، فإنّها تتضمّن ذلك. قال الحكيم السهروردي: لمّا كان الأمر منها ما لا يتعلّق بأعمالنا كالسماء والأرض، ومنها ما يتعلّق بها، سمّي العلم المتعلّق بالأوّل الحكمة النظريّة، وبالثاني الحكمة العمليّة. (التلويحات،

وقد ذكر الحكماء: أنّ الحكمة النظريّة تنقسم انقساماً أوّليّاً إلى الطبيعيّات والرياضيّات والإلهيّات، والحكمة العمليّة تنقسم إلى تهذيب الأخلاق وسياسة المدن وتدبير المنزل، فما تعلّق منها بما ينتظم به حال الشخص الواحد في تزكية نفسه وتصفية ذهنه، ليستعدّ بذلك لقبول العلوم النظريّة التي بها تحصل السعادة العظمى والسيادة الكبرى، وخلافة الله في الأرض والسماء، فإنه يُسمَّى بعلم الأخلاق.

بيان الآثار الإيجابيّة للبُعد الفلسفي في الأخلاق

ممّا تقدَّم يتّضح: أنّ علم الأخلاق في البناء الفلسفي يقع مقدّمةً للدخول في العلوم النظريّة والقبول بها، وهذا الترتّب منطقيٌّ وضروريٌّ، فإنّ العلوم النظريّة إذا ما استقلَّت عن الأخلاق فإنّ طالبها يكون على خطرٍ عظيمٍ، وقد مرَّت إشاراتٌ وتنبيهاتٌ لذلك، وإلّا فإنّ تحصيل السعادة العظمى والسيادة الكبرى وخلافة الله في الأرض سيكون في عداد المحالات إذا ما تأخّر تحصيل الأخلاق عن العلوم النظريّة، وهذا ما يجعلنا نتشبّث بلغة القلب في بلوغ لغة العقل، ولا نريد من لغة القلب أكثر من الأخلاق التعليميّة والواقعيّة.

وقد ذكروا أنّ: «الغاية في الفلسفة النظريّة معرفةُ الحقِّ، والغاية في الفلسفة العمليّة معرفةُ الخير»[1]، ومعرفة الخير مقدّمةٌ على معرفة الحقّ، وإن

لشهاب الدين السهروردي: ص٢، نقلاً عن كتاب: رحيق مختوم، شرح حكمة متعالية، للشيخ عبد الله جوادي آملي: ج١ ص١٤٢، مطبوع باللغة الفارسيّة.

جديرٌ بالذكر أنّ الحكمة النظريّة والعمليّة معاً ترتبطان بالعقل النظري في الإنسان، وإن كانت مدركات الحكمة النظريّة تختلف عن مدركات الحكمة العمليّة في أنّ الأخيرة تستلزم جرياً عمليّاً بخلاف الأولى فإنّها ليست كذلك. (منه دام ظلّه).

(١) انظر: إلهيّات الشفاء، مصدر سابق: ص٣.

كان أحدهما يدعو للآخر.

جديرٌ بالذكر أنّ تقديم تزكية النفس على تحصيل العلم والحكمة، له جذرٌ قرآنيٌّ جاء في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...**﴾ (الجمعة: ٢).

الفلاسفة الإلهيّون أخلاقيّون

من الآثار الإيجابيّة الأُخرى للبُعد الفلسفي في الأخلاق: أنّها تحمل دعوة الجمع بين الأخلاق والعلم ليكون الإنسان إنساناً، وهذا ما يجعلنا نعتقد أنّ جميع الفلاسفة الإلهيّين هم أخلاقيّون، وأنّهم كانوا يسيرون باتّجاه الهدف الأسمى، وهو الوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل.

وأمّا ما يُمكن أن يُنقض به على هذه النتيجة من وجود عيّناتٍ من الحكماء الإلهيّين ممّن لم يُعرف عنهم بأنّهم علماء أخلاقٍ أو لم يكونوا أخلاقيّين، فإنّه نقضٌ مردودٌ من رأسٍ، فكلّ حكيمٍ إلهيٍّ ليس بأخلاقيٍّ فإنّه ليس بحكيمٍ إلهيٍّ؛ لأنّه فاقدٌ لمقدّمة تحصيل العلوم الحكميّة، وهي الأخلاق نفسها، ولذلك فإنّ سيرة الحكماء والفلاسفة الإلهيّين هي سيرةٌ مفعمةٌ بالأخلاق والفضيلة؛ لإدراكهم العميق بأنّ الأخلاق والفضيلة هما الوجه الآخر للحقّ والحقيقة المطلقة، ولذلك وردت عن الإمام عليٍّ عليه السلام كلمةٌ نفيسةٌ في الحكماء الإلهيّين، وهي قوله: «**الحكماء أشرف الناس أنفساً، وأكثرهم صبراً، وأسرعهم عفواً، وأوسعهم أخلاقاً**»[1].

جديرٌ بالذكر أنّ الأخلاق والفضيلة هي مقصد كلّ إنسانٍ سويٍّ وإن لم

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، جمع عبد الواحد الآمدي: الحديث رقم (٢١٠٧)، تحقيق: السيّد جلال الدين الآرموري، جامعة طهران، الطبعة الثالثة.

يكن معتقداً بالله تعالى وبرسله وبالغيب؛ لأنّها منسجمةٌ مع الفطرة السليمة، ولذلك نجد كثيراً من الفلاسفة المادّيّين الذين ينكرون عالم الغيب نجدهم يدعون للأخلاق ويؤلّفون في ذلك، فالإنسان ـ كما يرى الحكيم الإلهي الإغريقي أرسطو طاليس (٣٨٤ـ٣٢٢ق.م) ـ يقصد السعادة بفطرته، ويفرّ من الشقاء بفطرته، والسعادة هي نيل اللذّات العقليّة والروحيّة والماديّة.

وممَّن كتب في الأخلاق من الفلاسفة المادّيّين كلٌّ من الفيلسوف الألماني هيجل (١٧٧٠ـ١٨٣١م)، الواضع الأوّل للمنطق الديالكتيكي، والذي يعتبر رائد الفلسفة المثاليّة الحديثة والحتميّة الدينيّة التاريخيّة، فإنّه بالرغم من كونه ينكر وجود أيّ قيمةٍ، ويقتصر على المادّة المشهودة والمحسوسة إلّا أنّه يُطلق مفهوماً خاصّاً للأخلاق يُفسّره بالانقياد للقوانين الوضعيّة السائدة، ويمنع من الانسياق للميول الشخصيّة المخالفة للعدل والقانون.

ومنهم أيضاً الفيلسوف الانكليزي برتراند راسل (١٨٧٢ـ١٩٧٠م)، فقد كان له منهجٌ خاصٌّ في تفسير القيم والأخلاق؛ حيث يرى أنّ الإنسان أنانيٌّ بطبعه، يطلب كلّ شيءٍ لنفسه، وأنّ النفع الشخصي هو غايته وهدفه، وهذه النفعيّة الذاتيّة فيه لا يمكن تجريده منها، ولذلك لابدّ من وضع قوانين تضبط سلوكه، وهي القوانين الاجتماعيّة بنحوٍ قريبٍ من فلسفة هيجل.

ولا ينبغي أن ننسى الفيلسوف الألماني فيخته (١٧٦٢ـ١٨١٤م) الذي اعتبر التنبّه إلى الذات بداية كلّ معرفةٍ، والفيلسوف الألماني شبلنك (١٧٧٥ـ١٨٥٤م) الذي كان من مؤيّدي فيخته وأتباعه؛ حيث يرى أنّ معرفة الأشياء رهينةٌ بمعرفة الذات، أو قل بأنّ بداية كلّ علمٍ هو علم الإنسان بنفسه، فمعرفة الإنسان بنفسه تساعده على المقارنة بينها وبين سائر الأشياء. ولا يخفى ما لهذه الرؤية من بُعدٍ أخلاقيٍّ وعرفانيٍّ، فهنالك عدّة رواياتٍ مرويّةٌ عن

رسول الله صلّى الله عليه وآله وعن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام تُفيد بأنّ مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه، وأنّ مَن عرف نفسه كان بغيره أعرف.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ١٨)، والأخلاق والفضيلة من أجلى مصاديق أحسن القول، واتّباعهما كاشف عن اتّباع الهدى والعقل.
- قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**من الحكمة أن لا تنازع مَن فوقك، ولا تستذلّ مَن دونك، ولا تتعاطى ما ليس في قدرتك، ولا يخالف لسانُك قلبَك، ولا قولُك فعلَك، ولا تتكلّم في ما لم تعلم، ولا تترك الأمر عند الإقبال وتطلبه عند الإدبار**»[1].

خلاصة الدرس

- الاعتدال في كلّ شيءٍ حسنٌ.
- البُعد الإيجابي لعقلنة الأخلاق هو حفظها من غائلة الإفراط والتفريط.
- عالم الألفاظ على أهمّيّته، يجعل الماكثين فيه مستغرقين في الجدل.
- الهدف من العلوم الحقّة هو التخلّق بها، وإلّا فالكينونة في دائرة التوحيد النظري تحجبنا عن التوحيد العملي.
- إنّ العلوم لم تُوجد للجدل والمراء، وإنّما للعمل بما هو صحيحٌ منها.
- من الآثار الإيجابيّة للبُعد الفلسفي في الأخلاق: أنّ علم الأخلاق يقع مقدّمةً للدخول في العلوم النظريّة والقبول بها.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، لعليّ بن محمّد الليثي الواسطي: ص٤٧٣، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، قم المقدّسة.

- من الآثار الإيجابيّة الأُخرى للبُعد الفلسفي في الأخلاق: أنّها تحمل دعوة الجمع بين الأخلاق والعلم ليكون الإنسان إنساناً.
- الأخلاق والفضيلة هي مقصد كلّ إنسانٍ سويٍّ، وإن لم يكن معتقداً بالله تعالى وبرسله وبالغيب.
- يرى الفيلسوف هيجل أنّ الأخلاق هي الانقياد للقوانين الوضعيّة السائدة، والامتناع عن الانسياق للميول المخالفة للعدل والقانون.
- يرى الفيلسوفان فيخته وشبلنك أنّ التنبّه إلى الذات بداية كلّ معرفةٍ، وأنّ معرفة الأشياء رهينةٌ بمعرفة الذات.

مذاكرة

- ما هو البُعد الإيجابي لعقلنة الأخلاق؟
- ما الذي يورثه الاستغراق في عالم الألفاظ؟
- ما هو الهدف من الاشتغال بالعلوم الحقَّة؟
- كيف نُقيّم السلوكيّات الباطنيّة التي لم تقم على أُصولٍ شرعيّة؟
- ما هي الآثار الإيجابيّة للبُعد الفلسفي في الأخلاق؟
- ما هو الجذر القرآني في تقديم تزكية النفس على تحصيل العلم؟
- ما هو رأي هيجل في الأخلاق؟
- ما الذي يراه الفيلسوفان فيخته وشبلنك في الأخلاق؟
- ما هي علاقة نظريّة فيخته وشبلنك الأخلاقيّة بالخبر المرويّ: «مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه»؟

الدرس السادس

الأخلاق في بُعدها العرفاني

- أهداف الدرس
- تمهيد
- تصويرٌ موجزٌ للعرفان
- الفروق بين الأخلاق والعرفان
- الأخلاق مقدّمة أساسيّة للعرفان
- العرفان هو الهدف الأقصى للأخلاق
- الوصول هو الهدف الأقصى للعرفان
- من الأخلاق الكريمة لزوم احترام العرفاء
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- تقديم تصويرٍ موجزٍ عن العرفان بقسميه.
- بيان الفروق بين الأخلاق والعرفان، والعلاقة بينهما.
- بيان كون العرفان هدفاً أقصى للأخلاق.
- بيان كون الوصول لله تعالى هدفاً أقصى للعرفان.
- بيان وظيفتنا الأخلاقيّة تجاه العرفاء الحقيقيّين.

تمهيد

كثر اللغط حول مسألة العرفان، وصارت مرتعاً للنصب والاحتيال على مرّ التاريخ، حتّى انتشرت بين الآفاق ثقافةٌ خاطئةٌ مفادها الجمع بين العرفان والجهل، فصار دعاة العرفان من الجهلة وغير المتفقّهين في الدين هم الأكثر حضوراً في الأوساط الاجتماعيّة! مع أنّ وظيفة العرفاء الحقيقيّين هي وظيفةٌ نبويّةٌ قائمةٌ على أصولٍ أربعةٍ، وهي: تلاوة آيات الله، والتزكية، وتعليم الكتاب وتعليم الحكمة، فكيف يتسنّى للجهّال تلاوة كتاب الله وتعليمه، وتزكية النفوس وتعليم الحكمة؟!

من هنا كان لابدّ من الوقفة السريعة على أهمّ المفاهيم المتعلّقة بذلك، انطلاقاً من مبدأ الأخلاق التعليميّة والواقعيّة.

تصويرٌ موجزٌ للعرفان

يهتمّ العرفان النظري ببيان حقيقة التوحيد وحقيقة الموحّد، وهذه المعرفة النظريّة على مستوى السلوك والعمل هي المقصد الحقيقي للعرفان العملي ولما يُسمّى بالعارف، فالعارف الحقيقي هو الموحّد الحقيقي، ولا يُراد

بالتوحيد التوحيدُ الذاتيّ الذي يعني الإقرار بالألوهيّة لله الواحد الأحد، ولا التوحيد الصفاتي الذي يعني الإقرار بعينيّة الصفات الذاتيّة للذات المقدّسة، فذلك كلّه حاصلٌ لكثيرٍ من الناس، وإنّما يُراد به التوحيد الأفعالي الذي يعني بإيجازٍ: الاعتقاد الفعلي بعدم وجود مؤثّرٍ في الوجود إلّا الله تعالى.

والموحّد الحقيقي يُطلق عليه إنسانٌ كاملٌ، وما أقلّهم! فليس كلّ مَن يبلغ مرتبة التوحيد الأفعالي إنساناً كاملاً، وما أكثرهم! لقد بلغ النبيّ الخاتم محمّدٌ صلّى الله عليه وآله مقام الخاتميّة والسيوديّة على سائر الأنبياء والمرسلين بسبب مقامه التوحيدي الأوّل، فهو أوّل المسلمين، وقد صرّح صلّى الله عليه وآله بذلك قولاً، وحقّقه عملاً، وقد حكى القرآن الكريم ذلك عنه بقوله تعالى: ﴿لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٣)، وقد بلغ صلّى الله عليه وآله مقام الإنسان الكامل، بل هو الإنسان الكامل، وكلّ مَن عداه ـ مهما علا مقامه، ودنا مكانه ـ فهو متّصفٌ بصفات ذلك الإنسان الكامل، فالإنسان الكامل وإن كان يمثّل في نفسه مقاماً معرفيّاً ومعنويّاً إلّا أنّه لم يرتقِ أشرف مراتبه، ويتلبّس بكلّ كمالاته غير رسول الله محمّدٍ صلّى الله عليه وآله أصالةً، ثمّ جاء من بعده مُتشبّهون بذلك الإنسان الكامل، أي متشبّهون برسول الله صلّى الله عليه وآله، فأخذوا عنه كماله وراثةً، وهذه الوراثة ليست الوراثة الشرعيّة التي يرث فيها الصالح والطالح، وإنّما هي الوراثة الكماليّة التي لا يرث فيها إلّا مَن كان مستودَعاً لذلك، أي كان محرزاً للطهارة الروحيّة والبدنيّة معاً، ومؤهّلاً بأن يكون خليفةً لله تعالى في خلقه، ولذلك فمقام الوراثة الكماليّة لا يعرف نسباً ولا قرابةً، وما ناله أهل البيت عليهم السلام من كمالات الرسول صلّى الله عليه

وآله وراثةً ليس بصفتهم قرابةً وأصحاب رحمٍ واحدٍ ونسبٍ واحدٍ، وإنّما لأنّهم بلغوا ذلك المقام العالي من الطهارة، كما حكاه القرآن صريحاً في قوله تعالى: ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وهذا ما يُفسّر شدّة مراقبتهم لأنفسهم، وشدّة احتياطهم عليهم السلام؛ لأنّهم يعلمون جيّداً بأن لا شيء يرفع الإنسان إلّا الإيمان والتقوى والعمل الصالح، ونحن بصفتنا مطالبين بالاقتداء بهم والتشبّه بصفاتهم وكمالاتهم عليهم السلام، فإنّنا من باب أولى لا شيء يُنجينا إلّا الإيمان والتقوى والعمل الصالح، فحبّنا للرسول صلّى الله عليه وآله ولأهل بيته عليهم السلام لا يمنحنا أهليّة الاتّصاف بصفاتهم، ولا يُنيلنا مرتبةً واحدةً من كمالاتهم، إنّما هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح، فإذا تحقّق منّا ذلك، صار حبّنا لهم مقاماً شريفاً لنا، ورفعةً لنا في مسيرة التكامل.

الفرق بين الأخلاق والعرفان

بالرغم من التقارب الكبير بين الأخلاق والعرفان على مستوى العلم والعمل إلّا أنّه هنالك فروقٌ مهمّةٌ ينبغي الإشارة لها، ولنتعرّف من وراء ذلك على بطلان مدّعيات المُبطلين من دُعاة العرفان بغير علمٍ ومعرفةٍ.

الفرق الأوّل: أنّ الأخلاق صفاتٌ عامّةٌ ينبغي لكلّ إنسانٍ الاتّصاف بها، فهي قيمٌ إلهيّةٌ وإنسانيّةٌ عُليا، ولا يُشترط فيها أن يكون طالبها معتقداً بالله تعالى واليوم الآخر، وأمّا العرفان بقسميه ـ الفطري والعملي ـ فهو متفرّعٌ على أصل الاعتقاد بوجود الله تعالى ووحدانيّته على مستوى الذات والصفات.

الفرق الثاني: أنّ الأخلاق هي فضائل يُراد بها تزكية النفوس من الرذائل، ولذلك فالأخلاق هي تعبيرٌ آخر عن التخلّي عن الرذائل، والتحلّي

بالفضائل، فهي تخليةٌ وتحليةٌ، وأمّا العرفان فيُراد به الوصول إلى الله تعالى ومعرفته، فهو تجلية الحقائق أمام السالك، ولا يُمكن تحقيق التجلية أبداً من دون التزوّد بالتخلية والتحلية، ومنه يتّضح بطلان دعوى العرفان لمرتكبي الموبقات، من كذبٍ وحسدٍ وغيبةٍ ورياءٍ، وغير ذلك من أبجديّات الأخلاق.

الفرق الثالث: أنّ الأخلاق سلوكٌ ظاهريٌّ نتعايش به مع أنفسنا ومع الناس، ونحن في عقيدتنا لا يكون المسلم مسلماً حتّى يأمن الناس منه، وفي ذلك ورد الخبر: «**المسلم مَن سلم الناس من يده ولسانه، والمؤمن مَن ائتمنه الناس على أموالهم وأنفسهم**»[1]، وأمّا العرفان فإنّه سلوكٌ مع الله تعالى، فمَن أخفق في سلوكه مع الخلق لا يُمكن أن يحسُن سلوكه مع الخالق.

الفرق الرابع: أنّ الأخلاق هي أشبه بالترجمة العمليّة للشريعة، وأمّا العرفان فإنّه أشبه بالترجمة العمليّة للعقيدة.

الفرق الخامس: أنّ الأخلاق هي القدر المتيقَّن الذي ينبغي تحصيله، وأمّا العرفان فهو مرتبةٌ ساميةٌ لا يرقى إليها إلّا أصحاب النفوس السامية والهمم العالية، ممّن فرَّوا من عبوديّات الدنيا إلى عبوديّة الله وحده.

الفرق السادس: أنّ مسيرة التكامل الأخلاقي واضحة الرسوم ومعلومة الحدود، وأمّا مسيرة السير العرفاني فليس لها رسومٌ وحدودٌ؛ ففي كلّ منزلٍ

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٥٩٢، الحديث رقم (٢٢٩١). أيضاً:
- من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق: ج٤ ص٢٦٢.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج١١ ص٦٥٨، الحديث رقم (٧٠٨٦)، صحيحٌ على شرط الشيخين.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، مصدر سابق: ج٢ ص٨٩، الحديث رقم (٥٤٩).

ومقامٍ حدودٌ ورسومٌ، ولا نهاية للمقامات المعنويّة، وهذا هو مقتضى السير الأسمائي، والذي يُطلق عليه بالسير من الحقّ إلى الحقّ بالحقّ.

الأخلاق مقدّمةٌ أساسيّةٌ للعرفان

لو لاحظنا الفرق الثاني نجد: أنّ إجمال الأخلاق بالتخلّي عن الرذائل، والتحلّي بالفضائل، يجعل الأخلاق مقدّمةً أساسيّةً للوصول إلى العرفان الذي إجماله هو تجلية الحقائق أمام السالك، وقد عرفنا بأنّ تحقيق التجلية غير ممكنٍ أبداً من دون التزوّد بالتخلية والتحلية، وهذا ما يجعلنا على بيّنةٍ من أمرنا، فلابدّ لنا من الفراغ من مرتبتي التخلية والتحلية لننطلق إلى عالم العرفان، فإذا ما خالف أحدٌ هذه الطوليّة الصحيحة، وحاول الدخول في السلوك والعرفان فإنّه لن يزداد عن هدفه إلّا بُعداً، فهو كالسائر على غير الطريق لا تزيده سرعة السير إلّا بُعداً[1]، فضلاً عن احتمالات الانحراف الكبيرة في هذا الطريق، فإنّ طلب معرفة الله تعالى وتوحيده ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً هو الجادّة الحقّة، وهو المراد من الصراط المستقيم بالدرجة الأساس، والذي توعّد الشيطان الرجيم بالعمل على حجب الناس عنه، كما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ (الأعراف: ١٦).

جديرٌ بالذكر: أنّ العرفان وإن كان ناظراً للمعارف الإلهيّة، إلّا أنّه نظرٌ

---

(١) روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**العامل على غير بصيرةٍ كالسائر على غير الطريق، لا تزيده سرعة السير إلّا بُعداً**». (أصول الكافي، مصدر سابق: ج١ ص١٠٦، الحديث رقم (١٠٨).

ـ ترتيب الأمالي، مصدر سابق: ج١ ص١٦٠، الحديث رقم (١١٦).

ليس عن طريق البرهان والاستدلال، وإنّما عن طريق التجلّي والشهود الباطني، وهذا ما يستدعي تنقية القلب من الأغيار، وتنقية القلب من الأغيار تستدعي الخلاص من هوى النفس والأمراض المعنويّة، وهنا يأتي دور الأخلاق، فإذا ما زكت نفسه وطهُر قلبُه من النجاسات المعنويّة فإنّه سيكون مستعدّاً تماماً لتلقّي الفيض الإلهي، فالقلب كالمرآة إذا ما كانت صافيةً يُمكنها أن تعكس ما يتجلّى فيها، وإذا ما كانت متّسخةً فإنّها لا تُريك شيئاً، وقد اقتضت الإرادة التكوينيّة الإلهيّة ـ وفقاً لفلسفة الكمالات الإلهيّة ـ أن لا ينعكس النور الإلهي والتجلّي الأسمائي إلّا في مرايا القلب النقيّة من كلّ درنٍ وشوبٍ.

وهنا تكمن أهمّيّة الأخلاق، فإنّ لها المكنة الكبيرة في دفع الأدران ورفع الرذائل، فتمنح القلب فرصته في الارتقاء، وبذلك سيكون القول بأنّ الأخلاق من أُسس العرفان الإلهي ومقدّماته أمراً بديهيّاً.

وإذا ما أردنا التقريب بين الأخلاق والعرفان بصفتهما سلوكاً إلى الله تعالى، نقول بأنّ العرفان هو عبارةٌ عن سيرٍ وسلوكٍ باطنيٍّ يُساعد الإنسان في الوصول إلى الله تعالى والاتّصاف بصفاته، وأمّا الأخلاق فهي عبارةٌ عن سيرٍ وسلوكٍ خارجيٍّ، فتكون رحلة الوصول إلى الله تعالى متكوّنةً من واسطتين، الأولى هي السير والسلوك الخارجي (الأخلاق)، والثانية هي السير والسلوك الباطني (العرفان).

العرفان هو الهدف الأقصى للأخلاق

ممّا تقدَّم يتّضح: أنّ الهدف الأقصى للأخلاق هو العرفان، فما لم تُوصِل الأخلاق إلى العرفان فذلك كاشفٌ إنّيٌّ عن وجود خللٍ في السير والسلوك

الخارجي، وأنّ هنالك رواسب كثيرةً من مخلّفات الماضي لم تُمح آثارها.

وبعبارةٍ موجزةٍ: إذا لم تُوصِل الأخلاق إلى التقوى المطلوبة فالمسيرة ناقصةٌ وقاصرةٌ، ولا يتسنّى للسالك الدخول في العرفان، فالأخلاق ليست مجرّد عملية تهذيبٍ للنفس، فهذا هدفٌ أوّلي لا ينبغي الوقوف عنده، وإنّما الأخلاق طريقٌ للوصول إلى عتبة العرفان، فهي سيرٌ وسلوكٌ خارجيٌّ موصلٌ للسير والسلوك الباطني، وسالكٌ لم يبلغ مرتبة السير والسلوك الباطني، فإنّ عليه التدقيق والتحقيق في سلوكيّاته العامّة والخاصّة، لاسيّما ما يتعلّق منها بحقوق الناس.

ونحن في دروسنا في الأخلاق الواقعيّة والتعليميّة مهمّتنا تتلخّص في السير والسلوك الخارجي؛ حيث نحاول الكشف عن المحطّات المضيئة في النفس الإنسانيّة لتكون منطلقاً لإدامة حركة السير والسلوك الخارجي، وما نعتقده هو أنّ كلّ إنسانٍ ـ مهما كان مذهبه ومشربه ومنهجه في الحياة ـ يمتلك رصيداً من الأخلاق الحسنة، فالفطرة الإنسانيّة قد تُحجب ولكن لا تموت، فيبقى حبّ الخير سرّاً دفيناً في كلّ نفسٍ يقودها إلى الحقّ والفضيلة، فقد يحتاج أحدٌ إلى لحظاتٍ للعود إلى فطرته السليمة، وقد يحتاج آخر إلى سنواتٍ طويلةٍ، وقد لا يكفي آخر عمره كلّه للعود إلى الفطرة، وعدم المكنة من العود لا يعني موت الفطرة وإنّما حجبها، فإذا ما سار مثل هذا الإنسان من دون موجّهٍ فإنّ مسيرته طويلةٌ جدّاً، وأمّا إذا ما حالفه الحظّ فسمع موعظةً مؤثّرةً أو لاحظ سلوكاً موقظاً من الغفلة، فإنّه سوف يختصر الطريق.

والحذر ثمّ الحذر من التطرّف في المواقف والسلوك، فالتطرّف غالباً ما يكون شرّاً مستطيراً، أي: خطيراً ومتفشّياً، كما أنّ التطرّف غالباً ما يكون مجانباً للموضوعيّة والعدل.

الوصول هو الهدف الأقصى للعرفان

اتّضح لنا الهدف الأدنى للأخلاق وهو تهذيب النفس، والهدف الأقصى لها وهو العرفان، فما هو الهدف الأدنى والأقصى للعرفان نفسه؟

أمّا الهدف الأدنى للعرفان فهو الخلاص من عبوديّات الدنيا والتوجّه إلى عبوديّة الله وحده، وأمّا الهدف الأقصى فهو الوصول إلى معرفة الله تعالى، أو قل: الاتّصاف بصفاته، وذلك هو الفوز الكبير والرضوان الأكبر، ومتى ما تحقّق ذلك، تجرّد الإنسان بشكلٍ مطلقٍ عن مادّيّته ونباتيّته وحيوانيّته، وتحوّل من عالم الإبقاء المؤقّت إلى عالم البقاء والخلود.

إنّ الإنسان لا يكون إنساناً حقيقيّاً وهو عبدٌ لمن سواه من البشر، فلا أحد يستحقّ أن تكون له عبداً إلّا الله تعالى، وهذا ما يُراد تحقيقه في العرفان، أي: أن يكون الإنسان إنساناً، قلبه حرم الله تعالى، وعينه وأُذنه ولسانه ويده لله تعالى.

من الأخلاق الكريمة لزوم احترام العرفاء

وفقاً لما تقدّم من البيانات الموجزة للمقام السامي للعرفان والعرفاء الإلهيّين، فإنّه يتبيّن من دون أدنى شكٍّ لزوم احترام العرفاء وعدم الإساءة لهم أو الطعن بهم، فإنّ الطعن بهم موجبٌ للدخول في دهاليز الحجب الشائكة.

ولا نعني بالعرفاء شخصاً بعينه وإن كان الطعن بأيٍّ منهم مخالفاً للاحتياط، وإنّما نعني الطعن بمشرب العرفاء وطريقتهم في الوصول إلى الله تعالى، ولذلك فإنّ ما ننصح به في هذا المقام هو عدم الطعن والتشكيك بالعرفان والعرفاء، وإذا ما لُوحظت بعض السلوكيّات غير المألوفة أو ربّما المشكوك في شرعيّتها فلابدّ من توجيه السؤال حول ذلك السلوك نفسه، وأن يكون النقد موجّهاً له، لا أن يتعدّى ذلك حدود الأدب في الطعن بأصل العرفان والعرفاء،

فإنّ العرفان طريقٌ أمثل لبلوغ الحقيقة، والعرفاء الصادقون هم أُناسٌ باعوا دنياهم بأُخراهم، بل باعوا ذلك كلّه بالله تعالى وحده، فالثمن الذي قصدوه هو الله وحده، فلا يطلبون متاعاً ولا عوضاً لسيرهم في الدنيا والآخرة معاً، فكيف يتسنّى لإنسانٍ عاقلٍ أن يطعن بهم، أو يُشكِّك بسيرهم؟!

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال الله تعالى: ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٨)، قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «**أعلم الناس بالله أشدّهم خشيةً**»(١).
- عن الإمام محمّدٍ الباقر عليه السلام أنّه قال: «**إذا أردت أن تعلم أنّ فيك خيراً فانظر إلى قلبك، فإن كان يحبّ أهل طاعة الله، ويبغض أهل معصيته، ففيك خيرٌ، والله يحبّك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله، ويحبّ أهل معصيته، فليس فيك خيرٌ، والله يبغضك، والمرء مع مَن أحبّ**»(٢).

خلاصة الدرس

- العارف الحقيقي هو الموحّد الحقيقي، والتوحيد هنا هو التوحيد الأفعالي

---

(١) تفسير القرآن الكريم، لأبي حمزة الثمالي: ص٢٧٦ ح٢٤٨، أعاد جمعه وتأليفه عبد الرزّاق محمّد حسين حرز الدين، تقديم: الشيخ محمّد هادي معرفة، الناشر: دفتر نشر الهادي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، قم. أيضاً:

ـ فيض القدير، مصدر سابق: ج٥ ص٦٢٦.

ـ المصنّف لابن أبي شيبة: ج١٩ ص٣٥٩، الحديث رقم (٣٦٣١٤).

ـ صحيح ابن خزيمة، مصدر سابق: ج٣ ص٢٥٦، الحديث رقم (٢٠٢١).

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج٤٠ ص٢١١، الحديث رقم (٢٤١٨٠)، إسناده صحيحٌ على شرط الشيخين.

(٢) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٣٢٨، الحديث رقم (١٨٨٧).

الذي يعني الاعتقاد بعدم وجود مؤثّرٍ في الوجود إلّا الله تعالى.

- الأخلاق فضائل يُراد منها تزكية النفوس من الرذائل، وأمّا العرفان فيُراد به الوصول إلى الله تعالى ومعرفته.
- الأخلاق سلوكٌ ظاهريٌّ نتعايش به مع أنفسنا ومع الناس، والعرفان سلوكٌ مع الله تعالى.
- الأخلاق هي أشبه بالترجمة العمليّة للشريعة، وأمّا العرفان فإنّه أشبه بالترجمة العمليّة للعقيدة.
- الأخلاق مقدّمةٌ أساسيّةٌ للوصول إلى العرفان.
- العرفان سيرٌ وسلوكٌ باطنيٌّ يُساعد في الوصول إلى الله تعالى، وأمّا الأخلاق فسيرٌ وسلوكٌ خارجيٌّ تساعد على تزكية النفس.
- الهدف الأقصى للأخلاق هو العرفان، وأمّا الهدف الأقصى للعرفان فهو الوصول إلى معرفة الله تعالى، أو قل: الاتّصاف بصفاته.
- من الأخلاق الكريمة لزوم احترام العرفاء.

مذاكرة

- مَن هو العارف الحقيقي؟
- ما هي الفروق بين الأخلاق والعرفان؟
- ما هي علاقة الأخلاق والعرفان بالسلوك الخارجي والسلوك الباطني؟
- هل الأخلاق مقدّمةٌ أساسيّةٌ للوصول إلى العرفان؟
- ما هو الهدف الأقصى للأخلاق والعرفان؟
- ما الذي يجب علينا في التعامل مع العرفاء؟

الدرس السابع

حركيّة الأخلاق بتبع الزمان والمكان

- أهداف الدرس
- تمهيد
- أنواع التغيير في الأخلاق
  - ✓ التحوّل من الأخلاق القبيحة إلى الأخلاق الحسنة، وبالعكس
  - ✓ التغيّر والتحوّل في رؤية الناس للأخلاق
  - ✓ التغيّر والتحوّل في الأخلاق بحسب المصالح
  - ✓ التغيّر الأخلاقي بحسب الزمان والمكان وظروف المعيشة
  - ✓ التغيّر والتحوّل في الأخلاق بالمعنى القيمي تبعاً للزمان
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

- بيان أنواع التغيير في الأخلاق.
- بيان المعنى القيمي للأخلاق وكيفيّة التغيّر فيه.
- عرض بعض الأمثلة للتغيّر الإيجابي في القيم الأخلاقيّة.

تمهيد

بالرغم من كون الأخلاق تُمثّل قيماً إلهيّةً وإنسانيّةً ثابتةً، ولا يُتصوّر فيها التغيير، فالصدق هو الصدق، وهو فضيلةٌ وفعلٌ حسنٌ، كما أنّ الكذب هو الكذب، وهو رذيلةٌ وفعلٌ قبيحٌ، ولكن مع ذلك كلّه فهنالك ظروفٌ موضوعيّةٌ تتعلّق بالزمان والمكان وبطبيعة المجتمعات، وهذا التغيّر والحركيّة في طبيعة الأخلاق لا يُصيِّر الحسن قبيحاً، ولا القبيح حسناً، وإنّما الفعل الحسن حسنٌ في ذاته ولكنّه قد يكون قبيحاً في زمانٍ خاصٍّ ومكانٍ خاصٍّ، والفعل القبيح قبيحٌ في ذاته ولكنّه قد يكون حسناً في زمانٍ خاصٍّ ومكانٍ خاصٍّ، كما أنّ هنالك قيماً مُضافةً تُزاحم قيماً ثابتةً فتكون حاكمةً عليها، وهذا هو موضوع درس اليوم.

أنواع التغيير في الأخلاق

للتغيير المنظور في الأخلاق صورٌ عديدةٌ، منها:

الأوّل: التحوّل من الأخلاق القبيحة إلى الأخلاق الحسنة، وبالعكس

وهذا الأمر سهلٌ تصوّره، وكثير الوقوع، وله شواهد تاريخيّةٌ كثيرةٌ، ويكفي في ذلك ما قام به رسول الله صلّى الله عليه وآله من إنجازٍ استثنائيٍّ

في تاريخ البشريّة؛ حيث حوّل أخلاقيّات مجتمعه الحجازي من مجتمعٍ يفخر بوأد بناته إلى مجتمعٍ يرى البنت رحمةً وريحانةً، ومن مجتمعٍ يأكل فيه القويّ الضعيفَ إلى مجتمعٍ ينتصر فيه للضعيف، ومن مجتمعٍ متقاطعٍ إلى مجتمعٍ متراحمٍ.

وفي قبال هذا التحوّل المجتمعي هنالك تحوّلٌ فرديٌّ كثيرٌ، من قبيل ما يُروى عن الفضيل بن يسار والفضيل بن عياض، وهنالك آياتٌ كثيرةٌ تحثُّ على التزكية والتطهير والتغيير في الأخلاق نحو الأخلاق الحسنة، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩ـ١٠)، قال السيّد الطباطبائي: والمراد بها بقرينة التزكية: الإنماء على خلاف ما يقتضيه طبعها وركّبت عليه نفسها[١].

بعبارةٍ أُخرى: «جُعل فيه العبد فاعل التزكية بالتقوى، والتدسية بالفجور؛ لأنّ الإسناد يقتضي قيام المسند، ويكفي فيه المدخليّة المذكورة، ولا يتوقّف صحّة الإسناد حقيقةً إلى العبد على كون فعله الإيجاد، فالاستدلال بهذا الإسناد على كونه متمكّناً من اختيار ما شاء من الفجور والتقوى، وإيجاده إيّاه بقدرةٍ مستقلّةٍ فيه، على خلاف ما يقوله الجماعة، ليس بشيءٍ»[٢].

وقد أجاد الغزالي في تحليل ذلك بقوله: «وكيف ينكر هذا [أي: تغيّر الخلق] في حقّ الآدمي، وتغيير خلق البهيمة ممكنٌ؛ إذ ينقل البازي من

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٢٠ ص٢٩٨.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلّامة شهاب الدين السيّد محمود الآلوسي البغدادي: ج١٦ ص٢٥٩، قرأه وصحّحه: محمّد حسين العرب، بإشراف هيئة البحوث والدراسات، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

الاستيحاش إلى الأُنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدّب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكلّ ذلك تغيير الأخلاق. والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمةٌ إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً، وبالجملة: كلّ ما هو حاصلٌ كاملٌ وقع الفراغ من وجوده وكماله، وإلى ما وُجد وجوداً ناقصاً وجُعل فيه قوّةٌ لقبول الكمال بعد أن وُجد شرطه، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد، فإنّ النواة ليست بتفّاحٍ ولا نخلٍ، إلّا أنّها خلقت خلقةً يمكن أن تصير نخلةً إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفّاحاً أصلاً ولا بالتربية، فإذا صارت النواة متأثّرةً بالاختيار حتّى تقبل بعض الأحوال دون بعض، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلّية حتّى لا يبقى لهما أثرٌ لم نقدر عليه أصلاً، ولو أردنا سلاستهما وقَودهما بالرياضة والمجاهدة، قدرنا عليه، وقد أُمرنا بذلك، وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى»[(١)].

وهذا الأمر في واقعيّة التغيير في الأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة مقبولٌ على مستوى الفلسفة، ولكنّه تغييرٌ ليس على درجةٍ واحدةٍ، يختلف فيه الناس شدّةً وضعفاً، وهذا هو الصحيح، فالناس قوالب، واستعداداتها متفاوتةٌ، وفي ذلك يقول الحكيم الإلهي أرسطو طاليس: «يمكن صيرورة الأشرار أخياراً بالتأديب، إلّا أنّ هذا ليس كلّيّاً، فإنّه ربّما أثّـر في بعضهم بالزوال، وفي بعضهم بالتقليل، وربّما لم يؤثّـر أصلاً»[(٢)]، والسرّ في ذلك هو

---

(١) إحياء علوم الدين، مصدر سابق: ج٣ ص٥٦.

(٢) نقلاً من جامع السعادات، لمحمّد مهدي النراقي: ج١ ص٤٨، تحقيق وتعليق: السيّد محمّد كلانتر، تقديم: الشيخ محمّد رضا المظفّر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف.

«أنّ للمزاج مدخليّةً تامّةً في الصفات. فبعض الأمزجة في أصل الخلقة مستعدٌّ لبعض الأخلاق، وبعضها مقتضٍ لخلافه، فإنّا نقطع بأنّ بعض الأشخاص بحسب جبلّته، ولو خلّي عن الأسباب الخارجية، بحيث يغضب ويخاف ويحزن بأدنى سببٍ، ويضحك بأدنى تعجّبٍ، وبعضهم بخلاف ذلك، وقد يكون اعتدال القوى فطريّاً بحيث يبلغ الإنسان كامل العقل، فاضل الأخلاق، غالبةً قوّتُه العاقلة على قوّتي الغضب والشهوة، كما في الأنبياء والأئمّة عليهم السلام»[1].

وبحسب تعبير الشيخ الرئيس ابن سينا: «قد تبيّن في العلوم الطبيعيّة: أنّ الأخلاق والعادات تابعةٌ لمزاج البدن... فلا شكّ أنّ المزاج قابلٌ للتبديل، فتكون الأخلاق أيضاً قابلةً للتبديل بواسطة تبديل المزاج... فمهما اعتدل مزاج الإنسان تهذّبت أخلاقه بسهولةٍ، فلاعتدال مزاجه أثرٌ في ذلك... وكلّما كان المزاج أقرب إلى الاعتدال، كان الشخص أكثر استعداداً لقبول الملكات الفاضلة العلميّة والعمليّة»[2].

عودٌ على بدءٍ

وهنالك آياتٌ أُخرى تحثّ على الرقيّ في الأخلاق إلى أرفع مراتبها، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (فصّلت: ٣٤).

---

(١) جامع السعادات، مصدر سابق: ج١ ص٤٥.

(٢) أربع رسائل للشيخ أبي علي ابن سينا: ص١٩٧، تحقيق الأهواني، الطبعة الأولى، مصر سنة ١٣٧١هـ؛ نقلاً عن كتاب عيون مسائل النفس وسرح العيون في شرح العيون، لآية الله الشيخ حسن حسن زاده آملي: ص٢٩٠، العين: ١٢، مؤسّسة انتشارات أمير كبير، طهران: ١٣٧١ش.

وفي قبال هذا التغيّر الإيجابي هنالك تغيّرٌ سلبيٌّ، سواءٌ على مستوى المجتمعات، كما هو الحال في أهل قرية سدوم ـ مجتمع قوم نبيّ الله لوطٍ عليه السلام ـ فقد كان مجتمعاً سويّاً ولكنّه تحوَّل إلى مجتمعٍ بذيءٍ، فاتّصفوا بفعلٍ لم تتّصف به حتّى الحيوانات، وقد جاء شذوذ فاحشتهم في قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٨)، وأمّا على المستوى الفردي فإنّ كلّ إنسانٍ يتحوّل من خُلقٍ حسنٍ إلى خُلقٍ بذيءٍ فهو مصداقٌ لذلك، وما أكثر المصاديق في ذلك!

الثاني: التغيّر والتحوّل في رؤية الناس للأخلاق

وهذا أمرٌ كثير الحصول، فهنالك الكثير من الناس يرون المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وقد ورد في ذلك بعض الأخبار عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، من قبيل قوله لسلمان الفارسي: «**إي والذي نفسي بيده، يا سلمان، إنّ عندها يكون المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، ويؤتمن الخائن، ويخوَّن الأمين، ويُصدَّق الكاذب، ويُكذَّب الصادق**، قال سلمان: وإنّ هذا لكائنٌ يا رسول الله؟ قال صلّى الله عليه وآله : **إي والذي نفسي بيده**»[1].

وفي خبرٍ آخر عنه صلّى الله عليه وآله: «**كيف بكم إذا فسق شبابكم وطغى نساؤكم؟** قالوا: يا رسول الله ، إنّ ذلك لكائنٌ؟ قال: **وشرٌّ من ذلك**

(١) تفسير القمّي، لأبي الحسن عليّ بن إبراهيم القمّي: ج٢ ص٣٠٤، تصحيح: السيّد طيّب الجزائري، مؤسّسة دار الكتاب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة.
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج١٤ ص١٧١، الحديث رقم (٨٤٥٩).
ـ فروع الكافي، مصدر سابق: ج٩ ص٤٩٤، الحديث رقم (٨٣٣٢).

سيكون، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً»[1].

الثالث: التغيّر والتحوّل في الأخلاق بحسب المصالح

وهنا تغلب الحالة النفاقيّة في التغيّر السلوكي، فتجد البعض بشوشاً ما أحسَنْتَ له، وعبوساً إذا ما انقطع إحسانُك له، ومُسيئاً إذا ما أخطأْتَ عن غير عمدٍ بحقّه، ومعادياً إذا ما أخطأْتَ عن عمدٍ بحقّه، فليس هنالك محملٌ حسنٌ يحملك عليه، فالمدار هو مدار المصلحة، ولذلك نجد عالم السياسة تغلب عليه الحالة النفاقيّة؛ لأنّه عالمٌ قائمٌ على أساس المصالح لا القيم، والمصالح متغيّرةٌ.

الرابع: التغيّر الأخلاقي بحسب الزمان والمكان وظروف المعيشة

وهذا ما سيكون مقدّمةً مهمّةً لأصل البحث في القسم الخامس من أقسام التغيير، ففي هذا القسم الرابع لا تتحوّل القيم الأخلاقيّة من حسنةٍ إلى قبيحةٍ، أو من قبيحةٍ إلى حسنةٍ، وإنّما يكون الخلق الحسن في ظرفٍ ما قبيحاً، والخلق القبيح في ظرفٍ ما حسناً، كما في حالات التقيّة، أو في الحالات التي يتوقّف عليها حفظ إنسانٍ من الهلاك أو من الهتك، حيث تجوز التورية، كما تجوز التقيّة، فعمّار بن ياسر لمّا أقرَّ لكفّار قريشٍ بألوهيّة أصنامهم لم يكن صادقاً في إقراره، فكذب عليهم لتخليص نفسه من الهلاك، ولذا فهو لا جُناح عليه؛ قال تعالى: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ...**﴾ (النحل: ١٠٦)، أي: إنّما يفتري الكذب مَن نطق بكلمة الكفر وارتدَّ بعد إيمانه، فعليهم غضبٌ من الله، إلّا مَن أُرغم على ذلك، فنطق به خوفاً من الهلاك وقلبه ثابتٌ على الإيمان، فلا لوم عليه،

---

(١) المعجم الأوسط، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني: ج٩ ص١٢٩، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة: ١٤١٥هـ.

ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لعمّار بعد إقراره لقريشٍ مكرهاً: «**يا عمّار، إن عادوا فعد؛ فقد أنزل الله عزّ وجلّ عذرك، وأمَرك أن تعود إن عادوا**»[1].

وقد يكون التغيّر في الأخلاق تابعاً لظرف المكان، كما لو عاش مسلمٌ في مجتمعٍ كلّه كفّارٌ، أو في مجتمعٍ قد استشرت فيه المعاصي، ولم يكن بإمكانه التأثير عليهم، فمثل هؤلاء بالرغم من حثّ الروايات على مقاطعتهم وعدم مجاملتهم، وغير ذلك من الوصايا الشرعيّة والأخلاقيّة في مواجهة العاصين، إلّا أنّ هذا غير ممكنٍ، أو غير موضوعيٍّ بالنسبة للمسلم الذي يعيش في أوساطهم، كما هو حال المسلمين المغتربين في أمريكا والغرب، فعليهم أن يُظهروا جميل الأخلاق الإسلاميّة، فليس من الأخلاق أن تكون عبوساً بوجههم، بل وليس من الأخلاق أن لا تبرّهم، ولا نريد بذلك حفظ سمعة الإسلام وجذب قلوبهم، كما لا نريد بذلك نوعاً من التقيّة، وإنّما لأنّ طبيعة المكان تفرض علينا ذلك، لا طمعاً فيهم، ولا خوفاً منهم، ولذلك كثيرٌ من المسلمين المغتربين غير الملتزمين بالضوابط الشرعيّة يُحسنون التصرّف هنالك ويتّصفون بأخلاقٍ حسنةٍ معهم، مع أنّهم لا ينطلقون في ذلك من عنوان التقيّة، ولا من عنوان الجذب للإسلام. ومثل هذه السلوكيّات الحسنة لا ريب في صحّتها.

الخامس: التغيّر والتحوّل في الأخلاق بالمعنى القيمي تبعاً للزمان

وهذا هو محلّ البحث الحقيقي، فما تقدّم معلوم الحال، ولا خلاف فيه،

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٥٥٤، الحديث رقم (٢٢٥٠). أيضاً: المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيشابوري: ج٣ ص١٠٢، الحديث رقم (٣٤١٣)، صحيحٌ على شرط الشيخين.

وإنّما الكلام يقع في إمكان التبدّل الأخلاقي القيمي بحسب الزمان والمكان، ولهذا التبدّل جذرٌ شرعيٌّ نستفيده من كلمة أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**لا تقسروا أولادكم على آدابكم؛ فإنّهم مخلوقون لزمانٍ غير زمانكم**»(١)، فهل قسر أولادنا على آدابنا الإسلاميّة سيكون باطلاً، أم أنّ المقصود هو أن تراعى خصوصيّة زمانهم في تلقّي الآداب عنّا، فما وافق زمانهم أخذوا به، وما لم يوافقه تركوه؟ ولا يعني ذلك الخروج من الحقّ إلى الباطل، وإنّما تجديد العمل بالحقّ في ظرفه المناسب له، ولهذا التجديد والتغيّر بحسب القرينة الزمانيّة أمثلةٌ كثيرةٌ جدّاً، ومأخوذةٌ من رواياتٍ مستفيضةٍ عن العترة الطاهرة، من قبيل ما يتعلّق بالمأكل والملبس وغير ذلك(٢).

وما يهمّنا هو الجانب الأخلاقي، فكيف يُمكن أن نتصوّر حصول التغيّر والتبدّل في الآداب والأخلاق مع أنّها موصوفةٌ بالثبات من الناحية القيميّة؟!

إنّ التحوّل الواقع والمستمرّ في جميع تفاصيل الحياة سينعكس بشكلٍ مباشرٍ على مساحة الأخلاق على المستوى الأفقي، وعلى درجاتها المطلوبة على المستوى العمودي، فالغلظة والشدّة تجاه الكفّار والملحدين والعاصين والمتمرّدين هي أخلاقيّاتٌ إسلاميّةٌ فرضتها أزمنةٌ معيّنةٌ تتّصف بالقوّة والشدّة

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢٠ ص٢٦٧، الخطبة رقم (١٠٢).

(٢) تعرّض السيّد الأستاذ دام ظلّه في دروسه العليا في مفاتيح عمليّة الاستنباط إلى أمثلةٍ كثيرةٍ في هذا المجال، كما ننصح بمطالعة كتابه «منطق فهم القرآن» الجزء الأوّل، ضمن بحث تغيّر الظهور الموضوعي بتغيّر الزمان، وأيضاً: كتاب «مشروع المرجعيّة الدينيّة وآفاق المستقبل لدى السيّد كمال الحيدري»، فضلاً عن عشرات المحاضرات المسجَّلة وغير المطبوعة.

والغلظة، وليس من المنطقي تسريتها إلى أزمنةٍ لاحقةٍ إلّا إذا استجدّت ظروفٌ مطابقةٌ للظروف السابقة، ولذلك لابدّ أن تتغيّر هذه الأخلاقيّات على المستويين الأفقي والعمودي، فاليوم تعيش الحضارة الإنسانيّة لغة الحوار والإقناع وليس لغة الغزو والثأر، ولذا فالأبناء مثلاً الذين صدرت منهم معاصٍ أو انحرافٌ عقائديٌّ خطيرٌ، فهل من الصحيح أن نواجههم بقسوةٍ ونفرض عليهم الحقّ الذي نعتقده كما كان يفعل أجدادنا في العصور الأولى؟

إنّ الله تعالى أرسل عشرات الآلاف من الأنبياء والمرسلين لكي يصل المجتمع إلى درجةٍ من الفهم والوعي للقبول بالمشروع الإلهي وإقامة دولة العدل الإلهي، ولو كان الأمر غير مقصودٍ فيه الفهم والوعي والقبول الذاتي لفرض دولة العدل بالقوّة أو بالمعجز، ولكنَّ هذا لم يحصل، وهذا ما يجعلنا نسجّل علامة استفهامٍ كبيرةً على دعوى الانتصار بالقوّة أو بالمعجزة، فلا قيام لدولة العدل الإلهي إلّا بالفهم والوعي والقبول الذاتي، وهذا ما يدعم فكرة التطوّر والتغيّر في المستوى الأخلاقي.

ولنأخذ مثالاً تطبيقيّاً على ذلك، وهو التصوّر السلبي للتواضع، فإذا ما عرَّف الإنسان بنفسه وقدرته وإمكاناته أُسيء الظنّ به ونعتوه بالعُجب والتكبّر.

والبعض قد فهم هذا المعنى فهماً خاطئاً من بعض الأخبار، من قبيل ما جاء في الحديث المروي عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام، حيث قيل له: «ما حدّ التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً؟ فقال: **التواضع درجاتٌ، منها: أن يعرف المرء قدر نفسه، فينزلها منزلتها بقلبٍ سليمٍ...**»[(١)]،

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٣٢١، الحديث رقم (١٨٧٦).

وفي خبرٍ آخر أكثر صراحةً مرويٍّ عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**رحم الله امرءاً عرف قدره، ولم يتعدّ طوره**»[1].

فتصوّروا من ذلك: أنّ المراد هو أن يتواضع الإنسان فلا ينسب لنفسه شيئاً، وهكذا انتشرت ثقافةٌ وأخلاقيّاتٌ باسم التواضع، فصار صاحب الشأن منزوياً، فلا يُعرِّف بشأنه خشية الاتّصاف بالعُجُب والتكبّر، وقد عطفوا هذا المعنى على قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾ (النساء: ٤٩) ، وصار الخُلق الجميل هو أن يُخفي الإنسان محاسنه ولا يُعبِّر عن قدراته.

إنّ هذه القيمة الأخلاقيّة قد تكون مجديةً ونافعةً في العصور السابقة، ولكنّها غير مجديةٍ في عصورنا هذه، فهذه العصور هي عصور المعلومة والتوصّليّة، ولا يُمكن أن نتعايش بلغة الإخفاء، ففي مجال السياسة والانتخابات يكون التعريف بالقدرات العلميّة والمادّيّة والمعنويّة في غاية الأهمّيّة في الوصول إلى ما هو الصحيح، ولذا من الغباء السياسي أن يُقدِّم المرشّح نفسه بصورةٍ مبهمةٍ خشية الوقوع في العجب والتكبّر والرياء، فمثل هذا الإخفاء ضربٌ من الخيانة للناخب.

ومن الواضح: أنّ التعريف بالقدرات له جذرٌ شرعيٌّ نستفيده من عشرات الأخبار والخطب لأمير المؤمنين عليٍّ عليه والسلام وهو يُعرِّف بنفسه وبقدراته، ويذكِّر بقرابته القريبة من رسول الله صلّى الله عليه وآله، ويشيد بجهاده وسابقته وبطولاته، وغير ذلك من النشرات الإعلاميّة التي

---

(١) شرح المائة كلمة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام، لكمال الدين ميثم بن عليّ بن ميثم البحراني: ص٣٠ رقم (٣٥)، تصحيح وتعليق: مير جلال الدين الحسيني الآرموي، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة، طبعة ١٣٩٠هـ.

توجّه الأمّة إلى صاحب الحقّ.

إذن، على الإنسان أن يُعرِّف بقدراته، ولكن لا يتجاوز طوره، فلا ينسب لنفسه شيئاً لم يفعله، ولا يُنزّه نفسه عن خطأٍ صدر منه، ولا ريب أنّ لمثل هذا التغيّر في القيمة الأخلاقيّة أمثلةً كثيرةً نعيشها في تفاصيل حياتنا، كما هو الحال بالنسبة لقبول الفتاة بالزواج من المُتقدّم لخطبتها، فقد جرى البناء في القيمة الأخلاقيّة أن تُعبّر البنت عن قبولها ورضاها بالسكوت، وهو أمرٌ حسنٌ ولا ريب، ولم يُتعارف على البنت أن تكشف لأبويها حقيقة عاطفتها تجاه الخاطب، سلباً أو إيجاباً، مع أنّ التعبير عن رضاها أو رفضها بغير لغة السكوت يمثّل قيمةً أخلاقيّةً جليلةً؛ لأنّها تكشف عن قوّة شخصيّة الفتاة.

بل نحن نرى أنّ الفتاة المسلمة كما أنّ لها الحقّ التامّ في رفض مَن لا ترغب به، فكذلك لها الحقّ التامّ في التعبير عن رغبتها بالزواج بالمسلم الصالح.

وبعبارةٍ أُخرى: إنّ لها أن تكشف عن عاطفتها تجاه الشخص الذي تميل له وترغب بالزواج منه، فتُفاتح أباها أو أمّها أو أخاها.

ولا ريب أنّ هذا السلوك السويّ منها هو نوعٌ من صلاح الدين والورع، فالدين والورع هو صيانة النفس، وكما هو مألوفٌ من الشابّ أن يُعبّر عن رغبته بالزواج صيانةً لنفسه فكذلك للفتاة أن تُعبِّر عن ذلك، وهذا الأمر ليس بدعاً في القيم الأخلاقيّة، بل هو خُلُقٌ أصيلٌ، ولكنّنا لجأنا إلى لغة الجاهليّة في الإخفاء، وصار ذلك خُلُقاً معتبراً، ولو لاحظنا السيرة المعطّرة لأفضل زوجات النبيّ محمّدٍ صلّى الله عليه وآله، وهي سيرة السيّدة خديجة الكبرى عليها السلام، نجدها قد مارست هذا الحقّ وتلك القيمة

الأخلاقيّة الرفيعة بعرض نفسها على رسول الله صلّى الله عليه وآله للزواج بها، فكانت هي الخاطبة له، ولم يكن في ذلك مأخذٌ تؤاخذ عليه، بل كان عملها جليلاً وممدوحاً، كما أنّ عمل نبيّ الله شُعيبٍ عليه السلام كان عظيماً وجليلاً لّما عرض على نبيّ الله موسى أن يتزوّج ابنته لّما علم ميل ابنته له، وقد عبّرت عن ميلها الطاهر الجميل بقولها لأبيها: ﴿...يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، وهكذا تُسجَّل لنا قيمٌ أخلاقيّةٌ جديدةٌ تتناسب مع قدر المرأة وعفّتها وكرامتها.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...﴾ (النساء: ٥٨)، ومن الأمانات والحقوق المتبادلة تأدية الخلق الحسن، فمقابلة الحسنة بالسيّئة خيانةٌ للأمانة، ومقابلة السيّئة بالحسنة سموٌّ ورفعةٌ.
- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أعجز الناس من قدر على أن يزيل النقص عن نفسه ولم يفعل**»[١].
- وعنه عليه السلام: «**أعجز الناس مَن عجز عن إصلاح نفسه**»[٢].

خلاصة الدرس

- التحوّل إلى الأخلاق الحسنة كثيٌر وقوعه، ومن أمثلته تغيّر أخلاقيّات المجتمع الحجازي على يد الرسول صلّى الله عليه وآله.
- التغيير في الأخلاق يختلف فيه الناس شدّةً وضعفاً.
- التغيّر والتحوّل في الأخلاق بحسب المصالح تغلب عليه الحالة النفاقيّة

---

(١) غرر الحكم، مصدر سابق، رقم (٣١٧٧).

(٢) المصدر السابق، رقم (٣١٨٩).

في التغيّر السلوكي.

- التغيّر الأخلاقي بحسب الزمان والمكان وظروف المعيشة ممكنٌ وواقعٌ، فقد يكون الخلق الحسن في ظرفٍ ما قبيحاً، وبالعكس.
- لو عاش مسلمٌ في مجتمعٍ كلّه كفّارٌ أو عصاةٌ ولم يمكنه التأثير عليهم فعليه إظهار الأخلاق الحسنة؛ لأنّ طبيعة المكان تفرض علينا ذلك.
- التغيّر والتحوّل في الأخلاق بالمعنى القيمي تبعاً للزمان، لا يعني الخروج من الحقّ إلى الباطل، وإنّما تجديد العمل بالحقّ في ظرفه المناسب له.
- الغلظة والشدّة تجاه الكفّار والملحدين والعاصين هي أخلاقيّاتٌ فرضتها أزمنةٌ معيّنةٌ، وليس من المناسب تسريتها إلى أزمنةٍ لاحقةٍ إلّا إذا استجدّت ظروفٌ مطابقةٌ للظروف السابقة.
- اليوم تعيش الحضارة لغة الحوار والإقناع، لا لغة الغزو والثأر.
- قد أُرسل عشرات الآلاف من الأنبياء والمرسلين ليصل المجتمع إلى درجةٍ من الفهم والوعي للقبول بالمشروع الإلهي وإقامة دولة العدل الإلهي.
- إنّ التواضع لا يتقاطع مع تزكية الإنسان لنفسه والتعريف بقدراته.
- للفتاة أن تكشف عن عاطفتها تجاه الشخص الذي ترغب بالزواج منه.
- السيّدة خديجة الكبرى عليها السلام مارست قيمةً أخلاقيّةً رفيعةً بعَرْض نفسها على رسول الله صلّى الله عليه وآله للزواج بها.

مذاكرة

- اذكر مثالاً تاريخيّاً على تحوّل المجتمع إلى الأخلاق الحسنة.
- ما الذي يغلب على التغيّر والتحوّل في الأخلاق بحسب المصالح؟
- هل يمكن أن يكون الخلق الحسن في ظرفٍ ما قبيحاً، وبالعكس؟

- وضِّح فكرة كون التغيّر والتحوّل في الأخلاق بالمعنى القيمي ـ تبعاً للزمان ـ لا يعني الخروج من الحقّ إلى الباطل.
- هل من المناسب ممارسة الغلظة والشدّة تجاه الكفّار والملحدين والعاصين والمتمرّدين في عصورنا هذه؟ وما هي لغة العصر في الحضارة الإنسانيّة؟
- هل يوجد تعارضٌ بين التواضع وبين تزكية الإنسان لنفسه أمام الناس؟
- ما هي القيمة الأخلاقيّة الرفيعة التي اقترنت بالسيّدة خديجة؟

الدرس الثامن

التخلّق بأخلاق الله تعالى

- أهداف الدرس
- تمهيد
- معنى الأخلاق الإلهيّة
- طبيعة الاتّصاف بأخلاق الله تعالى
- كيفيّة التخلّق بأخلاق الله تعالى
- حدود الاتّصاف بصفات الله تعالى
- علاقة الإنسان الكامل بأخلاق الله تعالى وصفاته
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- معنى الأخلاق الإلهيّة.
- طبيعة الاتّصاف بأخلاق الله تعالى.
- كيفيّة التخلّق بأخلاق الله تعالى.
- حدود الاتّصاف بصفات الله تعالى.
- علاقة الإنسان الكامل بأخلاق الله تعالى وصفاته.

تمهيد

كلّ مخلوقٍ يتحرّك ذاتيّاً باتّجاه كماله، وحيث إنّه لا يتوقّف سيره باتّجاه الكمال، فإنّه لابدّ أن يكون سيراً باتّجاه الكمال المطلق، وصاحب الكمال المطلق هو الله تعالى وحده، فيكون المقصد الحقيقي في طلب الكمال هو طلب كمال المطلق في الصفات الإلهيّة، وهذا هو تعبيرٌ آخر عن طلب الاتّصاف بأخلاق الله تعالى، فإنّ أخلاق الله تعالى هي عين صفاته، ونحن في هذا الدرس سنحاول أن نُسلِّط الضوء على نكتة الاتّصاف بأخلاق الله تعالى، والحدود الممكنة من ذلك، وعلاقة ذلك بالإنسان الكامل، فالسير في الصفات الإلهيّة ـ مهما اكتملت أدواته ـ سيرٌ مأسورٌ بقدر الإنسان واستعداده.

معنى الأخلاق الإلهيّة

إنّ الأخلاق الإلهيّة هي عين الصفات الثابتة لله تعالى، وحيث إنّ الصفات إطلاقيّةٌ فأخلاقه كذلك، وهذا ما يُميِّز الكمالات والأخلاق الإلهيّة بعدم الانتهاء أو الانطفاء، فالعطاء الإلهي لا ينضب، ومن ذلك

يتبيَّن أنّ الأخلاق الإلهيّة لا تتغيَّر ولا تتبدّل، فالتبدّل والتغيّر صفةٌ ملاصقةٌ للمحدود في ذاته وصفاته، والله تعالى مطلقٌ في وجود ذاته، ومطلقٌ في كمالات صفاته، وبالتالي فإنّ النظر إلى أيِّ صفةٍ من صفاته ـ لاسيّما الفعليّة الإضافيّة ـ هو نظرٌ إلى أخلاقه تعالى، فعدله من أخلاقه وصفاته، وكرمه من أخلاقه وصفاته، وهكذا الحال في سائر صفاته، وبذلك تكون الأخبار الحاثّة على الاتّصاف بأخلاقه تعالى هي أخباراً حاثّةً على الاتّصاف بصفاته تعالى، والعكس صحيحٌ أيضاً، وحيث إنّ الله تعالى بنكتة إطلاقيّته في الوجود والكمال، وإنّ الصفات والكمالات والأخلاق مراتبيّةٌ، فإنّ أخلاق الله تعالى لابدّ أن تكون منسجمةً مع ذلك، بمعنى أن تكون في منتهى المراتب، وهذا مجرّد تقريبٍ للفكرة، وإلّا فإنّ مقتضى الإطلاقيّة عدم وجود مرتبةٍ نهائيّةٍ وغائيّةٍ؛ لأنّه من العسير علينا تصوير معنى الإطلاق بغير أن نقول بعدم وجود نهايةٍ له، فإذا ما تصوّرنا أنّ للمطلق مرتبةً نهائيّةً ـ وهو غير مُتصوّرٍ بحدّ ذاته، ولكنّنا نفترض ذلك من باب فرض المحال ليس بمحالٍ ـ فإنّ أخلاق الله تعالى وكمالاته بالغةٌ تلك المرتبة.

ويترتّب على ذلك أن تكون أخلاق الله تعالى هي مكارم الأخلاق لا غير، وإذا ما كان لحُسن الخُلق مصداقٌ أتمّ فهو خُلُق الله تعالى، وقد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ: «**حُسن الخلق خُلق الله الأعظم**»[1]، وهذا ما يجعلنا مندفعين للتخلّق بأخلاق الله تعالى، فهي الخُلُق الحسن، وهي حُسن الخلق، بل لا خُلق حسنٌ إلّا وهو مُفاضٌ من مشكاته لا غير،

(١) المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء، للشيخ محسن الفيض الكاشاني: ج٥ ص٩٠، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾، وهو الذي: ﴿...يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ...﴾ (النور: ٣٥).

طبيعة الاتّصاف بأخلاق الله تعالى

ورد الحثّ الكبير على التشبّه بأخلاق الله تعالى، ومن ذلك ما جاء عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**تخلّقوا بأخلاق الله**»[١].

إنّ معنى الاتّصاف بأخلاق الله تعالى هو الانتماء لله تعالى في القول والعمل لا مجرّد الانتماء في الوجود والتكوين، وهذا الاتّصاف لا ثبات له إلّا بثبات الانتماء نفسه، فإذا ما غفل الإنسان فإنّ النتيجة الطبيعيّة هي الابتعاد بقدر حدود الغفلة، وقد تكون الغفلة من النوع الموجب للبُعد الأبدي، وهنا تكمن أهمّيّة المراقبة، فالله تعالى وإن كان غفوراً رحيماً إلّا أنّ للزلّة في القول أو في السلوك أثراً تكوينيّاً مباشراً، وهذا الأثر المباشر لم يفلت منه حتّى بعض الأنبياء عليهم السلام، فقد روي أنّ يوسف الصدّيق عليه السلام قد مكث سبع سنوات في السجن لأنّه قال لسجينٍ خرج كان يعمل مع الملك: اذكرني عند ربّك، وقيل: لأنّه قال بعد مراودة زليخا له ما جاء في قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ (يوسف:٣٣)، ولم يقل: عافيتك أحبّ إليَّ، فدخل السجن.

إذن، فالاتّصاف بصفات الله تعالى هو عين الانتماء، وما دام الانتماء متحقّقاً بالمعنى المتقدّم فالتخلّق بأخلاق الله تعالى كائنٌ، فهو اتّصافٌ بحقيقة الخلق الإلهي لا مجرّد دعوى الانتساب والارتباط.

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة، مصدر سابق: ج٧ ص٤٨٦، الحديث رقم (٣٤٩٠).

بعبارةٍ أخرى: إنّ التخلّق هو التحقّق والاتّصاف بحقيقة ذلك الخلق، لا العلم المفهومي بمعناه، كما يحصل بالرجوع إلى المعاجم، بأنّ الراحم كذا والعطوف كذا، فذلك على أهمّيّته إلّا أنّه لا يؤدّي إلى الاتّصاف به، ومنه يتّضح معنى حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً، مَن أحصاها دخل الجنّة**»[1]، فالمراد هو التخلّق بحقائق تلك الأسماء، لا مجرّد الإحصاء الرقمي، وقد ورد توضيحٌ للحديث بحديثٍ آخر مرويٍّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أيضاً، وهو قوله: «**إنّ لله تسعةً وتسعين خُلُقاً، مَن تخلّق بها دخل الجنّة**» فيكون الإحصاء بمعنى التخلّق بها[2]، وهذا هو معنى الاتّصاف بصفات الله تعالى وأخلاقه.

كيفيّة التخلّق بأخلاق الله تعالى

إنّ الاتّصاف بصفات الله تعالى هو المحور الحقيقي في التخلّق بأخلاق الله تعالى، ولكن يبقى السؤال المهمّ هو: كيف يتسنَّى لنا التخلّق بأخلاقه تعالى؟

والجواب عن ذلك يكمن في متابعة ما أمر به الله تعالى، والانتهاء عمّا نهى عنه، سواءً كان الأمر متعلّقاً بالعقيدة أو الشريعة أو بمطلق الأوامر، ونقطة البداية تكون في مراجعة طبيعة العقائد التي عليها الإنسان.

بعبارةٍ أُخرى: إنّ الإنسان إذا أراد أن يتخلّق بأخلاق الله، وأن يصدر

---

(١) الخصال، للشيخ الصدوق أبي جعفرٍ محمّد بن عليّ القمّي: ص٥٩٣ ح٤، تحقيق: عليّ أكبر الغفاري، نشر جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة. أيضاً:
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج١٢ ص٤٦٩، الحديث رقم (٧٥٠٢)؛ وج٣ ص٤٩٠، الحديث رقم (٨١٤٦)، إسناده صحيحٌ على شرط الشيخين.

(٢) انظر: الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، للحكيم صدر الدين محمّد بن إبراهيم الشيرازي: ج١ ص٣٠، تصحيح وتعليق: آية الله حسن زاده آملي.

منه العمل الصالح، عليه أوّلاً أن يصحّح اعتقاداته القلبيّة، فالعقيدة الصحيحة تُحصّن العمل من الشوب، وإلّا إذا كان الاعتقاد فاسداً فإنّه لا يصدر عنه إلّا العمل السيّئ، كما جاء ذلك تلميحاً في قوله تعالى: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**﴾ (الأعراف: ٥٨)، والعقيدة السليمة هي العقيدة اليقينيّة، والعمل اليقيني وإن كان قليلاً فهو أعظم بكثيرٍ من العمل الكثير غير اليقيني، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ العمل القليل الدائم على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقينٍ**»[1].

ولذلك لابدّ أن يتفرّع العمل على العقيدة اليقينيّة الصحيحة السليمة[2]، فإذا ما كانت العقيدة سليمةً، وتبعها العمل الصالح المنبثق من تلك العقيدة اليقينيّة السليمة فإنّ الأثر سيكون عظيماً في تحصيل الكمالات العُليا، ونعني بذلك الاتّصاف بمكارم الأخلاق والأخلاق الفاضلة، أي: بأخلاق الله تعالى، ولا يبقى عليه إلّا المداومة على ذلك، فإذا ما أراد طالب الكمالات الإلهيّة «اكتساب الأخلاق الفاضلة، وإزالة الأخلاق الرذيلة، فلا يمكنه تحقيق ذلك إلّا بتكرار الأعمال الصالحة المناسبة لها، ومزاولتها والمداومة عليها، حتّى تثبت في النفس من الموارد الجزئيّة علومٌ جزئيّةٌ، وتتراكم وتنتقش في النفس انتقاشاً متعذّر الزوال أو متعسّرها»[3].

---

(١) وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، للشيخ محمّد بن الحسن، الحرّ العاملي: ج١٥ ص٢٠٢ ح٦، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدّسة.

(٢) انظر: الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، مصدر سابق: ج١ ص٣٠.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١ ص٣٥٤.

وإذا ما بلغ الإنسان مرتبة الاتّصاف بأخلاق الله تعالى فقد بلغ ما للكمال الموهوب من بقاءٍ وخلودٍ، «فمَن كان مع الله فقد حصل في جواره، ومَن كان محبوباً لله فقد فاز بجميع مقاصده، ومَن تخلَّق بأخلاق الله فقد استحقَّ الخلود في دار البقاء، **وكلٌّ مُيسرٌ لما خُلق له**»[١]، وما خُلقنا له هو طلب الكمال الإلهيّ، لا اللهو واللعب والعبث، فالأعمار أمانةٌ وعلينا تأدية الأمانة، وتأدية الأمانة تكمن في الوصول إلى أخلاق الله تعالى وصفاته، فمن أنفق عمره أو شطراً منه في طلب الشهوات والرذائل فقد خان أمانته، بل وكان من عيون السارقين، ويصدق عليه قوله تعالى: ﴿...**ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**﴾ (يوسف: ٧٠).

حدود الاتّصاف بصفات الله تعالى

معلومٌ أنّ الإنسان يتحرَّك وفقاً لحدوده وسعته؛ وبقدر اتّساع رقعة كمالاته تتحدّد هويّته المعنويّة، والتي تمثّل هويّته الحقيقيّة في حينها، فقد ترتقي وقد تتردَّى، وما على الإنسان إلّا المثابرة والسعي في التحصيل، ولا سعي أشرف من السعي للاتّصاف بأخلاق الله تعالى، وبالقدر المستطاع، وبحسب قول الفلاسفة من أنّ: الفلسفة عبارةٌ عن التشبّه بالإله بقدر الطاقة البشريّة، وهنا يجب عليه أن يعرف تفسير هذا التخلّق وهذا التشبّه، وهذا لا يكون إلّا بتقليل الحاجات وإضافة الخيرات والحسنات، لا بالاستكثار من اللذّات والشهوات[٢].

إنّ هنالك حقيقةً كُبرى ينبغي الالتفات لها والتأكيد عليها، وهي أنّ السير في عالم الصفات الإلهيّة والتخلّق بها هو سيرٌ بقدر السائر لا بقدر

---

(١) شرح المائة كلمةً لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام، مصدر سابق: ص١٨٦.

(٢) انظر: بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٥٨ ص١٢٩.

المُسار فيه، وهذا هو منطق الحكمة ومنطق العرفان ومنطق القرآن؛ قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...﴾ (الرعد: ١٧)، ومن هنا لا ينبغي اليأس من الوصول؛ فإنّ كلّ خطوةٍ للأمام هي وصولٌ بعينه، وغايته أنّه وصولٌ محدودٌ، وما يُذكر في كلمات الشامخين من العرفاء من اصطلاح الوصول في السير والسلوك، إنّما يُراد به الخلاص من الأنا وتبعاته، ولا يُراد به إغلاق مسيرة السير والسلوك، فذلك محالٌ ولا ريب، ولا أحد يقول به.

علاقة الإنسان الكامل بأخلاق الله تعالى وصفاته

إنّ الإنسان الكامل لا يعني شخصاً بعينه، وإنّما هو مقامٌ معرفيٌّ ومعنويٌّ يصل إليه مَن انعتق من الدنيا وغادر ظلمة الأنا، وصار عقله وقلبه وروحه مستودعاتٍ في ساحة الحقّ وخزائنه، يرى بعين الله ونوره، ويسمع بأُذن الله وسمعه، وينطق بلسان الله تعالى وكلامه، وهذا هو معنىً آخر للاتّصاف بصفات الله تعالى وأخلاقه، وهو ما يُطلق عليه في اصطلاح الحكمة المتعالية بالسير من الحقّ إلى الحقّ بالحقّ، بعد رحلة الانعتاق الأولى في رحلة السير من الخلق إلى الحقّ، وفي هذا السير يتخلّص الإنسان من ذاته الخياليّة، وتظهر وتتجلّى فيه ذاته الحقيقيّة، وكنّا قد تناولنا هذه الرحلات في دراسةٍ سابقةٍ[1].

إذن، فالعلاقة بين الإنسان الكامل وبين أخلاق الله تعالى وصفاته هي: أنّ الإنسان الكامل قد تخلّق ظاهراً وباطناً، شكلاً ومضموناً، بأخلاق الله

---

(١) انظر: «من الخلق إلى الحقّ... رحلات السالك في أسفاره الأربعة» أو «مراتب السير والسلوك إلى الله»، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن.

تعالى، فغادرت روحه الدنيا وهو قائمٌ فيها، فلم يعد للدنيا سلطانٌ عليه، فهو وليٌّ لله بالحقّ، لا يهمّ بالمعصية فضلاً عن كونه لا يقترفها أبداً.

ونحن في مجمل حياتنا توجد أهدافٌ كثيرةٌ، قريبةٌ ومتوسّطةٌ وبعيدةٌ، ولكنَّ الهدف الحقيقي من وراء ذلك كلّه هو الاقتران بالعبوديّة لله وحده، والمضيّ نحو ضفاف رضوانه، فلا شاغل للسالك في عقله وقلبه وروحه سوى الله تعالى ومراقبته، وعندما تحين ساعة الرحيل عن الدنيا سيتمتم لسانه بتلك الكلمة الخالدة: «**فُزتُ وربِّ الكعبة**»[1].

كلماتٌ على طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿**...ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ (القصص: ٢٤)، وهكذا تنظر لنفسك ـ وهي ظلّ الله فيك ـ فتندب فقرك، وتستنجد بالله الغنيّ، فلا تكفّ عن الطلب، فإنّك مع ما أنزل الله إليك من خيرٍ، فقيرٌ فقيرٌ فقيرٌ.
- كان الإمام عليّ السجَّاد عليه السلام كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء: «**اللّهمّ إنّي أصبحت لا أملك لنفسي خير ما أرجو لها، ولا أدفع عنها شرّ ما أحذر عليها، وأصبحت الأمور بيدك، ولا فقير أفقر منّي: ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾**»[2].

---

(١) المناقب، لابن شهرآشوب: ج٢ ص١١٩. أيضاً:
ـ الوافي بالوفيّات: ج١٨ ص١٧٣.
ـ تاريخ دمشق: ج٤٢ ص٥٦١.

(٢) كامل الزيارات، لجعفر بن محمّد بن قولويه: ص٥٧، تحقيق: الشيخ جواد القيّومي، مؤسّسة نشر الفقاهة، مطبعة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، إيران. أيضاً:
ـ الفروع من الكافي، مصدر سابق: ج٩ ص٢٥٢، الحديث رقم (٨١٠١).

خلاصة الدرس

- الأخلاق الإلهيّة هي عين الصفات الثابتة لله تعالى، ولكونها إطلاقيّةً فأخلاقه كذلك.
- من العسير تصوير معنى الإطلاق، غير أنّنا نقول بعدم وجود نهايةٍ له.
- ورد حثٌّ كبيرٌ على التشبّه بأخلاق الله، منه: «تخلّقوا بأخلاق الله».
- الاتّصاف بأخلاق الله تعالى هو الانتماء لله تعالى في القول والعمل، فهو اتّصافٌ بحقيقة الخُلُق الإلهيّ لا مجرّد دعوى الانتساب والارتباط.
- التخلّق بأخلاق الله يكمن في متابعة ما أمر به، والانتهاء عمّا نهى عنه.
- العقيدة الصحيحة تُحصّن العمل من الشوب، وهي العقيدة اليقينيّة.
- باتّصاف الإنسان بأخلاق الله يبلغ ما للكمال الموهوب من بقاء وخلود.
- الإنسان يتحرَّك وفقاً لسعته، وبقدر كماله تتحدّد هويّته المعنويّة.
- الفلسفة عبارةٌ عن التشبّه بالإله بقدر الطاقة البشريّة.
- السير في عالم الصفات الإلهيّة والتخلّق بها هو سيرٌ بقدر السائر لا بقدر المُسار فيه.
- الإنسان الكامل لا يعني شخصاً بعينه، وإنّما هو مقامٌ معرفيٌّ ومعنويٌّ.
- العلاقة بين الإنسان الكامل وبين أخلاق الله تعالى وصفاته هي التخلّق بأخلاق الله ظاهراً وباطناً.
- الهدف الحقيقي من وجود الإنسان هو الاقتران بالعبوديّة لله وحده.

مذاكرة

- ما هي العلاقة بين أخلاق الله تعالى وصفاته؟

ـ المصنّف، لابن أبي شيبة، مصدر سابق: ج١٥ ص١٩٩٠، الحديث رقم (٢٩٩٩٩).

- اذكر حديثاً شريفاً يحثّ على التشبّه بأخلاق الله تعالى.
- ما هو معنى الاتّصاف بأخلاق الله تعالى؟
- ما هي علاقة العقيدة الصحيحة بتحصين العمل من الشوب؟
- ما هي علاقة الاتّصاف بأخلاق الله تعالى بالبقاء والخلود؟
- ما هي علاقة سير الإنسان بحدوده وسعته؟
- هل السير في عالم الصفات الإلهيّة والتخلّق هو سيرٌ بقدر السائر أم بقدر المُسار فيه؟
- هل الإنسان الكامل شخصٌ بعينه؟ ومَن هو الإنسان الكامل؟
- ما هي العلاقة بين الإنسان الكامل وبين أخلاق الله تعالى وصفاته؟
- ما هو الهدف الحقيقي من وجود الإنسان؟

الدرس التاسع

تشخيص سعادة الإنسان

- أهداف الدرس
- تمهيد
- تحديد معنى السعادة الحقيقيّة
- هل السعادة الحقيقيّة دنيويّةٌ أم أُخرويّةٌ؟
- أوصاف السعادة الحقيقيّة
- كيف نصل إلى السعادة الحقيقيّة؟
- طلب السعادة في بعض أدعية الإمام السجّاد عليه السلام
- كيف نشخّص الهدف؟
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- معنى السعادة الحقيقيّة.
- كون السعادة دنيويّةً أم أُخرويّةً.
- سُبل الوصول إلى السعادة الحقيقيّة.
- ضوابط تشخيص الهدف.

تمهيد

رغم مألوفيّة السعادة، لفظاً ومعنىً، إلّا أنّها لا زالت لُغزاً مُحيِّراً، فتكبّ الملايين من البشر في بئر الشقاء، تلتهم التراب وتظنّه ذهباً، تفرّ من الموت المؤقّت وهي تعمل بكلّ طاقتها للموت الأبدي، كلّ ذلك لأنّ الإنسان لم يفهم بعدُ معنى السعادة، ولم يدرك بعدُ سرَّ السعادة، أو عرف ذلك وأدركه ولكنّه مغلوبٌ لهواه وشقوته، وهذا ما يتطلّب منّا الوقوف قليلاً عند سواحل السعادة الحقيقيّة؛ حيث سنحاول في هذا الدرس أن نكشف عن معنى السعادة الحقيقيّة، وسبل الوصول إليها، والأهمّ من ذلك لابدّ لنا من تشخيص الهدف من وجودنا وحياتنا، وكيف نكون صادقين في طرح الأسئلة المصيريّة، وفي مواجهة الحقيقة عند الإجابة عنها.

تحديد معنى السعادة الحقيقيّة

يرى بعض الحكماء أنّ جميع الأشياء لا تُطلب لذاتها، وإنّما لشيءٍ آخر، فهي أمورٌ توصّليّةٌ وطريقيّةٌ، باستثناء السعادة فإنّها تُطلب لذاتها؛ لأنّها غايةٌ

نهائيّةٌ[١]، وغائيّة السعادة بيِّنةٌ، وهذا ما نصَّ عليه المعلّم الثاني الفارابي بقوله: «أمّا أنّ السعادة هي غاية ما يتشوّقها كلّ إنسانٍ، وأنّ كلّ مَن ينحو بسعيه نحوها فإنّما ينحوها على أنّها كمالٌ ما، فذلك ما لا يحتاج في بيانه إلى قولٍ؛ إذ كان في غاية الشهرة»[٢]؛ ممّا يعني أنّ السعادة لها قيمةٌ ذاتيّةٌ، وهذا ما تعاطى معه القرآن والسنّة الشريفة بواقعيّةٍ وموضوعيّةٍ كبيرةٍ؛ حيث قرنا السعادة بالجنّة والخلود فيها، كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ...**﴾ (هود: ١٠٨).

وأمّا في السنّة الشريفة فعن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «**حقيقة السعادة أن يختم الرجل عمله بالسعادة، وحقيقة الشقاء أن يختم المرء عمله بالشقاء**»[٣]؛ أي: أن يختم الإنسان حياته بالفوز بالجنّة فتلك هي السعادة، أو يختم حياته بالنار فذلك هو الشقاء.

ما هي السعادة؟

ولكن يبقى السؤال عن حقيقة السعادة وهويّتها بعد أن اتّضحت غائيّتها، فما هي السعادة؟

إنّ السعادة بمعناها العامّ تعني التخلّص من الألم والقلق والاضطراب، فتكون بمعنى اللذّة، سواءً كانت لذّةً حسّيّةً أو عقليّةً أو معنويّةً، وأمّا السعادة

---

(١) انظر: علم الأخلاق إلى نيقو ماخوس، للحكيم اليوناني أرسطو طاليس: ص١٨٩، الباب الرابع، ترجمه من اليونانيّة إلى الفرنسيّة بارتلمي سانتهلير، ونقله إلى العربيّة أحمد لطفي السيّد، الناشر: مطبعة دار الكتب المصرية، طبعة ١٩٢٤م، القاهرة.

(٢) التنبيه على سبيل السعادة، لأبي نصرٍ محمّد بن محمّد الفارابي: ص٤٩، تحقيق وتعليق: الدكتور جعفر آل ياسين، نشر دار المناهل، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

(٣) الخصال، مصدر سابق: ص٥ ح١٤.

بمعناها الخاصّ، والتي تمثّل السعادة الحقيقيّة فهي الوصول إلى الكمال المطلوب، والكمال المطلوب له مراتب، أدناها نيل الجنّة، وأعلاها الوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل، والإنسان الكامل هو الخليفة الإلهيّ المخاطب بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ (البقرة: ٣٠)، فالواصلون لمرتبة الإنسان الكامل ـ كالمعصومين ـ هم في جنّةٍ وهم في الدنيا، بل هم جنّةٌ تُسعد الآخرين، وقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ (الواقعة: ٨٨ـ٨٩).

ولا ريب أنّ هذا المقصد السامي لا يلتفت له السواد الأعظم من البشر، ولذلك لا يكون مطلوباً لهم، وهذه هي الغفلة الكبرى، فلا غفلة أعظم وأشدّ من الغفلة عن المقصد الحقيقي والهدف الحقيقي الذي وُجد من أجله الإنسان.

ومن الكوارث المعنويّة الكُبرى أن يستبدل الإنسان كماله المحض بنقصٍ محضٍ، فيظنّ أنّ متاع الدنيا هو المقصد، وإذا ما وُفّق لبعض الأعمال الصالحة ظنَّ بأنّه صار من الصالحين والأخيار، فيكون متاع الدنيا حجاباً مظلماً يمنعه من رؤية المقصد، وتكون الأعمال الصالحة حجاباً نوريّاً يُوهمه بأنّه قد وصل للمقصد.

نعم، قد لا يصل الإنسان إلى المقام المطلوب، كما هو حال معظم البشر، ولكنَّ المهمّ هو أن يدرك الإنسان ما هو مطلبه ومقصده، وما هي سعادته الحقيقيّة فيسير باتّجاهها، فإن بلغ بغيته فهو عالمٌ ربّانيٌّ، وإن مات في عرصات الطريق فإنّه متعلّمٌ على سبيل النجاة.

وخلاصة القول في ذلك: أن يكون الإنسان من أبناء الآخرة لا من أبناء الدنيا، وهذا ما ينبغي الاهتمام به والتركيز عليه، بل من الضروري أن

نلتفت إلى أهمّيّة أن يكون الإنسان من أبناء الآخرة، وخطورة أن يكون من أبناء الدنيا، فللآخرة أبناءٌ وللدنيا أبناءٌ، وأبناء الدنيا يتوهّمون الكمال فيما يطلبون؛ حيث لا شيء غير النقص والظلمات يجنون، وأمّا أبناء الآخرة ففي الكمال سائرون وكائنون، وإلى الراحة والخلود ينتهون، وقد ورد في حديث الرسول صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**الدنيا مرتحلةٌ ذاهبةٌ، والآخرة مرتحلةٌ قادمةٌ، ولكلّ واحدةٍ منهما بنون، فإن استطعتم أن تكونوا من بني الآخرة لا بني الدنيا فافعلوا، فإنّكم اليوم في دار عملٍ لا حساب فيها، وغداً في دار حسابٍ لا عمل فيها**»[1].

هل السعادة الحقيقيّة دنيويّةٌ أم أُخرويّةٌ؟

من هنا يتّضح: أنّ السعادة الحقيقيّة موضعها بالنسبة لنا هي الآخرة؛ لأنّ السعادة الحقيقيّة لها صفاتٌ وشروطٌ أساسيّةٌ، وهي:

الشرط الأوّل: الدوام والخلود

وهذا الشرط لا يتوفّر نهائيّاً في الدنيا المحكومة بالفناء والزوال، فالإنسان قد ينال سعادةً مادّيّةً أو معنويّةً في الدنيا، ولكنّها شبح سعادةٍ؛ لأنّها في طريقها للزوال، فيكون طلب السعادة في الدنيا أو توقّع كون السعادة كائنةً في الدنيا مجرّد توهّمٍ وتصوّرٍ خاطئٍ، فالسعادة الحقيقيّة والراحة الأبديّة لا يُمكن نيلها في الدنيا أبداً، لا لعجز الإنسان عن الوصول لذلك، وإنّما لأنّهما غير موجودتين في الدنيا، فلا معنى لطلبهما، ومنه يتّضح قول الإمام زين العابدين عليه السلام لرجلٍ من جلسائه: «اتّق

---

(١) كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين عليّ المتّقي ابن حسام الدين الهندي: ج٣ ص٢٣٣ ح٦٣١١، نشر مؤسّسة الرسالة، ١٣٩٩هـ، بيروت.

الله وأجمل في الطلب، ولا تطلب ما لم يُخلق... فقال الرجل: وكيف يطلب ما لم يُخلق؟! فقال: **مَن طلب الغنى والأموال والسعة في الدنيا فإنّما يطلب ذلك للراحة، والراحة لم تُخلق في الدنيا ولا لأهل الدنيا، إنّما خُلقت الراحة في الجنّة ولأهل الجنّة**»[1]، ومن الواضح: أنّ طلب ما لم يُخلق ضربٌ من المحال، فكيف يتمنّى الإنسان المحال؟!

قال الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه: «**لا تتمنّوا المستحيل**، قالوا: ومَن يتمنّى المستحيل؟ فقال: **أنتم، ألستم تمنّون الراحة في الدنيا؟** قالوا: بلى، فقال: **الراحة للمؤمن في الدنيا مستحيلةٌ**»[2]، ولذلك فالراحة كلّ الراحة إنّما تكون للصالحين، وتبدأ مع عالم الآخرة، فقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام: «متى يجد عبدٌ الراحة؟ فقال عليه السلام: **عند أوّل يومٍ يصير في الجنّة**»[3].

الشرط الثاني: عدم التعرّض للشقاء والألم ولو لطرفة عينٍ واحدةٍ

وهذا ما لا يكون أبداً إلّا في الجنّة، ممّا يعني أنّ السعادة في الدنيا لا تمثّل السعادة الحقيقيّة، وإنّما هي سعادة الآخرة، ولكن يبقى سؤالٌ مهمٌّ:

هل هذا يعني عدم تحصيل السعادة الدنيويّة الموصوفة باللذّة الحسّيّة والمعنويّة، ولو كانت مؤقّتةً؟

إنّ السعادة الدنيويّة مطلوبةٌ أيضاً، بل هي من ضروريّات الكينونة في

---

(١) الخصال، مصدر سابق: ص٦٤ ح٩٥.

(٢) بحار الأنوار، مصدر سابق: ج٧٨ ص١٩٥.

(٣) تحف العقول، للشيخ الثقة أبي محمّد الحسن بن عليّ بن شعبة الحرّاني: ص٣٧٠، تحقيق: عليّ أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي لجماعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة.

الحياة، فالإنسان يجد سعادةً ما في طعامه وشرابه وزواجه وأولاده وماله، وغير ذلك، كما أنّه يجد سعادةً في العلم والمعرفة والمناصب، وغير ذلك ممّا تقتضيه الحياة، ولكنّها مطالب ليست منفلتةً، وإنّما تخضع لضوابط، ولكن ضمن ضوابط لابدّ من الالتزام بها، ولنتأمّل في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧)، فإنّ هذه الآية الكريمة تقدِّم لنا قاعدةً ودستوراً كاملاً في التعاطي مع السعادة الحسّيّة التي أُذن لنا فيها في الدنيا، فتنصّ على أنّ هنالك نصيباً ينبغي تحصيله، ومن هذا النصيب الدنيوي: المأكل والمشرب والنكاح، إلّا أنّها لذائذ ينبغي أن لا تُطلب لذاتها، وإنّما تُطلب بداعي حفظ النفس وتحصينها من الضعف والانحراف، والهدف من وراء كلّ ذلك هو إدامة العمل للآخرة، ومن الواضح: أنّ تحصيل اللذائذ الموصلة لحفظ وإدامة عملنا الأُخروي أمرٌ واجبٌ، من باب مقدَّمة الواجب واجبةٌ، ولا ريب أنّ تحصيل الآخرة أمرٌ واجبٌ يُدركه العقل، ويدعو له الشرع.

قال العلّامة الطباطبائي: «وقوله: ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، أي: لا تترك ما قسم الله لك ورزقك من الدنيا ترك المنسيّ، واعمل فيه لآخرتك، لأنّ حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمل به لآخرته، فهو الذي يبقى له. وقيل: معناه: لا تنس أنّ نصيبك من الدنيا ـ وقد أقبلت عليك ـ شيءٌ قليلٌ ممّا أوتيت، وهو ما تأكله وتشربه وتلبسه مثلاً، والباقي فضلٌ ستتركه لغيرك، فخذ منها ما يكفيك وأحسن بالفضل، وهذا وجهٌ جيّدٌ»[1].

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١٦ ص٧٦.

من هنا نجد أنفسنا أمام مفترق طرقٍ حقيقيٍّ، فالإنسان السويّ هو مَن يطلب هذه السعادة لتحصيل السعادة الكبرى في الآخرة، والإنسان الشقيّ مَن يطلب هذه السعادة لنفسها، فينغمس في الملذّات والشهوات، فيصبح كالحيوان همُّه علفُه، وهذا هو الشقاء، وهذا هو الخُسران المبين.

قال العلّامة مسكويه رحمه الله: «وقد ظنَّ قومٌ أنّ كمال الإنسان وغايته هما في اللذّات، وأنّها هي الخير المطلوب والسعادة القصوى، وظنّوا أنّ جميع قواه الأُخر إنّما رُكِّبت فيه من أجل هذه اللذّات والتوصّل إليها، وأنّ النفس الشريفة التي سمّيناها ناطقةً إنّما وُهِبت له ليرتِّب بها الأفعال ويُميـِّزها، ثمَّ يُوجِّهها نحو هذه اللذّات لتكون الغاية الأخيرة هي حصولها له على النهاية والغاية الجسمانيّة... وهذا هو رأي الجمهور من العامّة الرعاع وجهّال الناس... وسيظهر عند ذلك: أنّ مَن رضي لنفسه بتحصيل اللذّات البدنيّة وجعلها غايته وأقصى سعادته فقد رضي بأخسّ العبوديّة لأخسّ الموالي؛ لأنّه يُصيـِّر نفسه الكريمة التي يناسب بها الملائكة، عبداً للنفس الدنيئة التي يناسب بها الخنازير والخنافس والديدان وخسائس الحيوانات التي تشاركه في هذا الحال»[1].

ولذلك لا ينبغي أن يغترَّ الإنسان بجزئه المادّي مهما بلغ من حُسنٍ وقوّةٍ، فإنّ الماس يبدو جميلاً برّاقاً ولكنَّ حقيقته كاربونٌ أسود لا قيمة له[2]، وهكذا الإنسان في جزئه المادّي فإنّه عبارةٌ عن حمأٍ مسنونٍ؛ قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا**

---

(١) تهذيب الأخلاق، مصدر سابق: ص٤٩ـ٥١، المقالة الأولى، تحت عنوان: «الفضائل التي تحت العدالة».

(٢) المصدر السابق: ص٤٩ـ٥١.

الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦)، أي: خلقنا الإنسان من طينٍ يابسٍ يُسمَع له صلصلةٌ ـ صوتٌ ـ إذا نُقر، من طينٍ أسود متغيّرٍ[١].

الشرط الثالث: ملازمة الشعور بالطمأنينة والسلام

إنّ الشعور بالطمأنينة والسلام هو خلاصة الراحة المطلوبة في السعادة الحقيقيّة، فكلّ سعادةٍ تخلو من هذا الشعور المركّب فإنّها وهم سعادةٍ لا غير، فالطمأنينة والسلام خاصّيّة الله تعالى، فهو الطمأنينة والسلام؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ...﴾ (الحشر: ٢٣).

وأمّا الدنيا فهي دار لهوٍ ولعبٍ ودار غرورٍ، فهل يمكن للدنيا أن تمنحنا طمأنينةً وسلاماً؟! وكيف لفاقد الشيء أن يعطيه؟! فالدنيا لا تعطي صحَّةً دائمةً، ولا غنىً حقيقيّاً، ولا خلوداً، فهي على حدِّ تعبير الإمام عليٍّ عليه السلام: «**دارٌ بالبلاء محفوفةٌ، وبالغدر معروفةٌ. لا تدوم أحوالها، ولا تسلم نزّالها، أحوالٌ مختلفةٌ، وتاراتٌ متصرّفةٌ. العيش فيها مذمومٌ، والأمان فيها معدومٌ. وإنّما أهلها فيها أغراضٌ مستهدفةٌ، ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها**»[٢].

كيف نصل إلى السعادة الحقيقيّة؟

بعد هذه الجولة اليسيرة في معاني السعادة، نحتاج أن نعرف سُبلَ الوصول إلى السعادة، وقد مرَّت بعض الإشارات لذلك، واقتضى المقام التركيز على هذه الفكرة والتنظيم؛ تنقسم سُبل السعادة إلى ما يلي:

---

(١) تفسير الجلالين؛ لجلال الدين محمّد بن أحمد المحلّي وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي: ص٣٤٠، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص٢١٩، رقم الخطبة (٢٢٦).

أوّلاً: تأدية حقوق النفس

وذلك من خلال الحرص على تعليمها وتهذيبها، والتعليم لابدّ أن يكون بما هو نافعٌ، وقد جاء عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام في خطبة المتّقين قولُه: «غضّوا أبصارهم عمَّا حرّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم»[١].

وأمّا تهذيب النفس فبحفظها من الموبقات وتعويدها على الحسنات، أعني: صقلَها بالأخلاق الحميدة، وتخليصَها وتجنيبها من الأخلاق الذميمة، فمَن علَّم نفسه وأدَّبها عاش سعادةً داخليّةً عميقةً.

ثانياً: تأدية حقوق الناس

فمَن كان للناس عليه حقٌّ ولم يردّه لهم ستعتريه الكآبةُ والحزنُ ـ إن كان إنساناً سويّاً ـ وإلّا فإنّ هنالك أُناساً كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً بحسب التعبير القرآني، يسلبون حقوق الناس ولا يعتريهم شيءٌ من وخز الضمير، فهؤلاء ليسوا من الناس، فمَن طلب السعادة، عليه بسبيل تأدية حقوق الناس وإن كانت قليلةً، وسيأتي زمانٌ عصيبٌ على الإنسان وهو يطالع سجلّ أعماله وهو ينطق بحقوق الآخرين عليه فيقول الإنسان: ﴿...يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ (النبأ: ٤٠).

ثالثاً: تأدية حقوق الله تعالى

ونعني بها الحقوق الدينيّة العقديّة والشرعيّة، ففي العقيدة من حقّ الله تعالى علينا أن نزكّي توحيدنا من شبهة الشرك. فالرياء خلقٌ ذميمٌ ولكنّه شركٌ أصغر، والكذب خُلقٌ ذميمٌ ولكنّه في حقيقته شركٌ أيضاً، فالكاذب

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص١٦٠، رقم الخطبة (١٩٣).

ـ فضلاً عن الكذّاب ـ يرى أنّ كذبه سوف يُنقذه، وفي ذلك شركٌ عمليٌّ.

ولذلك فإنّ من حقوقه سبحانه علينا: أن نطهّر ساحة التوحيد من براثن الشرك وشبهاته، وأمّا من حقوقه الشرعيّة فما يتعلّق بعباداتنا من حسن الأداء والوفاء بالقضاء وغير ذلك، ممّا أجملناه آنفاً بالعقيدة اليقينيّة الصحيحة والعمل الصالح المتفرّع عليها.

فإذا ما سلك الإنسان هذه الطرق الثلاثة يكون قد سلك سُبل السعادة في الدنيا، وسبل السعادة في الآخرة أيضاً، وما دام الإنسان في طلب السعادة الأخرويّة فإنّه في سعادةٍ دنيويّةٍ أيضاً، وإن كان بحسب الظاهر في ضيقٍ وعناءٍ، فسعادة الإنسان الحقيقي حينما يكون في طاعة الله تعالى.

طلب السعادة في بعض أدعية الإمام السجّاد عليه السلام

جاء في بعض أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام في طلب السعادة: «**اللّهمّ لا تخيّب رجاءً هو منوطٌ بك، ولا تُصفِر كفّاً هي ممدودةٌ إليك، ولا تُذِلّ نفساً هي عزيزةٌ عليك بمعرفتك، ولا تَسلِب عقلاً هو مستضيءٌ بنور هدايتك، ولا تُقْذِ عيناً فتحتَها بنعمتك، ولا تُخرِس لساناً عوّدتَه الثناءَ عليك، وكما كنت أوّلاً بالتفضّل، فكن آخراً بالإحسان... الخير متوقّعٌ منك، والمصير على كلّ حالٍ إليك، ألبسني في هذه الحياة البائرة ـ الزائلة ـ ثوبَ العصمة، وحَلِّني في تلك الباقية بزينةِ الأمن والسعادة، وافطم نفسي عن طلب العاجلة الزائلة... الشقيّ مَن لم تأخذ بيده، ولم تؤمنه من غده، والسعيد من آويته إلى كنف نعمتك، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك، إنّك على ما تشاء قديرٌ، وميسّر كلّ عسيرٍ، وكلّ عسيرٍ عليك سهلٌ يسيرٌ**»[١].

---

(١) الصحيفة السجّاديّة، للإمام زين العابدين عليه السلام: ص٧٣، رقم (٣١)، دعاؤه

كيف نشخّص الهدف؟

وهنا مكمن الخطورة، فالإنسان مجبولٌ على حبّ ذاته، ومجبولٌ على طلب كماله، ولا يوجد إنسانٌ سويٌّ لا يطلب كماله، فلماذا البعض يشمخ في الكمالات المعنويّة، فينال سعادته الحقيقيّة، والبعض الآخر ينغمس في الشهوات والملذَّات والنقص والقصور، فتناله شقوته؟ كيف يكون ذلك وكلّ واحدٍ منّا يطلب كماله؟!

إنّ المشكلة الحقيقيّة في أنّ الإنسان غالباً ما يُخطئ الطريق، فيظنّ كماله فيما يطلب، دون أن يلتفت إلى أنّه مستغرقٌ في ظلماته، من قبيل الاستغراق في انتقاء المأكولات والمشروبات اللذيذة؛ حيث يظنّ الإنسان أنّ في ذلك كماله، وهكذا في مسكنه وملبسه وسائر حاجاته، فيهتمّ بمحروقاته ومستهلكاته أكثر بكثيرٍ من حاجاته الروحيّة، فيشتدّ حزنه لو فقد مالاً له، ولا تجده مبالياً إذا فاتته صلاته! وهذا ما يدلّنا على أنّ مشكلة الإنسان تكمن في كونه كثير الخطأ في تحقيق المصاديق الحقيقيّة للكمال والسعادة.

من هنا تتبيَّن لنا الخطوط البيانيّة الأولى لكيفيّة تحديد الهدف، وعلى الإنسان أن يسأل نفسه بصدقٍ ويُجيب بصدقٍ أيضاً، يسأل عن هدفه الحقيقي في الحياة الدنيا، ويُجيب بصدقٍ عن ذلك، ولكي يساعد نفسه على تحديد الهدف الصحيح فإنّ عليه أن يضع أمامه حقيقة الزوال والخلود، وحقيقة اللذّة المحدودة والألم الدائم، وحقيقة الأمن والطمأنينة، وليترك لفطرته السليمة فرصة الإجابة عن سؤاله المصيري، فيحجب نفسه عن

عليه السلام في طلب السعادة، مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، بإشراف محمّد عليّ أبطحي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، قم.

هواه ولو بقدر تحديد الإجابة، وعندئذٍ سوف يجد الإنسان نفسه قد قطع شوطاً مهمّاً في السير والسلوك، فتحديد الهدف الحقيقي والإيمان به والسعي لتحقيقه يعادل نصف الطريق برمّته.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (النساء: ١٠٠)، إنّها الهجرة الحقيقيّة إلى السعادة الحقيقيّة، فما دمت في سبيل الله تعالى وطاعته فأنت في هجرة الخلاص من الوهم والألم، وهجرة التماسّ مع الراحة والأبد.
- كان الإمام عليٌّ السجّاد عليه السلام عندما يدنو من الحجر الأسود يخرّ باكياً ويقول: «**أمن أهل الشقاء خلقتني فأطيل بكائي؟ أم من أهل السعادة خلقتني فأُبشّر رجائي؟... أعوذ بك من نارٍ حرّها لا يطفأ، وجديدها لا يبلى، وعطشانها لا يروى**»[1].

خلاصة الدرس

- جميع الأشياء لا تُطلب لذاتها، وإنّما لشيءٍ آخر، باستثناء السعادة فإنّها تُطلب لذاتها.
- السعادة بمعناها العامّ تعني التخلّص من الألم والقلق والاضطراب، فتكون بمعنى اللذّة، والسعادة بمعناها الخاصّ هو الوصول إلى الكمال المطلوب، أدناه نيل الجنّة.
- لا غفلة أعظم وأشدّ من الغفلة عن المقصد الحقيقي والهدف الحقيقي

---

(١) الصحيفة السجّاديّة، مصدر سابق: ص٢٠١، رقم (١١٢)، دعاؤه عليه السلام في رجب.

الذي وُجد من أجله الإنسان.

- من الضروري أن يكون الإنسان من أبناء الآخرة لا من أبناء الدنيا.
- السعادة الحقيقيّة لها شروطٌ أساسيّةٌ، وهي: الدوام والخلود، وعدم التعرّض للشقاء والألم ولو لطرفة عينٍ واحدةٍ، وملازمة الشعور بالطمأنينة والسلام.
- الشعور بالطمأنينة والسلام هو خلاصة الراحة والسعادة الحقيقيّة.
- تنقسم سُبل السعادة إلى: تأدية حقوق النفس، وتأدية حقوق الناس، وتأدية حقوق الله تعالى.
- الإنسان مجبولٌ على حبّ ذاته، ومجبولٌ على طلب كماله، ولا يوجد إنسانٌ سويٌّ لا يطلب كماله.
- إنّ مشكلة الإنسان الحقيقيّة هي أنّه غالباً ما يُخطئ الطريق، فيظنّ كماله فيما يطلب، دون أن يلتفت إلى أنّه مستغرقٌ في ظلماته.

مذاكرة

- لأيّ شيءٍ تُطلب السعادة؟
- ما هو الفرق بين السعادة بمعناها العامّ ومعناها الخاصّ؟
- ما هي الغفلة الأعظم والأشدّ؟
- ما هي شروط السعادة الحقيقيّة؟
- ما هي سبل تحصيل السعادة؟
- هل يحتاج الإنسان أن يتعلّم طلب كماله؟ ولماذا؟
- ما هي مشكلة الإنسان الحقيقيّة في طلب كماله؟

الدرس العاشر

الأخلاق والضيافة الإلهيّة

- أهداف الدرس
- تمهيد
- معنى الضيافة الإلهيّة
- مستويات الضيافة الإلهيّة
  - ✓ الضيافة التكوينيّة (الإيجاديّة)
  - ✓ الضيافة المعنويّة (الكماليّة أو التكميليّة)
- علاقة الأخلاق بالضيافة الإلهيّة
- ضوابط ومقوِّمات التحقّق بالضيافة الإلهيّة
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- معنى الضيافة الإلهيّة.
- أقسام الضيافة.
- علاقة الأخلاق بالضيافة الإلهيّة.
- ضوابط ومقوِّمات التحقّق بالضيافة الإلهيّة.
- الاستعدادات الأوّليّة للأخلاق الإلهيّة.

تمهيد

من الدروس المعنويّة الجليلة: التعرّف على الضيافة الإلهيّة بأقسامها، فذلك مدخلٌ مهمٌّ ليفهم الإنسان واقعيّة وحدود ضيافته للآخرين، وكيف يتخلّق بأخلاق الله تعالى في رسوم الضيافة.

فمن الدروس الجليلة في الضيافة الوجوديّة ـ مثلاً ـ: أنّ الله تعالى لا يقطع فيضه عمَّن يكفر به أو يُسيء له، بخلاف الإنسان فقد جُبل على الإحسان لمن أحسن له، وفي أحسن الأحوال: أن لا يُسيء لمن أساء له، وأمّا أن يُحسن ويستضيف مَن أساء له فذلك لا يكون إلّا للأوحدي من الناس.

معنى الضيافة الإلهيّة

الضيافة تعني ميل شيءٍ لشيءٍ، والضيف هو مَن مال لك ونزل عندك، والتضييف الإطعام، فتقول: ضيّفته إذا أطعمته[1].

---

(١) انظر: لسان العرب، لمحمّد بن مكرم بن منظور الأفريقي: ج٩ ص٢٠٨ـ٢٠٩، دار صادر، ١٤١٤هـ، الطبعة الثالثة، بيروت.

والضيافة عموماً تنقسم إلى قسمين: ضيافةٍ مادّيّةٍ، وأُخرى معنويّةٍ، فللإنسان حركتان، مادّيّةٌ ومعنويّةٌ، الأولى مرتبطةٌ بالبدن، والثانية مرتبطةٌ بالروح، فما ارتبط منه بالبدن يناسب الضيافة المادّيّة، وما ارتبط منه بالروح يناسب الضيافة المعنويّة.

ثمّ إنّ الضيافة تفرض أركاناً ثلاثةً، هي: وجود ضيفٍ، ووجود مضيّفٍ، ووجود مائدة الضيافة، سواءٌ كانت المائدة المُقدَّمة مادّيّةً كما هو المُتصوَّر عادةً، أو معنويّةً كاستجابة الدعاء وغفران الذنوب.

هذه هي الضيافة المتعارف عليها، فما هو المراد من الضيافة الإلهيّة؟

وهل الضيافة الإلهيّة تشتمل على ما تقدَّم ذكره؟

لو لاحظنا الوجود العامّ سنجد أنفسنا في ضيافةٍ إلهيّةٍ مستمرّةٍ، فكلّ موجودٍ قد نال نعمة الوجود منه سبحانه، فهو في ضيافة وجوده وإيجاده، وما دام الإنسان حيّاً يُرزق، فهو قائمٌ في هذه الضيافة.

وهذه الضيافة لا توجد فيها امتيازاتٌ كثيرةٌ بين مَن شملتهم نعمة الوجود، وإنّما هنالك امتيازاتٌ أُخرى تفرضها الضيافات الأُخرى، والتي من أهمّها الضيافة المعنويّة المطلقة عن الزمان والمكان، والتي تتخصّص فيما بعد إلى دوائر من الضيافات الإلهيّة، منها ما هو زمانيٌّ كشهر رمضان، ومنها ما هو زمكانيٌّ كالحجّ والوقوف في عرفة، ومنها ما هو معرفيٌّ كتحصيل العلوم الدينيّة، كما سيأتي.

إنّ الضيافة الإيجاديّة المادّيّة لا تكشف عن كرامة الضيف فيها، فالدنيا مسرحٌ للفضيلة والرذيلة، وللموجودات الصالحة والطالحة، فلا يُمكن أن تكون هذه الضيافة ذات بالٍ ورفعةٍ، وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلّى

الله عليه وآله قوله لأبي ذرّ: «**يا أبا ذرّ، والذي نفس محمّدٍ بيده لو أنّ الدنيا كانت تعدل عند الله عزَّ وجلّ جناح بعوضةٍ ما سقى الكافر والفاجر منها شربةً من ماءٍ**»[1].

مستويات الضيافة الإلهيّة

من هنا يترجَّح عندنا البُعد الآخر للضيافة الإلهيّة المقصودة، وهذا ما أبرزه الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله في بيان أجلى مصاديق الضيافة الإلهيّة، المتمثّلة بصيام شهر رمضان، ولكن دون الحصر بها، وهذا ما يدعونا لتفصيل المسألة في الضيافة الإلهيّة، فما هي مستويات الضيافة الإلهيّة؟

تنقسم الضيافة الإلهية بمعناها العامّ إلى قسمين، هما:

(١) الضيافة التكوينيّة أو الإيجاديّة

وهي الضيافة التي تعني هبة الوجود أو الإيجاد للإنسان وسائر المخلوقات، وهي ضيافةٌ محدودةٌ رغم عموميّتها المطلقة؛ ﴿**...كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى...**﴾ (الرعد: ٢)، وهي نعمةٌ على العبد إذا جعل ثمنها الجنّة، وإلّا فلا.

(٢) الضيافة المعنويّة (الكماليّة أو التكميليّة)

وهي الضيافة التي تلي نعمة الوجود، وهي الأهمّ، فالأولى يتساوى فيها الإنسان مع الحيوان والنبات والجماد، وأمّا الضيافة المعنويّة فهي ـ بحسب الظاهر ـ مختصّةٌ بالموجودات العاقلة، فهي التي تطلب كمالها المعرفي والمعنوي، فتكون في سيرٍ وسلوكٍ كماليٍّ، به تتدرّج وترتقي.

إنّ للضيافة الإلهيّة المعنويّة ثلاثة مستوياتٍ، وهي:

---

(١) من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق: ج٤ ص٢٦٢، الحديث رقم (٤). أيضاً:

ـ ترتيب الأمالي، مصدر سابق: ج٧ ص٣٣١، الحديث رقم (٤١٥٥).

ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، مصدر سابق: ج٢ ص٢٩٩، الحديث رقم (٦٨٦).

١. الضيافة العامّة.
٢. الضيافة الخاصّة.
٣. الضيافة الأخصّ.

أوّلاً: الضيافة العامّة

وهي ضيافة شهر رمضان المبارك للصائمين فيه، فشهر رمضان شهر ضيافة الله تعالى، وقد جاء ذلك في خطبةٍ لرسول الله صلّى الله عليه وآله في آخر جمعةٍ من شهر شعبان، مُبشِّراً إيّاهم بقدوم شهر رمضان المبارك.

عن الإمام عليّ الرضا، عن آبائه، عن عليٍّ عليهم السلام، قال: «**إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خطبنا ذات يومٍ فقال: أيّها الناس، إنّه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهرٌ هو عند الله أفضل الشهور، وأيّامه أفضل الأيّام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات، هو شهرٌ دُعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيحٌ، ونومكم فيه عبادةٌ، وعملكم فيه مقبولٌ، ودعاؤكم فيه مستجابٌ، فاسألوا الله ربّكم بنيّاتٍ صادقةٍ، وقلوبٍ طاهرةٍ أن يوفّقكم لصيامه وتلاوة كتابه...**»[(١)].

إنّها ضيافةٌ معنويّةٌ وليست مادّيّةً، فلو كانت مادّيّةً لما أُمروا بالصيام، فالضيافة المادّيّة تقتضي الإكثار من الطعام والشراب وليس فرض الحصار عليهما طيلة النهار، ومعنى كونها معنويّةً هو ما تعرَّضت له خطبة الرسول صلّى الله عليه وآله، ففي هذا الشهر الكريم تُغفر الذنوب، وتُعتق الرقاب،

---

(١) الفروع من الكافي، مصدر سابق: ج٧ ص٣٧١، الحديث رقم (٦٢٥٧). أيضاً:
ـ من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق: ج٢ ص٤٤، الحديث رقم (١٩٨).
ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج٧ ق٣ ص١٤٦٩، الحديث رقم (٣٥١٦).

فأنفاسنا تسبيحٌ، ونومنا عبادةٌ، وعملنا مقبولٌ، ودعاؤنا مستجابٌ، وغير ذلك من آثار الضيافة المعنويّة الواردة في الخطبة.

ويُستفاد من كون الصيام ضيافةً إلهيّةً عامّةً: أنّ الصوم نفسه هبةٌ من الله تعالى لعباده، ولعلّه يُفسِّر لنا ما ورد في الأخبار من كون الصوم قد امتاز على سائر العبادات الأخرى بأنّه لله تعالى، وهو الذي يجزي به[1]، ولم يرد توصيفٌ كهذا لأيّة عبادةٍ أُخرى، ومعنى كون الصوم لله تعالى وكونه هبةً منه: هو أنّ العبد قد استجاب لتكليفٍ مؤدّاه الامتناع في وقت الحركة وبذل الطاقة عن أساسيّات ومقوّمات الحياة المادّيّة في الحياة الدنيا، وهي المأكل والمشرب والجماع وسائر المُتع الأخرى.

بعبارةٍ أخرى: إنّ هذه الضيافة الإلهيّة العظيمة تهدف إلى إنقاذ الإنسان من غائلة الشهوات، وعتق النفس من عبوديّة المادّة، بل والأخذ به للكينونة في عالم الوصل والكمال، فصوت الضيافة هو الدعوة لصيام الشهر الفضيل، واستجابة الدعوة في تأدية حقّ الصيام.

جديرٌ بالذكر أنّ عموميّة الضيافة في شهر الصيام، أو السرّ في تسمية شهر الصيام بالضيافة العامّة هو أنّها ضيافةٌ مطلقةٌ من حيث المكان، رغم انحصارها في زمانٍ معلوم، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أُخرى لأنّها ضيافةٌ ودعوةٌ مفتوحةٌ للجميع في أيِّ مكانٍ كانوا، بل هي دعوةٌ مُعلنةٌ للإنسان، وإنّما

---

(١) قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**قال الله تبارك وتعالى: الصوم لي وأنا أجزي به، وللصائم فرحتان: حين يفطر وحين يلقى ربّه عزَّ وجلّ، والذي نفس محمّدٍ بيده لخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك**». (مَن لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق أبي جعفرٍ محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي: ج٢ ص٧٤ ح١٧٧٣، مصدر سابق).

خُصِّص الخطاب بالمؤمنين لأنّ شرط الضيافة فيه سبق الاعتقاد بالمُضيف[١].

بعبارةٍ أُخرى: إنّ الفيوضات المعنويّة تفترض وجود قلبٍ مؤمنٍ في رتبةٍ سابقةٍ لتلقّي الفيض، فيكون الخطاب موجّهاً لسائر المؤمنين، وفي ذلك إشارةٌ خفيّةٌ إلى حقيقةٍ عظيمةٍ، وهي أنّ الإنسان حقّاً هو المؤمن خاصَّةً، والمؤمن حقّاً هو الإنسان خاصَّةً، فاستحقّ الضيافة الإلهيّة لإنسانيّته الحقّة.

من هنا ينبغي الالتفات إلى مساحة الضيافة الإلهيّة وتوفير متطلّباتها، فإنّها ليست مجرّد الكفّ عن الطعام والشراب والنكاح، فهنالك صيامٌ للجوارح، وصيامٌ للجوانح؛ ولذلك جاءت قسمة الصيام على ثلاثة أقسامٍ، وهي:

- صوم العوامّ، ويُراد به الكفّ عن الطعام والشراب والنكاح، وسائر المفطِّرات المادّيّة الأُخرى المُبيَّنة في الرسائل العمليّة، وفي هذا النوع لا ينال الصائم من الضيافة المعنويّة إلّا اليسير.
- صوم الخواصّ، ويُراد به الكفّ عن سائر المحرّمات الجوارحيّة، من قبيل ما يقع من المحرّمات بواسطة الحواسّ الخمس، كسماع الغيبة، والنظر للأجنبيّة بريبةٍ، والبذاءة والكذب باللسان، وغير ذلك.
- صوم خواصّ الخواصّ، ويُراد به الإعراض عمَّا سوى الله تعالى، وهو بابٌ مشرَعٌ للصائمين، إلّا أنّ تمام الكمال فيه من شأن المعصومين عليهم السلام والكُمّل ممّن تشرّفوا بمقام الولاية الإلهيّة[٢].

---

(١) تعرَّض السيّد الأستاذ دام ظلّه إلى نكاتٍ جليلةٍ في موضوع الصوم، وذلك في كتابه «روحانيّة العبادات» في الدرس التاسع «صورٌ روحانيّةٌ للصوم»، ننصح بمطالعتها لتتميم الفائدة، علماً بأنّ هذا الكتاب هو حلقةٌ من «سلسلة الأخلاق التعليميّة».

(٢) المراد من مقام الولاية هو قطع السفر الأوّل من الأسفار المعنويّة الأربعة، وهو السفر من الخلق إلى الحقّ، حيث الخلاص من الكثرة، والكينونة في الوحدة.

تنبيهٌ

من الغبن أن يرى المؤمن نفسه دون أشرف مراتب الصوم، ومن الخطأ أن يعتقد البعض أنّه مأسورٌ لاستعداده الظاهر منه، فللإنسان طاقاتٌ عظيمةٌ تتجلَّى بأروع صورها وأجمل معانيها فيما إذا بذل جهده وصدق في قصده، وعلى المؤمن السعي لغايته وليس عليه أن يكون موفّقاً، فالتوفيق هبةٌ إلهيّةٌ، ولذلك لا ينبغي التغافل عن الورع والاجتهاد والعفّة والسداد لبلوغ الغاية والكمال المطلوب، كما جاء صريحاً في كلمة أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام في كتابٍ وجَّهه لعامله على البصرة عثمان بن حنيف رحمه الله، يقول فيه: «**ألا وإنّ لكلّ مأمومٍ إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورعٍ واجتهادٍ، وعفّةٍ وسدادٍ**»[1]، فيكون الورع والاجتهاد والعفّة والسداد وسائل الارتقاء بالاستعداد والانفتاح على الطاقات الكامنة فيه.

ثانياً: الضيافة الخاصّة

وهي الضيافة الخاصّة في شهر الحجّ، فليس الجميع مدعوّاً للحجّ، ولا يمكن إيقاع الحجّ في أيِّ مكانٍ، فللحجّ زمانٌ ومكانٌ محدّدان، أمّا الزمان فشهر ذي الحجّة لا غير، وأمّا المكان فمكّة المكرّمة لا غير.

وفي هذا الشهر ينظر الله تعالى لزائريه المُوحّدين له، الطائفين ببيته، والتائبين له، والمُنيبين إليه، فيتغمّدهم برحمته ومغفرته، وهي المنافع المشهودة والمشار إليها في قوله تعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ...**﴾ (الحجّ: ٢٨).

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٣ ص٧٠ رقم (٤٥). والطمر: الثوب البالي الخلق.

وهنا ينبغي الالتفات إلى حقيقةٍ جديرةٍ بالعناية والاهتمام، وهي أنّ الهدف الباطني من وراء الصيام في شهر رمضان هو الوصول إلى إحياء ليلة القدر، والهدف من إحياء ليلة القدر هو لطلب التوفيق للوقوف في عرفة، فمن حُرِم الصيام وحُرِم ليلة القدر وحُرِم الوقوف في عرفة فقد حُرِم أعظم سُبل المغفرة.

ثالثاً: الضيافة الأخصّ

وهي الضيافة الإلهيّة الخاصّة بطلبة العلوم الدينيّة، والمتمثّلة بطلب العلوم الحقّة والوصول إلى مرتبة التفقّه في الدين، والمقصود من العلوم الحقَّة هي العلوم الإلهيّة العُليا المتعلّقة بالمعرفة الأسمائيّة لله تعالى، والذي يكون فيه طالب العلم عارفاً بالله تعالى، وما يتوقّف على ذلك من مقدّماتٍ معرفيّةٍ في العقيدة والشريعة والأخلاق التي تُشكِّل مقدّمةً أساسيّةً في الوصول إلى معرفة الله تعالى.

علاقة الأخلاق بالضيافة الإلهيّة

لا ريب أنّ الأخلاق هي مُثُلٌ عُليا تفرض علينا المتابعة والالتزام، وقد اتّضح في البيانات الآنفة ـ حول الضيافة الإلهيّة، التكوينيّة والمعنويّة، والمعنويّة بأقسامها العامّة والخاصّة والأخصّ ـ أنّها تُشكِّل مهامّ لا يصحّ التنصّل عنها، فضيافة الإيجاد تستدعي الشكر، كما أنّ الضيافة المعنويّة تستدعي التحصيل والرقيّ، وإلّا ففي التنصّل نكرانٌ للعطاء والجميل، وهذه المعاني ـ كما تبدو من حيث الظاهر فضلاً عن الباطن ـ تُشكِّل قيماً أخلاقيّةً عاليةً، ممّا يعني أنّ للضيافة الإلهيّة علاقةً وثيقةً بالأخلاق، وبذلك يكون التنكّر للضيافة الإلهيّة ـ كترك الصوم أو ترك الحجّ للمستطيع وترك طلب العلم والتفقّه في الدين ـ هو ضرباً صريحاً من التردِّي الأخلاقي، وعليه فإنّ

صيام الصائم رسالةٌ تتضمّن الوفاء بقيمةٍ أخلاقيّةٍ للضيافة الإلهيّة، وهكذا في الحجّ وطلب العلم، فتارك الحجّ فاقدٌ لقيمةٍ أخلاقيّةٍ عاليةٍ تتعلّق بالضيافة الإلهية، فضلاً عن كونه قد ارتكب إثماً صريحاً، وحيث إنّ هنالك طوليّةً وارتقاءً بين الضيافات المعنويّة الثلاث فإنّ فاقد القيمة الأخلاقيّة في تركه للحجّ هو أشدّ خسارةً من تارك القيمة الأخلاقيّة في ضيافة الصوم، كما أنّ تارك طلب العلم يكون هو الفاقد الأكبر للقيمة الأخلاقيّة الرفيعة التي تتضمّنها الضيافة الأخصّ في طلب العلم، والتي تعني تحديداً معرفة الله.

ضوابط ومقوّمات التحقّق بالضيافة الإلهيّة

هنالك عدّة ضوابط ومقوّماتٍ يمكن من خلالها معرفة كوننا قد حقّقنا هذه المستويات الثلاثة أم لا، أهمّها:

الضابط الأوّل: تحقيق الهدف الأساسي من وراء الضيافة، فالضيافة العامّة (الصوم) هدفها الأساسي هو التقوى، لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٣)، فمن لم يورثه صيامه التقوى فلا صيام له، كما أنّ الهدف الأساسي من وراء الحجّ ـ بإحرامه وطوافه وسعيه ومواقفه ورميه وحلقه وهديه ومبيته ـ هو التوحيد، لقوله تعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ...**﴾ (الحجّ: ٢٨)، فيشهدوا بأنّ جميع ما يصيبهم من المنافع والخيرات هي من الله تعالى وحده، فمَن بدرت منه علائم الشرك أو الشكّ أو الظنّ السيّئ بالله تعالى فقد أسقط حجّه المعنوي من معناه، كما أنّ الهدف الأساسي من طلب العلم هو معرفة الله تعالى، فمَن طلب العلم ولم يبلغ هذه الغاية فعلمه وبالٌ عليه.

الضابط الثاني: لابدّ أن تنعكس آثار التقوى (هدف الصوم) والتوحيد (هدف الحجّ) ومعرفة الله (هدف طلب العلم) على قوله وعمله، فيكون حاله بعد الضيافة الإلهيّة غير حاله قبلها، وأمّا إذا تساوى عنده الحالان فذلك دالٌّ على عدم التحقّق بالضيافة الإلهيّة.

الضابط الثالث: لابدّ أن تتجلّى آثار الضيافة على شعوره بالمسؤوليّة تجاه نفسه في الضيافة العامّة (الصوم)، وتجاه الناس في الضيافة الخاصّة (الحجّ)، وتجاه الله تعالى (طلب العلم)، فتشتدّ مسؤوليّته تجاه نفسه والناس والله تعالى، وإذا ما حصل قصورٌ في إحدى هذه المسؤوليّات فذلك كاشفٌ عن قصورٍ مسبقٍ في أداء الضيافة الإلهيّة.

الضابط الرابع: تجدّد الرغبة والشوق لأصناف الضيافة الإلهيّة، فإذا ولَّد الصوم في نفسه شوقاً للصوم نفسه فذلك كاشفٌ عن تحقيق الضيافة العامّة لأهدافها، وهكذا في الحجّ وطلب العلم، ومن هنا نفهم وجه التأكيد على أن يعقد الحاجّ بعد انتهاء أعماله نيّة العود في قلبه، فلا يخرج من مكّة بنيّة عدم العود، فذلك من قصور فهم الضيافة الإلهيّة الخاصّة، وأمّا إذا لم يولّد العلم حبّاً للعلم والعمل به فتلك انتكاسةٌ كبرى، وأمّا إذا ولّد العلم تكبّراً وغروراً فتلك الطامّة الكُبرى، وإيّاك ثمّ إيّاك أن ترى نفسك فوق الآخرين، أو خيراً منهم.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿...**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ (فاطر: ٢٨)، فالعلم الحقيقي بالله تعالى يُولِّد الخشية الحقيقيّة؛ لأنّه يُولّد شعوراً عظيماً وعميقاً بعظمة الله تعالى.
- ممّا جاء في خطبة رسول الله صلّى الله عليه وآله في استقبال شهر رمضان

الكريم قوله: «أيّها الناس، إنّه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهرٌ هو عند الله أفضل الشهور، وأيّامه أفضل الأيّام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات، هو شهرٌ دُعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيحٌ، ونومكم فيه عبادةٌ، وعملكم فيه مقبولٌ، ودعاؤكم فيه مستجابٌ، فاسألوا الله ربّكم بنيّاتٍ صادقةٍ وقلوبٍ طاهرةٍ أن يوفّقكم لصيامه وتلاوة كتابه».

خلاصة الدرس

- للضيافة أركانٌ ثلاثةٌ: ضيفٌ، ومضيفٌ، ومائدة الضيافة.
- الضيافة الإيجاديّة المادّيّة لا تكشف عن كرامة الضيف فيها، فالدنيا مسرحٌ للفضيلة والرذيلة.
- تنقسم الضيافة الإلهيّة بمعناها العامّ إلى ضيافةٍ تكوينيّةٍ ومعنويّةٍ.
- الضيافة التكوينيّة هي هبة الوجود للإنسان وسائر المخلوقات.
- الضيافة المعنويّة (الكماليّة أو التكميليّة) ضيافةٌ مختصّةٌ بالموجودات العاقلة، فهي تطلب كمالها المعرفي والمعنوي، وبه تتدرّج وترتقي.
- للضيافة الإلهيّة المعنويّة ثلاثة مستوياتٍ: عامّةٌ، وخاصّةٌ، وأخصّ.
- الضيافة العامّة هي ضيافة شهر رمضان المبارك للصائمين فيه.
- مراتب الصوم ثلاثٌ: مرتبة العوامّ، والخواصّ، وخواصّ الخواصّ.
- الضيافة الخاصّة تكون للحجّاج في شهر الحجّ.
- الهدف الباطني من وراء الصيام هو الوصول إلى إحياء ليلة القدر، والهدف من إحياء ليلة القدر هو طلب التوفيق للوقوف في عرفة.
- الضيافة الإلهيّة الأخصّ ضيافةٌ خاصّةٌ بطلبة العلوم الدينيّة.

- للضيافة الإلهيّة المعنويّة ـ بأقسامها الثلاثة ـ علاقةٌ وثيقةٌ بالأخلاق.
- هنالك أربعة ضوابط هي من أهمّ ضوابط معرفة كوننا قد حقّقنا مستويات الضيافة المعنويّة.
- للضيافة العامّة (الصوم) هدفٌ أساسيٌّ هو التقوى، وللحجّ هدفٌ أساسيٌّ هو التوحيد، ولطلب العلم هدفٌ أساسيّ هو معرفة الله تعالى.
- لابدّ أن تتجلّى آثار الضيافة على الشعور بالمسؤوليّة، تجاه أنفسنا ومجتمعنا وربّنا.

مذاكرة

- ما هي أركان الضيافة؟
- ما هي أقسام الضيافة الإلهية بمعناها العامّ؟
- بمن تختصّ الضيافة المعنويّة (الكماليّة أو التكميليّة)؟
- ما هي مستويات الضيافة الإلهيّة المعنويّة؟
- مَن هو الإنسان حقّاً؟ والمؤمن حقّاً؟
- ما هي مراتب الصوم؟
- ما هو الهدف الباطني من وراء الصيام، ومن وراء إحياء ليلة القدر؟
- بمن تختصّ الضيافة المعنويّة الأخصّ؟
- هل للضيافة الإلهيّة المعنويّة ـ بأقسامها الثلاثة ـ علاقةٌ وثيقةٌ بالأخلاق؟
- ما هي أهمّ ضوابط معرفة كوننا قد حقّقنا مستويات الضيافة المعنويّة؟
- ما هو هدف الضيافة العامّة (الصوم)، وهدف الضيافة الخاصّة (الحجّ)، وهدف الضيافة الأخصّ (طلب العلم)؟
- ما هي علاقة الضيافة المعنويّة بالشعور بالمسؤوليّة؟

الدرس الحادي عشر

الاستعدادات الأوّليّة للأخلاق الإلهيّة

- أهداف الدرس
- تمهيد
- معنى الاستعدادات الأوّليّة
- واقعيّة الاستعدادت الأوّليّة في كلّ إنسانٍ
- علاقة الاستعدادات الأوّليّة بالأخلاق الإلهيّة
- كيفيّة استغلال الاستعدادات الأوّليّة
- كيفيّة تفعيل الاستعدادات الضامرة
- المعاصي محرقة الاستعدادات العامّة والخاصّة
- بيان كون الاستفادة الإيجابيّة من الاستعداد تنميةً له
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- معنى الاستعدادات الأوّليّة والاستعدادات الضامرة.
- واقعيّة الاستعدادات الأوّليّة.
- علاقة الاستعدادات الأوّليّة بالأخلاق الإلهيّة.
- كيفيّة استغلال الاستعدادات الأوّليّة والاستعدادات الضامرة.
- كون المعاصي هي محرقة الاستعدادات الأوّليّة والضامرة.
- كون الاستفادة الإيجابيّة من الاستعداد تنميةً له.

تمهيد

الإنسان كائنٌ تكمن فيه أسرارٌ كثيرةٌ وعظيمةٌ، وكثيراً ما يجهل الإنسان طبيعة استعداداته، كما أنّه عادةً ما يجهل حدود استعداداته، ممّا يترتّب على ذلك الجهلُ بكيفيّة استغلال استعداداته المنظورة، والجهل بكيفيّة تفعيل الاستعدادات الضامرة، وكلّ ذلك سينعكس بطبيعة الحال على ما ينبغي الاتّصاف به من الأخلاق الإلهيّة، وفي صورة غياب أو ضمور الأخلاق الإلهيّة فإنّه سيكون نهباً للمعاصي، أو قل بأنّ استعداداته ستكون محرقةً لتلك المعاصي، وعندئذٍ سيستنفد الإنسان قدراته وتُشَلّ حركته، وهذا ما يُسمّى بالإدمان على المعاصي، ممّا يتطلّب منّا الوقاية والحذر من الوقوع في تلك المحرقة، ولا سبيل لنا سوى التعرّف على استعداداتنا والتخلّق بأخلاق الله تعالى، فذلك ضمانةٌ أكيدةٌ لحفظ الاستعداد من الهدر، بل ضمانةٌ لتنمية الاستعدادات، فلا يكون الاستعداد مستنفداً، وإنّما مُولِّداً لاستعدادٍ

آخر، وهذا ما نُريد التعرُّف عليه بما يتناسب مع حدود هذا الدرس.

معنى الاستعدادات الأوّليّة

إنّ جميع القوى الكامنة في الإنسان ـ المادّيّة والروحيّة ـ إنّما تعبّر عن استعداداته الأوّليّة، فالعضلات البدنيّة تملك استعداداتٍ وطاقاتٍ كثيرةً لتسخيرها في إنجاز الأعمال المادّيّة، وهكذا في النفس المجرّدة فإنّها تمتلك استعداداتٍ وطاقاتٍ من نوعٍ آخر لتسخيرها في إنجاز أعمالها، من رغبةٍ وشهوةٍ وحبٍّ وبُغضٍ وغير ذلك، وهنا يفترق الإنسان المبصر عن الغافل في رصد استعداداته وكيفيّة الاستفادة منها، فالإنسان الغافل غالباً ما يكون تفكيره في حدود المادّيّات، فيُسخّر جميع طاقاته واستعداداته فيما تطلبه النفس الشهوانيّة والأمّارة بالسوء، وأمّا الإنسان المُبصر فإنّه لا يستجيب لحاجاته المادّيّة إلّا بالقدر الذي يحفظ له بدنه من التلف، وهو النصيب المباح له في الدنيا، بلا إسرافٍ، فلا يتعدّى بنصيبه على أهدافه الأخرويّة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾ (القصص: ٧٧)، فتكون الآخرة هي المقصد الأوّل والحقيقي، وأمّا ما نحتاج إليه في الدنيا فلابدّ أن يكون مسخّراً للمقصد الأخروي.

واقعيّة الاستعدادات الأوّليّة في كلّ إنسانٍ

لا يوجد إنسانٌ خالٍ من الاستعدادات أبداً، حتّى العجزة والمرضى وفاقدو الحواسّ، فإنّهم يمتلكون من الاستعدادات ما تمكّنهم من الوصول إلى المقصد الأخروي، فالاستعدادات ليست نظريّةً تبحث عن إثباتٍ، وإنّما هي حقيقةٌ واقعيّةٌ يعيشها كلّ إنسانٍ موجودٍ على الأرض، فالإنسان العاجز أو المريض قد يرى نفسه بأنّه غير قادرٍ على الدفاع عن نفسه؛ لعجزه ومرضه،

ولكنّه ما إن يشعر بدنوّ الخطر الحقيقي منه إلّا وتجده يتحرَّك بصورةٍ غير معهودةٍ، فتتحرّك فيه طاقاتٌ وقوىً لم يكن ملتفتاً لها، وهذه الطاقات إمّا أن تكون حاضرةً ولكنّ الإنسان بطبيعته الكسولة لا يلتفت لها، وإمّا أن تكون ضامرةً فلا تتحرّك إلّا بوجود محفّزاتٍ خاصّةٍ، وعلى كلا الأمرين فالإنسان يمتلك استعداداتٍ كثيرةً تساعده على تحقيق أهدافه، فلا يوجد عاجزٌ أبداً في دائرة تحصيل الكمالات المعنويّة.

علاقة الاستعدادات الأوّليّة بالأخلاق الإلهيّة

لا يمكن بأيِّ حالٍ من الأحوال أن يتخلّق الإنسان بالأخلاق الإلهيّة من دون تحرير طاقاته واستعداداته، وبالتالي فالإنسان الواقعي لا ينتظر حراكاً غيبيّاً باتّجاهه للرقيّ في الكمالات، فالأمر بالدرجة الأساس موقوفٌ عليه، وهذا ما يدعونا إلى الاعتناء باستعداداتنا وعدم التفريط بها، بل وعدم إنفاقها في الأمور العبثيّة التي لا يجني الإنسان منها غير وهم اللذّة واحتراق وقوده وطاقته.

ومنه يتّضح: أنّ كثيراً من الأخلاق الإلهيّة التي يجد الإنسان نفسه عاجزاً عن الاتّصاف بها، سبب ذلك العجز هو احتراق طاقته ونفودها، أو قل: صرفها في أمورٍ عبثيّةٍ، فالملذّات وإن كانت مباحةً ـ فضلاً عن غير المباحة ـ تستنزف طاقاته، وكلّ عملٍ لا يرتقي الإنسان به فهو عبثيٌّ وإن كان مباحاً، ولذلك تجد الحكماء قليلي الطعام والشراب، وقليلي الكلام، ولكنّهم كثيرو التفكّر، وكثيرو العمل، فمَن عاش في وهم اللذّة واستنفد طاقاته فيها ـ مباحةً أو غير مباحةٍ ـ فإنّه عادةً ما يكون بعيداً عن التخلّق بأخلاق الله تعالى، والعكس بالعكس.

كيفيّة استغلال الاستعدادات الأوّليّة

إنّ الرصيد الفعلي الذي بواسطته ينجز الإنسان أعماله ومتطلّباته هو نفس استعداداته الأوّليّة، ونظراً لكون متطلّبات الإنسان كثيرةً ومتناقضةً، وأنّ هنالك صراعاً واقعيّاً بين الدواعي الدنيويّة والدواعي الأخرويّة، وأنّ الإنسان السويّ لا يمكنه أن يتنصّل عن هذه الدواعي، لاسيّما الدنيويّة التي يجد فيها مقاصده القريبة، فذلك كلّه يدعو للتفكّر والتأمّل في نسج برنامجٍ يعتمد على نظام الأولويّات، فلا ريب أنّ الإنسان المؤمن يقدّم متطلّباته الأخرويّة على الدنيويّة، ولكنَّ هذا التقديم يمثّل استراتيجيّةً عامّةً، وليس قاعدةً تنضوي تحتها جميع التطبيقات، ولذلك كانت الأولويّة الأولى هي لحاظ المتطلّبات الأخرويّة، ثمّ ينتقل إلى المتطلّبات الدنيويّة مشروطةً بعدم تقاطعها مع الأولويّة الأولى، وبالتالي لابدّ أن تسخّر الاستعدادات الأوّليّة والطاقات الكامنة ضمن هذه الخطّة الأوّليّة واليسيرة، وهذا ما يُمكن تسميته ـ بحسب الاصطلاح الأخلاقي ـ بالمشارطة.

ثمّ نجعل رقيباً على نظم عمليّة تسخير الاستعدادات، وهو ما يُسمّى في علم الأخلاق بالمراقبة، وهي عمليّةٌ وقائيّةٌ عظيمةٌ، فنراقب سلوكنا بشكلٍ تفصيليٍّ، فإن كان السلوك أخرويّاً أو كان دنيويّاً لا يتقاطع مع المتطلّبات الأخرويّة، جرى الإمضاء له، وإلّا فلا.

وهكذا يمكننا استغلال استعداداتنا الأوّليّة بصورةٍ مثلى ونموذجيّةٍ، وحيث إنّ هذا النظام أو برنامج نظم الأولويّات قابلٌ للاختراق ووقوع الهفوات والزلّات، فالإنسان قد يُغلب على أمره فيقع فريسةً لرغبةٍ جامحةٍ أو شهوةٍ ماردةٍ، وعندئذٍ لابدّ من عمليّةٍ علاجيّةٍ، وهنا تدخل الفقرة الأخيرة من

السلسلة الأخلاقيّة الثلاثيّة، وهي فقرة المحاسبة، ولابدّ أن تكون المحاسبة واقعيّةً وجدّيّةً وموضوعيّةً أيضاً، فلا ينسب لنفسه سيّئةً لم يفعلها، ولا يُنزّه نفسه عن سيّئةٍ أتى بها، وهذا هو مقتضى الواقعيّة، ولا يستخفّ بسلوكٍ غير سويٍّ، وهذا هو مقتضى الجدّيّة، ولا يُبالغ في العقوبة، وهذا هو مقتضى الموضوعيّة، فإذا تمكّن الإنسان من تطبيق نظام الأولويّات وتطبيق السلسلة الأخلاقيّة فإنّه سيكون قد نجح نجاحاً باهراً في استغلال استعداداته الأوّليّة بشكلٍ نموذجيٍّ.

وهنا ينبغي التنبيه إلى مسألةٍ مهمّةٍ وواقعيّةٍ، وهي أنّ الإنسان بطبعه سريع الاستسلام للنكوص والتراجع المعنويّ، أو قل بأنّه سريع الشعور بالإحباط النفسي واليأس من الإصلاح، وهذا الحال تقف خلفه ثلاثة أمورٍ، وهي: ضعف الثقة بالنفس، وضعف الثقة بالله تعالى، والانخداع بوسوسة الشيطان، ولذلك عليه الصبر والثبات، فهو في صراعٍ وجهادٍ نفسيٍّ عظيمٍ، وأيّ انكسارٍ وتقهقرٍ ربّما تكون عاقبته وخيمةً، فمثل هذا التراجع قد يخلق في النفس شعوراً عميقاً بعدم الفائدة في عمليّة الإصلاح، ولذلك لابدّ أن نفهم أوّلاً بأنّنا سنواجه مشكلاتٍ خطيرةً، وأنّ الشيطان سيقف لنا بالمرصاد، كما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ (الأعراف: ١٦)، أي: لأقعدنَّ على الطريق الموصل إليك، فأمنع السائرين عليه من الوصول، ومن الواضح أنّ من أشدّ أسلحة الشيطان البغيض: زرع حالة الإحباط واليأس، لاسيّما إذا كان للإنسان التائب ماضٍ أسود مملوءٌ بالخطايا والمعاصي، فيخلق الشيطان في نفس الإنسان شعوراً مزدوجاً، الأوّل: اليأس من الإصلاح، والثاني ـ وهو أبغض وأسوأ من الأوّل ـ: الشعور بالحنين للماضي البغيض.

إذن، لابدّ من الالتفات إلى أنّ الإصلاح والسير على الجادّة بحاجةٍ إلى

استغلال الاستعدادات بصورةٍ نموذجيّةٍ، وأنّ مسيرة الإصلاح محفوفةٌ بالإغواء والمخاطر، وأنّ مسيرته الإصلاحيّة ليست نزهةً أبداً، وهنا يحتاج الإنسان إلى أن يُعمّق شعوره بأنّ نفسه خيِّرةٌ وليست شرّيرةً، فهو بمجرّد حصول السعي منه للإصلاح وترك الماضي الملوّث فإنّه يكون قد أثبت سلامة معدنه، وهذا الشعور الإيجابي سيساعده كثيراً في مواجهة الشعور بضعف الثقة بالنفس، كما أنّ اللجوء إلى الله تعالى وحصر الاستعانة به سيُعزّز في نفسه الثقة بالله تعالى، فيُقابل بذلك شعوره بضعف الثقة بالله تعالى، كما أنّ الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم طريقٌ أمثل وواقعيٌّ في مواجهة الوسوسة الشيطانيّة، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصّلت: ٣٦)، أي: إن يصرفك الشيطان بنزغه ووسوسته عمَّا أُمرتَ به ـ بإشغالك وتيئيسك ـ فاستعذ بالله، فإنّ الاستعاذة دافعةٌ له عنك، فالله تعالى سميعٌ للقول، وعليمٌ بالفعل.

كيفيّة تفعيل الاستعدادات الضامرة

ينطوي الإنسان على أسرارٍ كثيرةٍ وعميقةٍ، سواءٌ ما تعلّق منها بجزئه المادّي أو بجزئه الروحي المجرّد، ومن تلك الأسرار: عدم نفوذ استعدادات الإنسان، ولكنّ الإنسان كسولٌ بطبعه، فيظنّ أنّ ما هو عليه هو غايةٌ يُمكن أن يصل إليه، ولو وقف على حقيقة كوامنه لانفتح على عوالم الكمال، وانفتقت قريحته على التواصل.

ولأجل تقريب هذا المعنى، والتصديق بوجود قوىً عظيمةٍ كامنةٍ في النفس الإنسانيّة يُمكن أن نطلق عليها بالاستعدادات الضامرة، فإنّنا نعرض على أنفسنا سؤالاً مشتركاً، وجوابه ـ بحسب الاستقراء ـ واحدٌ

أيضاً، وهو: كيف نجد أنفسنا في مواقف الشدّة؟ كما لو شعر واحدٌ منّا بالخوف الشديد من شيءٍ ما، فهل نبقى على ما نحن عليه آنفاً من الالتفات واليقظة، أم أنّنا سنزداد يقظةً والتفاتاً؟ ولو شعرت أنّ بقربك لصّاً متمرّساً فهل تبقى على حالك السابق، أم يشتدّ احتياطك؟

لا شكّ أنّنا جميعاً سيشتدّ احتياطنا ويقظتنا والتفاتنا.

والسؤال: هل هذا التغيّر في الحال يحتاج منّا إلى طاقةٍ جديدةٍ، أم يكفي ما كنّا عليه؟

لا شكّ بأنّه يحتاج إلى طاقةٍ جديدةٍ.

والسؤال أيضاً: هل هذه الطاقة تأتينا من الخارج، أم داخل أنفسنا؟

لا شكّ بأنّها من داخل أنفسنا.

وما هذا إلّا شيءٌ يسيرٌ من القوى الكامنة والاستعدادات الضامرة، حيث تحتاج إلى محفّزٍ، وهذه الطاقات كما تُستخدم في الخير فإنّها تستخدم في الشرّ أيضاً، ولذلك لابدّ علينا من الحرص الشديد على ترشيد استعمال هذه الطاقات الضامرة في مواضعها الصحيحة، وتفعيلها في سلّم تحصيل الكمالات، لا أن نتركها للظروف الطارئة، علماً بأنّها غير قابلةٍ للنضوب أبداً، فلا تنتهي إلّا بموت الإنسان، بمعنى أنّنا نمتلك وقوداً لا ينضب أبداً ما دمنا في هذه الحياة، فإنّ الله تعالى من عدله وفضله عندما طلب منّا التكامل في عالم الدنيا لابدّ أن يكون قد منحنا من القدرات والاستعدادات الكفيلة بإيصالنا إلى المقام المطلوب، وإذا كان للحديث النبويّ المشهور: «**كلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤولٌ عن رعيّته**»[1] تطبيقاتٌ كثيرةٌ فإنّ منها أن نكون

---

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق: ج١ ص٢١٥.

مسؤولين عن استعداداتنا الأوّليّة والضامرة، فهل سخّرناها في طريق الكمال، أم أحرقناها في محرقة الخطايا والمعاصي؟

المعاصي محرقة الاستعدادات العامّة والخاصّة

لا شيء أخطر على نفود الاستعداد من الذنوب والمعاصي، فهي محرقةٌ حقيقيّةٌ لمطلق الاستعدادات، العامّة والخاصّة، الأوّليّة والضامرة، فالمعصية لا تحفظ خيراً في النفس، فضلاً عن كونها لا تنمّيه، ولذلك فالإنسان في معاصيه يكون ساعياً في إهلاك قواه واستعداداته، وهذا الإهلاك وتلك المحرقة سوف تترك آثاراً عميقةً على حاضر الإنسان ومستقبله؛ حيث سيجد نفسه عندما يعلن عن توبته في الدنيا قد فاته ما لا يُمكن دركه، من قوّةٍ وصحّةٍ وأيّامٍ وسنواتٍ فانيةٍ، فضلاً عن الحسرة العظيمة التي ستحرق أحشاءه وهو مقبلٌ على عالم البرزخ، حيث يُنادي الإنسان إذا جاءه الموت: ﴿...رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٩ـ١٠٠)، ولكنّها أمنياتٌ زائفةٌ لا يُمكن أن تتحقّق أبداً، وهذا النداء سيقوله الإنسان وهو في الدنيا يوم يفقد قواه، فلا يجد في نفسه قدرةً على التعويض، فيتمنّى أن يعود لساعةٍ واحدةٍ من ساعات شبابه[1]، وهذا ما يُفسِّر لنا وجه السؤال عن فترة الشباب في

---

(١) وقد قيل في ذلك على لسان أحد الشعراء:

عريت عن الشباب وكنت غضّاً ... كما يعرى عن الورق القضيبُ

ونُحت على الشباب بدمع عيني ... فما نفَع البكاءُ ولا النحيبُ

ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيبُ

انظر: ديوان أبي العتاهية: ص٢٣.

الحديث النبويّ المشهور: «**لا تزول قدما عبدٍ يومَ القيامة حتّى يُسأل عن أربعٍ: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه...**»[(١)]، والسؤال عن فترة الشباب إنّما لخصوصيّة وفرة الطاقة والقوّة وحيويّة ومرونة الاستعداد.

جديرٌ بالذكر أنّ تلك المحرقة والخسارة الكبيرة ستُلحق بصاحبها ضائقةً نفسيّةً خطيرةً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ (طه: ١٢٤)، والمعيشة الضنك هي المحرقة الكبرى لما بقي من استعدادات، فتذوب أزهار عمره في اللاشيء، فلا يرى أثراً لفعله، وثمرةً لزرعه غير الأسى والعذاب.

بيان كون الاستفادة الإيجابيّة من الاستعداد تنميةً له

إنّ من الآثار الوضعيّة لتسخير الاستعدادات في المعاصي: احتراقها ونفودها وانطفاءها، وفي قبال ذلك هنالك آثارٌ وضعيّةٌ في غاية الإيجابيّة، وهي الآثار المحافظة والمُنمّية للاستعدادات، فالاستعدادات المُستنفدة في العمل الصالح أو في تحصيل الكمالات المعنويّة هي في الحقيقة استعداداتٌ غير مستنفدةٍ؛ لأنّها تُقابَل بثمرةٍ عظيمةٍ، أو قل بأنّها تُدفع في قبال الرفعة والرقيّ، فلا يكون ذلك نفاداً لها، وإنّما هو حفظٌ ووقايةٌ وزكاةٌ ونموٌّ، ولذلك فإنّ ما يُمكن أن نستفيده على مستوى التطبيق من قوله تعالى: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا**

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ص٩٣، الحديث رقم (١٠). أيضاً:

ـ سنن الترمذي، لمحمّد بن عيسى الترمذي: ج٤ ص٣٥، الحديث رقم (٢٥٣١)، تحقيق: عبد الوهّاب عبد اللطيف، نشر دار الفكر، ١٤٠٣هـ، بيروت.

ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، مصدر سابق: ج٢ ص٦٢٩، الحديث رقم (٩٤٦).

يُظْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ١٦٠)، هو مصداقٌ آخر غير المصداق المنظور له في عالم الآخرة، فالإنسان الجائي بالحسنة يُجزى بعشر أمثالها في الدنيا قبل الآخرة، وهذا الجزاء عادةً ما يُفسَّر بما يُسمّى بالبركة في ماله وعمره وعمله، وما هذا إلّا تعبيرٌ آخر عن وفرة الاستعداد لكلّ ذلك.

وعليه فلابدّ من الاستفادة الإيجابيّة من الاستعداد، ففي ذلك حفظٌ لها من جهةٍ، وتنميةٌ لها من جهةٍ أُخرى، فضلاً عن كون الاستفادة الإيجابيّة تورث الراحة والطمأنينة والاستقرار النفسي، بخلاف الاستفادة السلبيّة فإنّها ـ كما تقدّم ـ لا تورث غير المعيشة الضنك، فالحذر الحذر.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)، فلابدّ من العمل، والعمل مرئيٌّ لا يُمكن ستره، وسيأتي موقفٌ يرى الإنسان فيه حقيقة عمله.
- كلّ ساعةٍ من العمر لا ترتقي بها فهي في محرقةٍ، ولا عوض لها، تذهب ولا تعود، ونعم ما قيل في ذلك:

وإذا الفتى في البؤس أنفق عمره   فمَن الكفيل له بعمرٍ ثان؟[1]

خلاصة الدرس

- جميع القوى الكامنة في الإنسان تعبّر عن استعداداته الأوّليّة.
- الإنسان المُبصر يستجيب لحاجاته المادّية بقدر ما يحفظه من التلف.

---

(١) معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي: ج١ ص٤١٥، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٩م، بيروت.

- الاستعدادات ليست نظريّةً تبحث عن إثباتٍ، وإنّما هي حقيقةٌ واقعيّةٌ يعيشها كلّ إنسانٍ.
- كلّ عملٍ لا يرتقي الإنسان به فهو عبثيٌّ وإن كان مباحاً.
- الأولويّة للمتطلّبات الأخرويّة، ثمّ المتطلّبات الدنيويّة مشروطةٌ بعدم تقاطعها مع الأولويّة الأولى.
- برنامج نظم الأولويّات قابلٌ للاختراق ووقوع الهفوات، وعندئذٍ لابدّ من عمليّةٍ علاجيّةٍ تكمن في فقرة المحاسبة.
- أسباب الاستسلام للنكوص والتراجع المعنوي: هي ضعف الثقة بالنفس، وضعف الثقة بالله تعالى، والانخداع بوسوسة الشيطان.
- لا شيء أخطر من قتل الاستعداد بالمعاصي، فهي محرقةٌ حقيقيّةٌ لمطلق الاستعدادات، كما أنّها لا تورث غير المعيشة الضنك.
- الاستعداد المُستنفد في العمل الصالح هو استعدادٌ غير مستنفدٍ في الحقيقة؛ لأنّه يُقابَل بثمرةٍ عظيمةٍ.

مذاكرة

- ما هي الاستعدادات الأوّليّة والضامرة؟
- هل تحتاج الاستعدادات إلى إثباتٍ؟
- لأيّ شيءٍ تكون الأولويّة في تحقيق المتطلّبات؟
- ما هي العمليّة العلاجيّة عند وقوع الاختراق في نظم الأولويّات؟
- ما هي أسباب الاستسلام للنكوص والتراجع المعنوي؟
- ما هو أخطر شيءٍ على الاستعداد؟
- لماذا الاستعداد المُستنفد في العمل الصالح ليس مستنفداً؟

الدرس الثاني عشر

مسالك تهذيب النفس

(القسم الأوّل)

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- المراد من مسلك التهذيب.
- أقسام مسالك التهذيب وخصوصيّاتها.
- المسلك الأوّل: تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيويّة.
- واقعيّة المسلك الأوّل، وكون الإسلام لم يهمل ظاهر العمل، وإنّما قد أوجد للظاهر قوانين مُحكمةً.
- المسلك الثاني: تهذيب الأخلاق من خلال الغايات الأخرويّة.
- كون المسلك الثاني لا يُمكن مقايسته بالمسلك الأوّل، ولكنّه لا يبتعد عنه في واقعيّة التجارة والربح.
- مدى انسجام المسلك الثاني مع طباع الإنسان.

تمهيد

البحث في الوسائل العلاجيّة لطهارة النفس يمثّل حاجةً مُلحّةً، ولذلك أخذ البحث في مسالك التهذيب مساحاتٍ جيّدةً في كتب الأخلاق والعرفان، وقد تكون المسالك فوق مستوى العدّ والحصر؛ حيث قيل في ذلك بأنّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، ولكنّنا لا نريد من المسالك هذا المعنى، وإنّما نريد المعنى الاصطلاحي لمسالك التهذيب، وهذا ما نريد بحثه في هذا الدرس، مع بيان مسلكَي تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيويّة، وبالغايات الأخرويّة، وبيان الفرق بينهما، وبيان الدعم القرآني والروائي للمسلك الثاني دون الأوّل، وأمّا البحث في المسالك الأخرى

فسنتركه للدرس التالي.

المراد من مسلك التهذيب

مسلك التهذيب هو الطريقة المعتمدة في تطهير النفس وتزكيتها من الذنوب وتبعات الماضي، ولكلّ مسلكٍ خصوصيّاتٌ وضوابط تفصله عن المسلك الآخر، وإن اجتمعا على نفس الهدف، كما أنّ لكلّ مسلكٍ حدوداً يتحرّك فيها، فالمسلك المعيّن أشبه بالمصباح لا يُضيء إلّا في حدود إشعاعه.

أقسام مسالك التهذيب

ذكر الأعلام أنّ هناك مسالك ثلاثةً لتهذيب الأخلاق الإنسانيّة، وهي:

المسلك الأوّل: تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيويّة.

المسلك الثاني: تهذيب الأخلاق من خلال الغايات الأخرويّة.

المسلك الثالث: الحبّ الإلهيّ.

وهذه الأقسام الثلاثة وإن كانت تختلف في المنهج والأسلوب، ولكنّها تهدف إلى تحقيق القدر المتيقَّن منها، وهو تزكية النفس والعمل على خلاصها من اقتراف المعاصي وإدمانها، بقطع النظر عن الغاية القصوى التي تهدف إليها بعض المسالك، وهذا القدر المُتيقَّن هو من أعظم وأجلّ أهداف الرسالات السماويّة، بل هو من أولويّاتها، لاسيّما الرسالة المحمّديّة.

المسلك الأوّل: تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيويّة

هذا المسلك أيسر المسالك، ولكنّه أقلّها كمالاً ورُقيّاً؛ حيث يبتني هذا المسلك على حثّ الإنسان وإيجاد الداعي فيه إلى القيام بالأعمال الحسنة، وإلى إصلاح نفسه من خلال الجزاء والمصالح الدنيويّة من جاهٍ أو مالٍ أو ثناءٍ أو ذكرٍ

حسنٍ، وعلى تحذيره من القيام بالأعمال السيّئة وذمّها من خلال بيان المساوئ والمضارّ الدنيويّة المترتّبة عليها، فيصدق ولا يكذب، ويُكرم ولا يبخل، ويتأنّى ولا يعجل، ويتواضع ولا يتكبّر، لكي يُحقّق مكانةً في مجتمعه، ويكتسب سمعةً طيّبةً تمكّنه من النفوذ في المجتمع، فيكون في مكانٍ محمودٍ عندهم، ومن الواضح أنّ هذا المكسب أو الجزاء يتّصف بخصوصيّتين، هما:

الأولى: أنّه جزاءٌ دنيويٌّ، مهما طال به الزمن، فهو منقطع الآخر وإلى زوالٍ، فضلاً عن كونه يشتمل على زيفٍ ونقصٍ وقصورٍ، ولكنَّ الإنسان لشدّة ولهه لا يلتفت إلى ذلك إلّا بعد انطفاء رغبته وشهوته[1].

الثانية: أنّه جزاءٌ اعتباريٌّ لا حقيقيٌّ، فالثناء الجميل والذكر الحسن والسمعة الطيّبة وما شاكل ذلك، كلّها أمورٌ اعتباريّةٌ تساعد في تنظيم الحياة الاجتماعيّة بحسب الفهم والسلوك العرفي ليس إلّا، فلا يكون الصدق مطلوباً كقيمةٍ عُليا، ولذلك من الممكن جدّاً أن ينحرف الإنسان أو أن يتنازل عن هذه القيم إذا تصادمت مع مصالحه، فالهدف ليس القيم بما هي، وليس إصلاح النفس وتهذيبها، وإنّما هو إيجاد السمعة الطيّبة وتحصيل الثناء والمدح، أو قل: طلب المقبوليّة والمحبوبيّة في قلوب الناس، فيكون ذلك شبيهاً بحالات الرياء، حيث لا يكون العمل الصالح مطلوباً لصلاحه وإنّما لجذب القلوب إليه، فالغاية وصوليّةٌ وليست ساميةً، كما هو واضح، ولذلك فإنّ: «هذا المسلك هو المأثور من بحث الأقدمين من يونانٍ وغيرهم فيه ـ أي: في علم الأخلاق ـ ولم يستعمل القرآن هذا المسلك الذي بناؤه على

---

(١) ولنعم ما قاله شاعر الحكمة أبو الطيّب المتنبّي:

لو فكّر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه

انتخاب الممدوح عند عامّة الناس عن المذموم، والأخذ بما يستحسنه الاجتماع وترك ما يستقبحه»[١]، والسرّ في ذلك هو أنّ القرآن الكريم لا يمكن أن يدعو الناس إلى هذا الأمر على أساسٍ دنيويٍّ وجزاءٍ زائلٍ اعتباريٍّ، فضلاً عن كون مثل هذا الأساس إنّما يصلح ظاهر العمل لا باطنه، فإنّ الثناء الجميل والذكر الحسن إنّما يتوقّفان على ظاهر العمل لا باطنه.

جديرٌ بالذكر أنّ الإسلام لم يهمل ظاهر العمل، كما قد يتبادر إلى ذهن البعض، وإنّما قد أوجد للظاهر قوانين مُحكمةً ودقيقةً، ثمّ وجّه الإنسان بعد ذلك إلى اتّخاذ هذا الظاهر مَعبَراً إلى الحقيقة وإلى بواطن الأعمال.

واقعيّة تهذيب الأخلاق بالغايات الدنيويّة

لو تأمّلنا في سلوكيّاتنا، وتعاطينا بموضوعيّةٍ في رصد أخلاقيّاتنا فإنّنا سنجد الكثير منّا يقوم بجملةٍ من أعماله ـ عن غفلةٍ أو عن عمدٍ ـ لأجل هذا الجزاء الدنيوي، والدليل على ذلك هو الانقطاع عن هذه الأعمال الصالحة فيما إذا لم يتحقّق له المطلوب الدنيوي، من الثناء الجميل والمدح لشخصه، فلا يخرج عن هذه القاعدة إلّا القليل من الناس، ولو كان العمل الصالح مطلوباً بما هو قيمةٌ أخلاقيّةٌ، وبما هو عملٌ يُراد به وجه الله تعالى فإنّ الداعي له غير قابلٍ للزوال، وهذا هو فعل مَن زكت نفسه واستغنت عن الغايات الدنيويّة، كما جاء في سيرة أهل البيت عليهم السلام في إطعامهم المسكين واليتيم والأسير لوجهه تعالى، وقد حكى القرآن الكريم ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً**﴾ (الدهر: ٩).

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١ ص٣٥٥.

وهنا ينبغي الانتباه كثيراً إلى واقعيّة مطلوبيّة العلوم الدينيّة، فهل نطلبها لأجل الله تعالى ورفعةً للدين وإخراج الناس من الظلمات والجهل، أم إنّنا نطلب ذلك لأجل السمعة؟[١] فكلّنا يدّعي حبّ الإسلام والقرآن والنبيّ صلّى الله عليه وآله وعترته الطاهرة، ولكن ما هي الجهة الواقعيّة المقصودة في عملنا؟

وهنا يرى الشيخ مرتضى المطهّري: أنّ كثيراً من الناس يحبّ أن يخدم الإسلام ولكن بشرط أن يكون هو حجّة الإسلام، فلو قال غيره: هذا الإسلام الذي يقوله هو، لا يقبله[٢]، أي: لابد أن يكون هو القناة الموصلة

---

(١) قد ضرب السيّد الأستاذ دام ظلّه مثالاً واقعيّاً وتقريبيّاً لذلك في كتابه «مقدّمةٌ في علم الأخلاق» ، حيث يقول هنالك: «ولأضرب لذلك مثالاً عن نفسي، فلو درّس أحدٌ درس الأخلاق في نفس هذا المكان، وكان من حيث المستوى والإمكانيّة العلميّة بنفس الدرجة التي أنا عليها ـ لكي لا أجد في ضعفه مبرّراً لعدم ارتياحي ـ أقول: لو جاء مثل هذا الأستاذ وذهب أكثر طلّابنا إليه وحضروا درسه، ولم يبقَ معي إلّا ثلاثةٌ أو أربعة طلّابٍ، فهل أتأذّى وأشعر بعدم الراحة أم لا؟ لا أدري، فإذا كان الأمر مرتبطاً بتكليفٍ إلهيٍّ وبخدمة الناس، فإنّ هؤلاء قد استبدلوا بي شخصاً آخر مثلي، وجزاهم الله خيراً؛ إذ رفعوا المسؤوليّة عن عنقي مع حصولي على الثواب و(**نيّة المرء خيرٌ من عمله**)، فهل ينبغي لي أن أتأذّى أم أفرح؟ ومَنْ منّا يفرح؟ فهل نحن نعمل لمعارف أهل البيت عليهم السلام حقّاً أم لأجل السمعة؟ امتحن نفسك، وقف عندها طويلاً، ولا تذهب إلى مكانٍ بعيدٍ، فإنّ الكثير منّا مبتلٍ بهذا وقد لا يلتفت إليه». (مقدّمةٌ في علم الأخلاق، مصدر سابق: ص١٠٢ فما بعد). والحديث الوارد في كلمته مرويٌّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله. (أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٨٤ ح٢).

(٢) انظر: التربية الروحيّة (بحوثٌ في جهاد النفس)، للسيّد المرجع الديني كمال الحيدري: ص٩٠، مؤسّسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، الطبعة العشرون، ٢٠١٢م، قم المقدّسة.

للإسلام إلى الآخرين، بمعنى أنّه يرى الحقّ فيه لا في الإسلام نفسه، فلو حمل آخر صوت الإسلام ورسالته لكان من المانعين له! وما ذلك إلّا لحاكميّة الأنا وترسّخها في النفوس، فلا يكون الداعي للعمل الصالح قيمته الأخلاقيّة الرفيعة أو مطلوبيّته من قبل الله تعالى، وإنّما الداعي هو «الأنا» التي أسقطت إبليس وكشفت عن واقعيّة عبادته السابقة، وكيف أنّه كان صريعاً للأنانيّة والحالة النفاقيّة، فهو أوّل مخلوقٍ أطلق كلمة «أنا»، فمنعته «الأنا» من السجود لآدم، قال تعالى: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ (الأعراف: ١٢)، وفي هذا لنا عبرةٌ كبيرةٌ، فكلمةٌ واحدةٌ (أنا) أسقطت إبليس من مقامه وحوّلته إلى شيطانٍ رجيمٍ.

وفي قبال هذه الكلمة البائسة، هنالك كلماتٌ قد ترفع الإنسان في لحظةٍ واحدةٍ وتجعله في مصافّ الأولياء، فيطوي مسيرة سنواتٍ بعملٍ واحدٍ أو بكلمةٍ صادقةٍ واحدةٍ، فقد يدخل الإنسان الكافر الفاسق الفاجر إلى مسجدٍ بنيّةٍ صالحةٍ فيتحوّل إلى مؤمنٍ صالحٍ، وقد يخرج المؤمن الصالح وهو كافرٌ فاجرٌ[1]، وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على أنّ الكمّ غير منظورٍ في الأعمال، كما أنّ صورة العمل وظاهره ليست هي المقصودة بالذات، وإنّما المقصود في ذلك والمدار هو نيّة العمل وحقيقته وباطنه[2]، كما أنّ للعمل صلةً وثيقةً بحدود

(١) فالخوارج أهل إيمانٍ وعبادةٍ وتلاوة قرآنٍ، فخرجوا من ذلك كلّه بمروقهم عن الدين وحربهم لأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام في حرب النهروان.

(٢) وعلى هذا يمكن تفسير ضربة الإمام عليٍّ عليه السلام يوم الخندق التي تعدل عبادة الثقلين، كما جاء ذلك في الأخبار عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، وما ذلك إلّا بسبب باطن عمل الإمام عليه السلام ونيّته وإخلاصه، وإلّا فهي ضربةٌ قد لا تختلف من حيث

معرفتنا بالله تعالى، فقد يُكتفى بالعدد المعلوم من الصلوات والصيام وتلاوة بعض آياتٍ من القرآن الكريم بالنسبة لعامّة الناس، ولا يكون ذلك كافياً لطلبة العلوم الدينيّة؛ لأنّ المعرفة إذا اختلفت اختلف الحساب، ومنه يتّضح ما جاء في الخبر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**خيار أمّتي علماؤها، وخيار علمائها رحماؤها، ألا وإنّ الله يغفر للجاهل أربعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً**»[1]، وليس ذلك لهوان العالم ورفعة الجاهل، وإنّما لكون العالم قدوةً يُحتذى به، فإذا ما أذنب يكون قد أعطى المُسوِّغ للآخرين بمتابعته على ذلك الذنب، فيكون كمَن سنَّ سنّةً سيّئةً عليه إثمها وإثم مَن عمل بها.

المسلك الثاني: تهذيب الأخلاق من خلال الغايات الأخرويّة

وهذا هو المسلك الثاني من مسالك تهذيب الأخلاق، والذي يبتني على دعوة الإنسان وحثّه على الاتّصاف بالخصال الحسنة والحميدة، وعلى اجتناب العادات الرديئة والسيّئة، وذلك من خلال النظر إلى الجزاء الأخروي ثواباً أو عقاباً، فيأتي بالعمل الصالح والأفعال الحسنة، ويتّصف بمحاسن الأخلاق، ويجتنب المعاصي ومساوئ الأخلاق؛ طلباً للأجر الأخروي وهو الجنّة، والخلاص من العقوبة والنار، وهو مسلكٌ حسنٌ،

الظاهر والعمل الخارجي عن ضربة أيّ شخصٍ آخر يضربها ويقتل بها عمرو بن عبد ودٍّ العامري. (منه دام ظلّه).

(١) تاريخ بغداد، لأحمد بن عليّ الخطيب البغدادي: ج١ ص٢٥٣، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، بيروت. وقريبٌ منه ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام. (انظر: سعد السعود، لرضي الدين عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن طاووس الحسني: ص٨٨، نشر المطبعة الحيدريّة، الطبعة الأولى، ١٩٥٠م، النجف الأشرف).

ولا يُمكن مقايسته بالمسلك الأوّل من حيث صلاح الغاية والهدف، ولكنّه لا يبتعد كثيراً عن المسلك الأوّل في كونه يمثّل تجارةً وعوضاً ومعوّضاً.

نعم، غاية الأمر أنّ العوض قد يكون معجّلاً ومرتبطاً بالدنيا كما في المسلك الأوّل، وقد يكون مؤجّلاً ويعطى للإنسان في الآخرة، كما هو في المسلك الثاني، فيكون طلب العوض هو الهدف، لكنّه مرّةً يكون عوضاً دنيويّاً، وأخرى أخرويّاً.

ولو لاحظنا واقعنا الخارجي سنجد أنّ أغلب الناس ـ بحسب الظاهر ـ لا يعتنون بالعوض المؤجَّل؛ لأنّهم طُبعوا على حبّ الثمن المعجّل والاهتمام به، وإن كان أقلّ قيمةً ـ بل لا قيمة له ـ بالنسبة إلى الثمن المؤجّل، كما في العوض الدنيوي بالنسبة للأخروي، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة المؤلمة، قال تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**﴾ (القيامة: ٢٠ـ٢١).

إنّ لهذا الجزاء الأخروي ـ المطلوب تحقيقه في المسلك الثاني ـ خصوصيّتين مهمّتين، هما:

الخصوصيّة الأولى: أنّه مسلكٌ يُصلح ظاهر العمل وباطنه؛ لأنّ المُجازي هو الله تعالى الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّةٍ، كما أنّه تعالى هو الحاكم يوم القيامة وهو الشاهد في هذا العالم وفي هذه النشأة[1]، ولذلك على الإنسان أن يعبد الله تعالى كأنّه يراه إن لم يستطع الوصول إلى مقامٍ يرى فيه ربَّه شاهداً على كلّ شيءٍ، كما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿**...أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ**

---

(١) عن الإمام أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «**اتّقوا معاصي الله في الخلوات؛ فإنّ الشاهد هو الحاكم**». (نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص٧٧ رقم: ٣٢٤).

شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصّلت: ٥٣)، أي: أوَلم يكفِ بربّك أنّه على كلّ شيءٍ مشهود، فالله تعالى مشهودٌ في كلّ شيءٍ، ولكنّنا عادةً ما نحتكم إلى أبصارنا الحسّيّة ولا نحتكم إلى بصائرنا المعنويّة، فتكون المحصّلة هي عدم رؤيته سبحانه.

ولذلك فإنّ الصحيح في تفسير قول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً**»[1] هو أنّ هذا القول منه ليس دعاءً، بل هو قضيّةٌ إخباريّةٌ، وأنّ الإمام عليه السلام يريد: أنّ مَن لا يراك فهو أعمى حقيقةً، أي: إنّه أعمى البصيرة لا البصر، وإلّا فإنّ الله تعالى كما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ...**﴾ (الأنعام: ١٠٣)، إنّما تدركه قلوبنا بحقائق الإيمان، كما جاء في الأخبار[2].

فإذا ما فُتحت عيون البصيرة وانكشف الغطاء عن عالم الملكوت[3]، فإنّ

---

(١) صحيفة الإمام الحسين عليه السلام، للشيخ جواد القيّومي: ص٢١٤، دعاء عرفة، مكتب النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرّسين، الطبعة الأولى، ١٣٧٤ش، قم المقدّسة.

(٢) سأل ذعلب اليماني أمير المؤمنين عليه السلام: «هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: **أفأعبد ما لا أرى؟!** فقال: وكيف تراه؟ فقال: **لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريبٌ من الأشياء غير ملامسٍ، بعيدٌ منها غير مُباينٍ**». (نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٢ ص٩٩ رقم: ١٧٩). فهو عزّ وجلّ مشهودٌ بالبصيرة وبالقلب لا بالعين المادّيّة.

(٣) روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**ما من قلبٍ إلّا وله عينان وأذنان، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح عينيه اللتين هما للقلب ليشاهد بهما الملكوت**». (تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضمّ، للسيّد حيدر الأملي: ج١ ص٢٧٢، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه: السيّد محسن الموسوي التبريزي، نشر المعهد الثقافي نورٌ على نورٍ، الطبعة الأولى، قم المقدّسة».

وعن الإمام عليٍّ السجّاد عليه السلام: «**ألا إنّ للعبد أربع أعينٍ: عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر**

الإنسان سيصل إلى مقام اليقين الذي تحدّثت عنه الروايات الشريفة، والذي أُشير له في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥)، فآلة الإيقان هي الإبصار بعين القلب، ولو لم يكن للقلب عينٌ مبصرةٌ فلا معنى لوصم بعض القلوب بالعمى، كما في قوله تعالى: ﴿...فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحجّ: ٤٦)، ففي نسبة العمى إلى القلب دليلٌ واضحٌ وصريحٌ على أنّ للقلب إبصاراً ـ حسب نسبة الملكة وعدمها ـ ولذلك نجد الكثير من الناس ينكرون عالم الغيب والملكوت، أو يشكّكون بوجوده؛ لأنّهم يعانون من عمى البصيرة، أي: عمى عيون القلب، ولعلّه لهذا العمى الجليّ أشارت الآية الكريمة: ﴿...وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا...﴾ (الأعراف: ١٧٩)، فرؤية الغيب والملكوت لا تتمّ بالأعين الحسّيّة الظاهريّة الموجودة حتّى في الحيوانات، وإنّما بواسطة عيون القلب، وكيف للإنسان أن يرى بعيون قلبه عالم الغيب والملكوت وهو واقعٌ فريسةً للخطايا والمعاصي، فران على قلبه فلم يعد مبصراً، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطفّفين: ١٤).

الخصوصيّة الثانية: أنّ الجزاء المتوخّى حصوله في المسلك الثاني هو جزاءٌ دائمٌ؛ لأنّه جزاءٌ أخرويٌّ، والآخرة لا تزول؛ لأنّها باقيةٌ بإرادة الله سبحانه وتعالى، ولذلك اتّخذ الأنبياء عليهم السلام هذا المسلك طريقاً لإنقاذ البشر، فالإنسان يعشق الخلود، ويُريد الخلاص من العقوبة والعذاب.

بهما الغيب في أمر آخرته». (الخصال، مصدر سابق: ج١ ص٢٤٠ ح٩٠). والملكوت والغيب هما المعنيّان في الآية المباركة: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥)، فقد حصل إبراهيم الخليل عليه السلام على اليقين من رؤيته ملكوت السماوات والأرض. (منه دام ظلّه).

قال العلّامة الطباطبائي: «وهذا المسلك في إصلاح الأخلاق هو طريقة الأنبياء، ومنه شيءٌ كثيرٌ في القرآن وفيما ينقل إلينا من الكتب السماويّة»[١]، ولذلك فإنّ القرآن الكريم لم يتجاوز هذا المسلك، بل اعتبره طريقاً صحيحاً في إصلاح النفوس من خلال استعمال سياسة الترغيب بالجنّة، والترهيب والتحذير من النار، كما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...**﴾ (التوبة: ١١١)، وهذا ما يدعو كلّ إنسانٍ عاقلٍ أن لا يقبل بغير الجنّة ثمناً لنفسه، كما ورد عن الإمام عليٍّ عليه السلام: «**إنّه ليس لأنفسكم ثمنٌ إلّا الجنّة، فلا تبيعوها إلّا بها**»[٢]، فلا يبيعها بدراهم معدودةٍ، أو بجاهٍ محدود الأثر، وغير ذلك من العناوين الاعتباريّة التي صارت مقصداً للكثير من الناس.

وفي قبال الترغيب بالجنّة كان الترهيب والتحذير من النار، كما في قوله تعالى: ﴿**...إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (إبراهيم: ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿**...إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**﴾ (آل عمران: ٤).

انسجام المسلك الثاني مع طباع الإنسان

إنّ هذا المسلك هو الغالب على الناس في تهذيب أخلاقهم وإصلاحها، فالإنسان عادةً لا يرغب بالعطاء من دون مقابل، كما أنّه يميل عادةً إلى كون المقابل ثميناً وباقياً، ولذلك فهو يطلب بصلاح نفسه وبعمله الصالح نيل الجزاء

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١ ص٣٥٨.

(٢) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٤ ص١٠٥، رقم (٤٥٦).

ـ الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٤٠، الحديث رقم (١٢).

ـ سير أعلام النبلاء: ج٤ ص١١٧.

ـ صفوة الصفوة: ج٢ ص٧٧، الحديث رقم (١٥٨).

الأخروي، حتّى وإن كان ملتفتاً إلى قصد وجه الله تعالى، ولكنّه لو علم وأيقن بأنّ ما يقوم به من أعمالٍ صالحةٍ أو إصلاحٍ للنفس ليس له جزاءٌ أخرويٌّ، فلا ينال بذلك جنّةً ولا نعيماً لما أقدم على أعمال الخير، فهو رهينةٌ لطلب الربح من تجارته الأخرويّة، وليس رهينةً لطلب رضا الله تعالى وحسب.

قال العلّامة الطباطبائي: «وطباع الناس مختلفةٌ في إيثار هذه الطرق الثلاثة (أي: المسالك الثلاثة) واختيارها، فبعضهم ـ وهو الغالب ـ يغلب على نفسه الخوف، وكلّما فكّر فيما أوعد الله الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي والذنوب من أنواع العذاب الذي أعدَّ لهم، زاد في نفسه خوفاً، ولفرائصه ارتعاداً، ويساق بذلك إلى عبادته خوفاً من عذابه، وبعضهم يغلب على نفسه الرجاء، وكلّما فكّر فيما وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة زاد رجاءً، وبالغ في التقوى والتزام الأعمال الصالحات طمعاً في المغفرة والجنّة»[1].

ولكون هذا المسلك الجيّد والصحيح مسلكاً قرآنيّاً وروائيّاً أيضاً، فإنّنا نجد الكثير من تلامذة أئمّة أهل البيت عليهم السلام يطلبون منهم أن يرغّبوهم في الجنّة ويشوّقوهم إليها، وأن يخوّفوهم من النار ويحذّروهم منها.

فعن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: جُعلت فداك يا ابن رسول الله، شوّقني إلى الجنّة، فقال: **يا أبا محمّد، إنّ من أدنى نعيم الجنّة يوجد ريحها من مسيرة ألف عامٍ من مسافة الدنيا، وإنّ أدنى أهل الجنّة منزلاً لو نزل به أهل الثقلين الجنّ والإنس لوسعهم طعاماً وشراباً ولا ينقص ممّا عنده شيءٌ،**

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١١ ص١٥٨.

وإنّ أيسر أهل الجنّة منزلةً مَن يدخل الجنّة فيرفع له ثلاث حدائق، فإذا دخل أدناهنّ رأى فيها من الأزواج والخدم والأنهار والأثمار ما شاء الله ممّا يملأ عينه قرّةً وقلبه مسرّةً، فإذا شكر الله وحمده، قيل له: ارفع رأسك إلى الحديقة الثانية»[١]، فالجنّة والنعيم مراتب، كما أنّ الشكر سببٌ لزيادة العطاء الإلهيّ حتّى في الآخرة، ومنه يتّضح إطلاقيّة معنى الآية الكريمة: ﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ (إبراهيم: ٧)، فلا يُراد به الانحصار بالشكر في الدنيا، ولذلك فهو سببٌ لارتقاء الإنسان في مراتب الجنّة ودرجاتها.

ثمّ قال عليه السلام: **«فإذا هو دخلها شكر الله وحمده أيضاً، فإذا شكر الله وحمده، فيقال: افتحوا له باب الجنّة، ويقال له: ارفع رأسك فإذا قد فُتح له بابٌ من الخلد ويرى أضعاف ما كان فيما قبل، فيقول عند تضاعف مسرّاته: ربّ لك الحمد الذي لا يُحصى إذ مننتَ عليَّ بالجنان ونجّيتني من النيران.**

قال أبو بصيرٍ: فبكيت، ثمّ قلت: جُعلت فداك زدني، قال: **يا أبا محمّدٍ، إنّ في الجنّة نهراً في حافّته جَوارٍ نابتاتٌ، إذا مرّ المؤمن بجاريةٍ أعجبته قلعها وأنبت الله مكانها»**[٢]، فلا ينقص عطاء الله، بل لا تزيده كثرة العطاء إلّا جوداً وكرماً؛ إذ كلّما وُجد جوعٌ وعطشٌ وطلبٌ وحاجةٌ يوجد هناك عطاءٌ وجودٌ وكرمٌ.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص: ١٧)، أي: ربِّ بما أنعمت عليَّ بالتوبة والمغفرة والنعم الكثيرة فلن أكون مُعيناً لأحدٍ على معصيته وإجرامه، وبذلك يكون تذكّر النعمة طريقاً

---

(١) تفسير القمّي، مصدر سابق: ج٢ ص٨٢.

(٢) تفسير القمّي، مصدر سابق: ج٢ ص٨٢.

وقائيّاً من اقتراف الذنوب.

- عن زيد بن أرقم، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**مَن قال لا إله إلّا الله مخلصاً دخل الجنّة، وإخلاصه أن تحجزه لا إله إلّا الله عمَّا حرَّم الله عزَّ وجلّ**»[١].

خلاصة الدرس

- مسلك التهذيب هو الطريقة المعتمدة في تطهير النفس وتزكيتها من الذنوب وتبعات الماضي.
- ذكروا أنّ مسالك تهذيب الأخلاق ثلاثةٌ: تهذيب الأخلاق بالغايات الدنيويّة الصالحة، وبالغايات الأخرويّة، وبالحبّ الإلهيّ.
- المسلك الأوّل هو أيسر المسالك ولكنّه أقلّها كمالاً ورُقيّاً، والجزاء المتحقّق بواسطته جزاءٌ دنيويٌّ اعتباريٌّ زائلٌ.
- الإسلام لم يهمل ظاهر العمل، وإنّما قد أوجد للظاهر قوانين مُحكمةً ودقيقةً، ثمّ وجّه الإنسان إلى اتّخاذه مَعبَراً إلى الحقيقة وبواطن الأعمال.
- مَن يرى الإسلام متمثّلاً فيه فهو واقعٌ تحت أسر وحاكميّة الأنا.
- كلمة «أنا» أسقطت إبليس عن مقامه، وكشفت عن واقعيّة عبادته السابقة.
- المسلك الثاني يبتني على دعوة الإنسان على الاتّصاف بالخصال الحسنة، واجتناب العادات السيّئة، من خلال طلب الجزاء الأخروي.
- لا يمكن مقايسة المسلك الثاني بالأوّل، ولكنّه يشبهه بالتجارة والربح.

---

(١) التوحيد، للشيخ الصدوق محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي: ص٢٨ ح٢٧، تحقيق: السيّد هاشم الحسيني الطهراني، نشر دار المعرفة، بيروت.

- من خصوصيّات المسلك الثاني خصوصيّتان: أنّه مسلكٌ يُصلح ظاهر العمل وباطنه، وأنّ جزاءه دائمٌ.
- نسبة العمى إلى القلب دليلٌ واضحٌ وصريحٌ على أنّ للقلب إبصاراً.
- انسجام المسلك الثاني مع طباع الإنسان، فالإنسان عادةً لا يرغب بالعطاء من دون مقابل، كما أنّه يميل عادةً إلى كون المقابل ثميناً وباقياً.

مذاكرة

- ما هو المراد من مسلك التهذيب؟
- ما هي مسالك التهذيب التي ذكرها علماء الأخلاق؟
- أيّ المسالك التهذيبيّة أقلّها كمالاً ورُقيّاً؟ ولماذا؟
- هل الجزاء المتحقّق بواسطة المسلك الأوّل جزاءٌ دنيويٌّ اعتباريٌّ زائلٌ؟
- هل اهتمّ الإسلام بظاهر العمل؟ وما علاقة الظاهر بالحقيقة والباطن؟
- ما الذي ينبغي الانتباه إليه في واقعيّة مطلوبيّة العلوم الدينيّة؟
- كيف نقيّم مَن يرى الإسلام متمثّلاً فيه وحده؟
- ما الذي فعلته كلمة «أنا» بإبليس؟ وما الذي كشفت عنه؟
- ما هو المسلك الثاني؟ وهل يُمكن مقايسته بالمسلك الأوّل؟ ولماذا؟
- لماذا لا يعتني أغلب الناس بالعوض المؤجَّل؟
- ما هي خصوصيّات المسلك الثاني؟
- ما الذي نكتشفه من نسبة العمى إلى القلب؟
- هل للمسلك الثاني انسجامٌ مع طباع الإنسان؟ وضّحه.

الدرس الثالث عشر

مسالك تهذيب النفس

(القسم الثاني)

- أهداف الدرس
- تمهيد
- المسالك الأخرى لتهذيب النفس
  المسلك الثالث: الحبّ الإلهيّ
  المسلك الرابع: العلم الحصولي
- كلماتٌ على طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- أهمّيّة الحبّ وعلاقته بتزكية النفوس.
- المسلك الثالث من مسالك تهذيب النفس: الحبّ الإلهيّ.
- معنى الإخلاص في الحبّ الإلهيّ.
- علاقة الحبّ بنوع العبادة.
- انفتاح باب الحبّ الإلهيّ لجميع الناس.
- المسلك الرابع من مسالك تهذيب النفس: العلم الحصولي.

تمهيد

مرَّت بنا في الدرس السابق بياناتٌ حول مسلكين من مسالك تهذيب النفس، وفي هذا الدرس ستكون تتمّة هذا الموضوع؛ حيث سنبحث في طريقين ومسلكين آخرين من مسالك تهذيب النفس، الأوّل ذكره أعلام الأخلاق والعرفان، وهو مسلك الحبّ الإلهيّ، وأمّا الثاني فلم يرد في كلمات الأعلام، وهو مسلك العلم، والذي سترد فيه بياناتٌ جديدةٌ تُظهر كون العلم يمكنه القيام بتزكية النفس، وكيف أنّ الجهل هو الطريق الأوسع لارتكاب المعاصي.

الحبّ وأهمّيته في المتابعة وطهارة القلوب

الحبّ هو الوداد والمحبّة والميل الشديد[1]، ويُقابله البُغض والتنفّر.

---

(١) لسان العرب، مصدر سابق: ج١ ص٢٨٩.

والتحبّب هو إظهار الودّ والحبّ.

وأمّا الحبّ بمعناه الاصطلاحي فهو الميل القلبي والباطني نحو المحبوب، فلا يكون الشيء محبوباً إلّا إذا مالت النفس إليه، وهذا الميل ذو درجاتٍ ومراتب، فإذا قوي هذا الميل واشتدّ سُمّي عشقاً[١]، وهذا الميل الباطني يتولّد منه الشوق إلى المحبوب عند غيابه، فيلحّ القلب في طلبه حتّى يرتوي برؤياه، ولذا لا يكفّ العارف عن شوقه ووله للمحبوب حتّى يمتلئ قلبه بشهود محبوبه[٢].

الحبّ طريق التطهير

الحبّ هو الطريق الأمثل للخلاص من أخطر الأمراض المعنويّة، فالأحقاد والأضغان والغلّ والكراهيّة والنفرة كلّها مشاعر تنبت وتنمو في القلوب التي انطفأ فيها مصباح الحبّ أو خفت ضوؤه، فلم تعد تبصر طريق التسامح.

ولو تأمّلنا في الحسد والغيرة والغيبة والبهتان والنميمة سنجدها هي الأخرى وليدة احتراق شجرة الحبّ في القلب، ولذلك حرصت الأديان السماويّة على تنمية وتقوية الحبّ في النفوس، حتّى بلغ الأمر بمساواة الدين بالحبّ نفسه، في كنايةٍ جميلةٍ إلى أنّ ما يشتمل عليه الدين من قيمٍ رفيعةٍ فإنّ الحبّ يشتمل عليها أيضاً، فهو الدين.

---

(١) مجمع البحرين، للشيخ فخر الدين الطريحي: ج١ ص٤٤٢، تحقيق: السيّد أحمد الحسيني، مكتبة نشر الثقافة الإسلاميّة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

(٢) يُنظر تفصيل المسألة في كتاب «معرفة الله»، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري: ج١ ص٢١ فما بعد، بقلم: الدكتور طلال الحسن، دار فراقد، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، قم المقدّسة.

روي عن بريد بن معاوية أنّه قال: «كنت عند أبي جعفرٍ الباقر عليه السلام في فسطاطٍ له بمنى، فنظر إلى زيادٍ الأسود منقلعَ الرجل، فرثى له، فقال له: ما لرجليك هكذا؟ قال: جئت على بَكرٍ لي نِضوٍ فكنت أمشي عنه عامّة الطريق، فرثى له، وقال له عند ذلك زيادٌ: إنّي ألمّ بالذنوب حتّى إذا ظننت أنّي قد هلكت ذكرت حبّكم، فرجوت النجاة وتجلّى عنّي، فقال أبو جعفرٍ عليه السلام: وهل الدين إلّا الحبّ؟»[1].

ولأجل أهمّيّة الحبّ ومكانته فقد ورد الترغيب بالطاعة والمتابعة عن طريق الحبّ نفسه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)، وإذا أراد الله تعالى مدح أحدٍ والثناء عليه ذكره بالحبّ، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ (المائدة: ٥٤).

جديرٌ بالذكر أنّ حقيقة الحبّ وسرّه وكُنهه مرتبطةٌ بما يتميّز به الإنسان في علاقته مع الله تعالى، فحبّ الله تعالى هو الأصل والأساس والمنطلق لجميع الموجودات والمفردات الأُخرى التي يمكن أن تكون متعلّقاً للحبّ[2].

المسالك الأخرى لتهذيب النفس

المسلك الثالث: الحبّ الإلهيّ

بعد أن أوجزنا الحديث عن أهمّيّة الحبّ وكونه وسيلةً للتطهير من الأمراض المعنويّة، فلا ريب أنّ أشرف أنواع الحبّ وأزكاها وأصلحها في تحصيل الطهارة القلبيّة التامّة هو حبّ الله تعالى، فحبّ الله تعالى عاصمٌ من

---

(١) الروضة من الكافي، مصدر سابق: ج١٥ ص١٩٨، الحديث رقم (١٤٨٥٠).

(٢) انظر: معرفة الله، مصدر سابق: ص٣٠.

الخطايا والمعاصي، وفي ذلك دلالةٌ جليلةٌ وخطيرةٌ على كون قلوب العصاة ومرتكبي الذنوب لا تنطوي على واقعيّة الحبّ الإلهيّ وإنّما على صورته، أو قل بأنّ واقعيّة الحبّ الإلهيّ غير مفعّلةٍ في قلوب العصاة، فلا يُصيبهم الحياء من الله تعالى، وأمّا القلوب العامرة بحبّ الله تعالى فإنّها تقتفي آثار الطاعات وتنكبّ عليها، وتترصّد مواضع المعاصي وتتوقّى منها، ولكون هذا الحبّ الإلهيّ شديد الأثر في النفوس وإصلاحها فقد اتّخذه السلّاك والولهون طريقاً لنجاتهم من كلّ نقصٍ وقصورٍ، ولعلّ هذا ما يُفسّر لنا دعاء رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**اللّهمَّ اجعل حبّك أحبّ الأشياء إليّ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عنّي حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم فأقرر عيني من عبادتك**»[1]، وفي خبرٍ آخر عنه صلّى الله عليه وآله: «**اللّهمّ إنّي أسألك حبّك وحبّ مَن يحبّك، والعمل الذي يُبلغني حبّك. اللّهمّ اجعل حبّك أحبّ إليَّ من نفسي وأهلي...**»[2].

ونظراً لكون هذا الطريق هو الأمثل فقد اعتنى به القرآن الكريم، وحثّ عليه، وقد تقدّمت بعض الإشارات لذلك، قال العلّامة الطباطبائي: «هاهنا مسلكٌ ثالثٌ مخصوصٌ بالقرآن الكريم لا يوجد في شيء ممّا نُقل إلينا من الكتب السماويّة، وتعاليم الأنبياء الماضين سلام الله عليهم أجمعين، ولا في المعارف المأثورة من الحكماء الإلهيّين، وهو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل»[3].

بمعنى: أنّ الحبّ الإلهيّ لا يجعل مانعاً يقف أمام ارتكاب المعاصي،

---

(١) الجامع الصغير، مصدر سابق: ج١ ص٢٢٩ ح١٥١٧.

(٢) سنن الترمذي، مصدر سابق: ج٥ ص١٨٤ ح٣٥٥٦.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١ ص٣٥٨.

وإنّما يرفع أصل الاقتضاء لارتكاب المعاصي، فيكون حلّه جذريّاً، فالإنسان إنّما يقترف المعاصي لوجود المقتضي لذلك، فهو يحبّ اللذّات والمتع، ولكنّه إذا أبدل ذلك كلّه بحبّ الله تعالى وحده فإنّه لن يُحبّ إلّا ما يحبّه الله تعالى، وبذلك لا يبقى اقتضاءٌ في نفسه لارتكاب المعاصي.

بعبارةٍ أخرى: إنّ خصوصيّة إبداء المانع مع وجود المقتضي هي خصوصيّة المسلك الثاني (طلب الغايات الأخرويّة)، وأمّا المسلك الثالث (الحبّ الإلهيّ) فإنّه يقوم على أساس اقتلاع أصل وجود المقتضي في الإنسان لا أن يزاحمه بالمانع المخوِّف أو المرغِّب.

فمع الحبّ الإلهيّ: «لا يبقى موضوعٌ لرياءٍ، ولا سمعةٍ، ولا خوفٍ من غير الله، ولا رجاءٍ لغيره، ولا ركونٍ إلى غيره، فهاتان القضيّتان إذا صارتا معلومتين للإنسان تغسلان كلّ ذميمةٍ وصفاً أو فعلاً عن الإنسان، وتحلّيان نفسه بحلية ما يقابلها من الصفات الكريمة الإلهيّة من التقوى بالله، والتعزّز بالله وغيرهما من مناعةٍ وكبرياءٍ واستغناءٍ وهيبةٍ إلهيّةٍ ربّانيّةٍ»[1].

إنّ الحبّ الإلهيّ يجعل الإنسان يعيش واقعيّة التوحيد العملي، فلا يحبّ غير الله تعالى، فإنّ الإنسان إذا أحبَّ شيئاً أَطاعه وعبده، فإنّ من آثار الحبّ الطاعة والتسليم، وهي العبادة، فمَن أحبَّ الله عبَده، ومَن أحبَّ الدنيا الزائلة عبَدها، ومَن عبَد الشيء الزائل فإنّ معبوده سوف يزول يوماً ما، ولكنّ علاقته به لن تزول، وسوف يحشر يوم القيامة ومعه تلك العلاقة وذلك الحبّ للمعبود الزائل، وسيعيش حرقة الألم اللامتناهي على محبوبه الذي لا وجود له.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١ ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

ولذلك على الإنسان أن يجعل قلبه متعلّقاً بالله سبحانه وتعالى وحده، ويقطع وصله بالدنيا؛ إذ لا يُمكن الجمع بين هذين الحبَّين في قلبٍ واحدٍ، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ...﴾ (الأحزاب: ٤).

الإخلاص ثمرة الحبّ الإلهيّ

إنّ من أُولى معطيات الحبّ الإلهيّ: حصول الإخلاص لله تعالى، وإذا ما تجذّر هذا الإخلاص في القلب فإنّ الصلاح والاستقامة والصدق في القول والعمل هي الثمار الواقعيّة المُجناة، وهي الصفات الملاصقة للذات، ولذلك نجد العارفين الذين لم يتحكّم بوجودهم غير حبّ الله تعالى يتباهون بغسل قلوبهم من دون الله تعالى، فإنّ حبّ الله تعالى إذا ما وقع في القلب يتمركز وينمو ولا يزال يشتدّ: «ثمّ يشتدّ حتّى ينقطع إليه من كلّ شيءٍ، ولا يحبّ إلّا ربّه، ولا يخضع قلبه إلّا لوجهه، فإنّ هذا العبد لا يعثر بشيءٍ، ولا يقف على شيءٍ وعنده شيءٌ من الجمال والحُسن إلّا وجد أنّ ما عنده أنموذجٌ يحكي ما عنده تعالى من كمالٍ لا ينفد، وجمالٍ لا يتناهى، وحسنٍ لا يحدّ، فله الحسن والجمال والكمال والبهاء، وكلّ ما كان لغيره فهو له؛ لأنّ كلّ ما سواه آيةٌ له، ليس له إلّا ذلك، والآية لا نفسيّة لها وإنّما هي حكايةٌ تحكي صاحبها، وهذا العبد قد استولى سلطان الحبّ على قلبه، ولا يزال يستولي، ولا ينظر إلى شيء إلّا لأنّه آيةٌ من آيات ربّه. وبالجملة: فينقطع حبّه عن كلّ شيءٍ إلّا ربّه، فلا يحبّ شيئاً إلّا لله وفي الله سبحانه»[1].

إنّ الإخلاص في الحبّ الإلهيّ هو أن لا يكون لك شاغلٌ حقيقيٌّ إلّا الله تعالى، فتكون حتّى في عبادتك حرّاً لا عبداً ينتظر أجراً، فأنت تحبّه

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١ ص٣٧٣.

وتعبده لأنّه تعالى أهلٌ لذلك، ولا يستحقّ إلّا ذلك، فلا تشوب العبادةَ رغبةٌ في شيءٍ غير الله تعالى، حتّى الثواب والعقبى والجنّة لا تكون حاضرةً في قلب المحبّ(١).

أثر الحبّ الإلهيّ على المحبّ

إنّ هذا الحبّ الزكيّ الطاهر سوف ينبسط على قلب الإنسان وعقله وقوله وعمله؛ لأنّه يتحرّك بهذا الحبّ لا غير، ولذلك لا تبقى مع هذا الحبّ خطيئةٌ ولا معصيةٌ ولا مرضٌ معنويٌّ إلّا وفُني، ولا يبقى في النفس إلّا دواعي الخير بما ينسجم مع ذلك الحبّ، وتغيب الكراهيّة تماماً، وهذا هو الحبّ الذي لا عيب فيه(٢)؛ لأنّه لا يورث إلّا السموّ والرفعة والكمال.

قال العلّامة الطباطبائي: «وحينئذٍ يتبدّل نحو إدراكه وعمله، فلا يرى شيئاً إلّا ويرى الله سبحانه قبله ومعه، وتسقط الأشياء عنده من حيّز الاستقلال، فما عنده من صور العلم والإدراك غير ما عند الناس؛ لأنّهم إنّما

---

(١) روي أنّ رابعة العدويّة (شهيدة الحبّ الإلهيّ) قد مرضت يوماً، «فقيل لها: ما سبب علّتك؟ فقالت: نظرت بقلبي إلى الجنّة فأدّبني، فله العتبى، لا أعود». (الرسالة القشيريّة، لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القُشيري النيشابوري: ص١١٦ باب الغيرة، تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، الناشر بيدار، الطبعة الأولى، ١٣٧٤ ش، قم المقدّسة). وكانت تنشد:

كـلُّهم يعبدوك من خوف نارٍ ... ويرون النجاة حظّاً جزيلا
أو بأن يسكنوا الجِنانَ فيحظُوا ... بقصورٍ ويشربوا سلسبيلا
ليـس لي بالجِـنانِ والنار حـظٌّ ... أنا لا أبتغي بحبّي بـديـلا

(٢) وقد قيل في هذا المعنى شعرٌ جميلٌ منسوبٌ إلى رابعة العدويّة، تقول فيه:

أُحبُّ حبيباً لا أُعاب بحبّه ... وحبيبهم مَن في هواه عيوب

(صيد الخاطر، ابن الجوزي، فصل العشق الإلهي).

ينظرون إلى كلّ شيءٍ من وراء حجاب الاستقلال بخلافه، هذا من جهة العلم، وكذلك الأمر من جهة العمل فإنّه إذا كان لا يحبّ إلّا الله فلا يريد شيئاً إلّا الله وابتغاء وجهه الكريم، ولا يطلب ولا يقصد ولا يرجو ولا يخاف ولا يختار ولا يترك ولا ييأس ولا يستوحش ولا يرضى ولا يسخط إلّا لله وفي الله، فيختلف أغراضه مع ما للناس من الأغراض، وتتبدّل غاية أفعاله، فإنّه كان إلى هذا الحين يختار الفعل ويقصد الكمال لأنّه فضيلةٌ إنسانيّةٌ، ويحذر الفعل أو الخلق لأنّه رذيلةٌ نفسانيّةٌ، أمّا الآن فإنّه يريد وجه ربّه، ولا همّ له في فضيلةٍ ولا رذيلةٍ ولا شغل له بثناءٍ جميلٍ وذكرٍ محمودٍ، ولا التفات له إلى دنيا أو آخرةٍ أو جنّةٍ أو نارٍ، وإنّما همّه ربّه، وزاده ذلّ عبوديّته، ودليله حبّه»[1].

وقد روي «أنّ نبيّ الله موسى عليه السلام كان شديد الحبّ لزوجته، وقد ذهب يوماً لمناجاة ربّه بالوادي المقدّس، فقال: يا ربّ، **إنّي أخلصت لك المحبّة منّي، وغسلت قلبي عمّن سواك.** فقال الله تبارك وتعالى: ﴿**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ**﴾، أي: انزع حبّ أهلك من قلبك إن كانت محبّتك لي خالصةً، وقلبك من الميل إلى مَن سواي مغسولاً»[2].

الحبّ الإلهيّ موجبٌ لعبادة الأحرار

الإخلاص في الحبّ الإلهيّ ـ كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك ـ موجبٌ

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١ ص٣٧٣.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق أبي جعفرٍ محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي: ص٤٦٠، صحّحه وعلّق عليه: عليّ أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم، ١٤٠٥هـ. والآية: (طه: ١٢).

لطرد الأغيار، ومن أسوأ الأغيار حبّ الدنيا، فتزول بالحبّ الإلهيّ مطامع الدنيا كافّةً، كما أنّ من الأغيار طلب ما سواه، وإن كان المطلوب حقّاً ومشروعاً، كالجنّة والنعيم والثواب، وبذلك سيزول عن القلب حتّى مثل هذا المقصد الشريف؛ لأنّه يصطدم مع أشرف المطالب، وهو طلب وجه الله تعالى، فإذا تخلّص المحبّ من تلك المطالب صار حرّاً طليقاً؛ فإنّ الحبّ الإلهيّ يُخرج الإنسان من عبادة العبيد إلى عبادة الأحرار.

ولذلك ترى العلماء بالله لا يعبدونه خوفاً من عقابه، ولا طمعاً في جنّته «وإنّما يعبدونه لأنّه أهلٌ للعبادة؛ وذلك لأنّهم عرفوه بما يليق به من الأسماء الحسنى والصفات العُليا، فعلموا أنّه ربّهم الذي يملكهم وإرادتهم ورضاهم وكلّ شيءٍ غيرهم، ويدبّر الأمر وحده، وليسوا إلّا عباد الله فحسب، وليس للعبد إلّا أن يعبد ربّه ويقدّم مرضاته وإرادته على مرضاته وإرادته، فهم يعبدون الله ولا يريدون في شيءٍ من أعمالهم ـ فعلاً كان أو تركاً ـ إلّا وجهه»[1]، وهذا ما أشارت إليه بعض الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ العبّاد ثلاثةٌ: قومٌ عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقومٌ عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأُجَراء، وقومٌ عبدوا الله عزّ وجلّ حبّاً له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة**»[2].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١١ ص١٥٨.

(٢) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٢١٦، الحديث رقم (١٦٧٢). أيضاً:

ـ حلية الأولياء، ترجمة الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين: ج٣ ص١٣٤، رقم (٢٢٩).

مسلك الحبّ الإلهيّ بابٌ مشرعةٌ

وهنا لابدّ أن يعلم أنّ هذا المسلك الشريف (الحبّ الإلهيّ) ليس مختصّاً بأحدٍ أو بفئةٍ معيّنةٍ من الناس، بحيث يكون محالاً على الآخرين، وإنّما بابه مشرعةٌ أمام الناس كافّةً، وغاية ما فيه أنّه يشتمل على ضوابط وشروطٍ قد تكون صعبةً، ولكنّها ليست عسيرةً، ولا مُحالةً، ولذلك لا ينبغي لنا اليأس منه، ومكمن الصعوبة فيه هو أنّه يتوقّف على معرفةٍ عاليةٍ بالتوحيد، وعلى تهذيبٍ ورياضاتٍ ومجاهداتٍ كثيرةٍ من أجل أن يصل الإنسان إلى مقام: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ (الدهر: ٩).

نعم، إنّ الغالب على الناس هو اتّباعهم مسلك الجزاء الأخروي في تهذيب أخلاقهم وإصلاحها، وإلّا فالكثير منهم لا يبقى على طاعاته وعبادته وعلى ارتداعه عن المعاصي، كما تقدّم بيان ذلك، وأمّا لو علم الإنسان بأنّه من أهل النار فلا شكّ في انفلاته عن سائر العبادات ـ بحسب العادة ـ لأنّه سوف يكون فريسةً سهلةً لليأس والقنوط، في حين أنّه لو عاش ذلك الحبّ الإلهيّ الخالص فإنّه لن يضرّه إلى أيّ مصيرٍ سيؤول، ومن الواضح أنّ هذا (قطع سائر الأغيار عن القلب) مقامٌ لا يبلغه إلّا الأوحدي الذي سمت معارفه وصدقت نواياه ولم يطلب إلّا الله تعالى، وهو مقام الأنبياء والأوصياء والأولياء عليهم السلام، ولنا بهم أسوةٌ حسنةٌ؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١).

وخلاصة ذلك: أنّ كلّ إنسانٍ سويٍّ بإمكانه أن يروّض نفسه من أجل

ـ تاريخ مدينة دمشق، مصدر سابق: ج٤١ ص٤١٠.

الارتقاء إلى ذلك المقام العالي، فلا يقرأ دعاءً مثلاً ولا يصلّي صلاةً ولا يفعل فعلاً ما ونظره المباشر إلى ثواب تلك الأعمال، وإنّما نظره إلى وجه الله تعالى، فيأتي بكلّ ذلك لأنّ محبوبه يريد منه ذلك.

المسلك الرابع: العلم

إنّ مرادنا من العلم في المقام ليس العلم الإلهيّ الموصوف بالنور، والذي يُطلق عليه القرآن الكريم: العلم اللدنّي، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف: ٦٥)، فذلك العلم هو الوريث الأساسي للحبّ الإلهيّ، بل هو الوجه الآخر للحبّ الإلهيّ، فكلّ مَن امتلأ قلبه بحبّ الله تعالى وطرد الأغيار عنه فإنّه صار مورداً لتلقّي العلم اللدنّي، وكلٌّ بحسبه، وإنّما مرادنا من العلم في المقام هو العلم الكسبي النظري الحصولي، والمعبّر عنه بانطباع صورة الشيء في الذهن، ولكنّنا لا نريد أيّ علمٍ وأيّ صورةٍ، وإنّما نعني بذلك العلوم الدينيّة الإلهيّة، والتي يُشار إليها بتعبيرٍ موجزٍ، وهو: «التفقّه في الدين»، عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً، بمبانيها العقليّة والقرآنيّة والروائيّة الصحيحة.

فمَن كان عالماً بالعلوم الدينيّة فإنّه لابدّ أن تكون قد زكت نفسه، وطهر قلبه، وتخلّص من المعاصي والخطايا، وإلّا فإنّ ما تعلّمه ليس إلّا جهالاتٍ، وحاشا للعقل البرهاني والقرآن الوحياني والسنّة الشريفة أن تكون جهالاتٍ أو تورث جهالاتٍ، ولذلك فمَن ادّعى علماً من هذه العلوم الدينيّة وهو لا زال صريع الشهوات واللذّات وحبّ الدنيا فإنّه بجملةٍ واحدةٍ: «ليس بعالمٍ».

ولأجل أهمّيّة التفقّه في الدين وكونه طريقاً جليلاً للرقي الأخلاقي فقد

حثّ العقل والقرآن والسنّة على تحصيل ذلك، وبهذا المنطق لابدّ أن نفهم بأنّ أولياء الله تعالى لا يمكن أن يكونوا غير متفقّهين في الدين البتّة، وفي ضوء هذا المعنى ينبغي أن نفهم قول الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله: «**ما اتّخذ الله وليّاً جاهلاً**»[١]، فهذا الخبر وإن كان يُساق في دائرة الحبّ الإلهيّ والعلم الإلهي اللدنّي، إلّا أنّه لا يوجب الانحصار، بل هو أظهر في مطلق التفقّه في الدين من ظهوره في معنىً آخر، فالوليّ المقرّب من الله تعالى بقطع النظر عن حصوله على العلم اللدنّي أو عدم حصوله، فإنّه لابدّ أن يكون متفقّهاً في دينه، على مستوى العقيدة والشريعة والأخلاق، وهذا هو العلم الحصولي الذي يجب على السائرين في طريق الله تعالى تحصيله، فالجهل لا يورث حبّاً لله تعالى، بل لا يمكن أن يرتقي الإنسان إلى مصافّ الحبّ الحقيقي وهو جاهلٌ، فكيف يحبّ جهةً هو جاهلٌ بها؟! ولذلك نقول بأنّ الحبّ الحقيقي هو الوليد الحقيقي والموروث الأوّل للمعرفة، وبقدر تلك المعرفة يكون الحبّ[٢]، فلا يمكن أن يكون حبّ الشيء وليد الجهل به، وإلّا ستنقلب الموازين كافّةً، وتلك المعرفة المطلوبة ليست منحصرةً في العلوم اللدنّيّة النوريّة، وإنّما هي أوسع من ذلك، فمن تلك المعرفة ما يتعلّق بالعلوم الظاهريّة الحصوليّة، وما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ (فاطر: ٢٨)، لا يقتصر على أصحاب العلوم اللدنّيّة، وبذلك تكون العلوم الحصوليّة الظاهريّة داخلةً ومقصودةً

---

(١) شرح أصول الكافي، مصدر سابق، باب الحبّ في الله والبغض في الله: ج٨ ص٣٣٩، الحديث رقم (١). أيضاً:

ـ تفسير روح المعاني، للعلّامة الآلوسي، مصدر سابق، سورة الجمعة، الآية: ١١.

(٢) يُنظر تفصيل المسألة في كتاب: معرفة الله، مصدر سابق: ج١، الفصل الأوّل.

للآية الشريفة، وإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك ـ فإنّه سيكون من الواضح جدّاً أنّ العلم يُوجب الخشية من الله تعالى، والخشية من الله تعالى بوّابة التطهير الكلّي من جميع الأمراض المعنويّة.

نعم، يجب أن لا تطلب تلك العلوم لغرضٍ دنيويٍّ، وإنّما تطلب لله تعالى وحده، فإذا ما طلبت لله تعالى ـ وهي علومٌ إلهيّةٌ حقّةٌ ـ فحاشا أن لا تكون تلك العلوم طريقاً مستقيماً لتزكية النفس وتطهيرها من الأمراض المعنويّة.

تنبيهٌ أوّل

لابدّ أن نلتفت إلى أنّ عرض هذه المطالب العالية لا يتقاطع مع الواقعيّة المطلوبة في هذه السلسلة الأخلاقيّة، بل هي منطلقةٌ من أصل تلك الواقعيّة المتوخّاة؛ لأنّنا نتعاطى مع الإنسان بكلّ فئاته ومستوياته، كما أنّنا أمام مسؤوليّة التعريف بالمستويات الارتقائيّة، ومن جملة هذه المستويات الارتقائيّة التعريف بالمستويات العالية من مسالك تهذيب النفس، والتي يقع في طليعتها مسلك «الحبّ الإلهيّ»، كما أنّ الوقوف عند المسلك الأدنى (المسلك الأوّل)، والمتوسّط (المسلك الثاني)، والعالي (المسلك الرابع)، والأعلى (المسلك الثالث)، له بعدٌ تعليميٌّ واضحٌ، وبُعدٌ معنويٌّ ارتقائيٌّ واضحٌ أيضاً.

تنبيه ثانٍ

ربّما يُقال بأنّ المسلك الأوّل (تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيويّة)، والمسلك الثاني (تهذيب الأخلاق من خلال الغايات الأخرويّة)، لهما ارتباطٌ وثيقٌ بالعلوم الحصوليّة، وبالتالي لا يبقى هنالك فرقٌ ملموسٌ

يميّز المسلك الرابع (العلم الحصولي) عنهما، أو قل: ما الذي سيُضيفه العلم الحصولي على ما تقدّم في المسلكين ـ الأوّل والثاني ـ ليستقلّ بنفسه، ويُعتبر مسلكاً من مسالك تهذيب النفس؟

والجواب عن ذلك: أنّنا في المسلك الأوّل والمسلك الثاني لم نكن نلاحظ الجانب العلمي والتنظيري، وإنّما كنّا نلاحظ الجانب العملي حصراً، ولذلك عبّرنا في المسلك الأوّل بأنّه: «يبتني هذا المسلك على حثّ الإنسان وإيجاد الداعي فيه إلى القيام بالأعمال الحسنة، وإلى إصلاح نفسه من خلال الجزاء والمصالح الدنيويّة من جاهٍ أو مالٍ أو ثناءٍ أو ذكرٍ حسنٍ، وعلى تحذيره من القيام بالأعمال السيّئة وذمّها من خلال بيان المساوئ والمضارّ الدنيويّة المترتّبة عليها»، فكان المنظور والمطلوب من المكلّفين فيه لغرض تهذيب النفس هو العمل نفسه.

وهكذا الحال في المسلك الثاني، فقد كان هو الآخر منظوراً فيه الجانب العملي لا غير، ولذلك قلنا فيه: «والذي يبتني على دعوة الإنسان وحثّه على الاتّصاف بالخصال الحسنة والحميدة، وعلى اجتناب العادات الرديئة والسيّئة، وذلك من خلال النظر إلى الجزاء الأخروي ثواباً أو عقاباً، فيأتي بالعمل الصالح والفعل الحسن، ويتّصف بمحاسن الأخلاق، ويجتنب عن المعاصي ومساوئ الأخلاق؛ طلباً للأجر الأخروي وهو الجنّة، والخلاص من العقوبة والنار»، فالإنسان المتأمّل في نفس الثواب والعقاب الأخروي ينتهي إلى القيام بالعمل الصالح، والانتهاء عن العمل الطالح.

وهذان ـ كما ترى ـ مسلكان يرشدان إلى الجانب العملي في مسيرة الإنسان، في حين أنّنا نلاحظ أنّ المنظور في المسلك الرابع (العلم الحصولي) هو نفس العلم، فالتفقّه في الدين في مجالاته كافّة لا يعدو الجانب النظري،

ونحن نرى بأنّ هذا الجانب العلمي النظري هو مسلكٌ تهذيبيٌّ بنفسه، وقلنا بأنّ مدّعي التفقّه في الدين إذا لم يكن ذلك منعكساً على تهذيب نفسه بشكلٍ إيجابيٍّ فهو ليس بعالمٍ، حيث قلنا هنالك: «فمَن كان عالماً بالعلوم الدينيّة فإنّه لابدّ أن تكون قد زكت نفسه، وطهر قلبه، وتخلّص من المعاصي والخطايا، وإلّا فإنّ ما تعلّمه ليس إلّا جهالاتٍ، وحاشا للعقل البرهاني والقرآن الوحياني والسنّة الشريفة أن تكون جهالاتٍ أو تورث جهالاتٍ، ولذلك فمَن ادّعى علماً من هذه العلوم الدينيّة وهو لا زال صريع الشهوات واللذّات وحبّ الدنيا فإنّه بجملةٍ واحدةٍ: «ليس بعالم» ، ولأجل أهمّيّة التفقّه في الدين وكونه طريقاً جليلاً للرقيّ الأخلاقي فقد حثّ العقل والقرآن والسنّة على تحصيل ذلك، وبهذا المنطق لابدّ أن نفهم بأنّ أولياء الله تعالى لا يمكن أن يكونوا غير متفقّهين في الدين البتّة».

كلماتٌ على طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، فالتقوى طريقٌ لتحصيل العلم، والعلم طريقٌ لتحصيل الحبّ، والحبّ طريقٌ للخلاص.
- عن جابرٍ الجعفي، عن الإمام محمّدٍ الباقر عليه السلام أنّه قال: «**إذا أردت أن تعلم أنّ فيك خيراً فانظر إلى قلبك، فإن كان يحبّ أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خيرٌ، والله يحبّك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحبّ أهل معصيته فليس فيك خيرٌ، والله يبغضك، والمرء مع من أحبّ**»[١].
- يقول الإمام الحسين عليه السلام: «**أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب**

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص١٢٦، الحديث رقم (١١).

أحبّائك، حتّى لم يحبّوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك»[(١)].

خلاصة الدرس

- الحبّ طريقٌ أمثل للخلاص من أخطر الأمراض المعنويّة.
- الدين هو الحبّ.
- حقيقة الحبّ مرتبطةٌ بعلاقة الإنسان مع الله تعالى، فحبّ الله هو الأصل.
- واقعيّة الحبّ الإلهيّ تجعل القلوب العامرة به مقتفيةً آثار الطاعات، ومنكبّةً عليها، ومترصّدةً لمواضع المعاصي، ومتوقّيةً منها.
- خصوصيّة إبداء المانع مع وجود المقتضي هي خصوصيّة المسلك الثاني (طلب الغايات الأخرويّة)، وأمّا المسلك الثالث (الحبّ الإلهيّ) فإنّه يقوم على أساس اقتلاع أصل وجود المقتضي في الإنسان.
- الحبّ الإلهيّ يجعل الإنسان يعيش واقعيّة التوحيد العملي أو الأفعالي.
- الإخلاص في الحبّ الإلهيّ هو أن لا يكون للقلب شاغلٌ حقيقيٌّ إلّا الله.
- الحبّ الإلهيّ الخالص لا تبقى معه خطيئةٌ ولا مرضٌ معنويٌّ إلّا وفُني.
- الحبّ الإلهيّ يُخرج الإنسان من عبادة العبيد إلى عبادة الأحرار.
- بوّابة الحبّ الإلهيّ مشرعةٌ للجميع، وغايته أنّه يشتمل على ضوابط وشروطٍ صعبةٍ ولكنّها ليست عسيرةً ولا مُحالةً.
- الغالب على الناس اتّباعهم مسلك الجزاء الأخروي في تهذيب أخلاقهم، وقليلٌ منهم مَن يسلك طريق الحبّ الإلهيّ كمسلكٍ للتهذيب.

---

(١) من دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام. (انظر: مفاتيح الجنان، للشيخ المحدّث عبّاس القمّي: ص٣٤١، نشر: دار الثقلين الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، بيروت).

- العلم الحصولي النظري هو الآخر طريقٌ ومسلكٌ لتهذيب النفس.
- مَن كان عالماً بالعلوم الدينيّة لابدّ أن تكون قد زكت نفسه، وطهر قلبه.
- مَن ادّعى علماً من العلوم الدينيّة وهو لا زال صريع الشهوات وحبّ الدنيا فإنّه ليس بعالم.
- لأجل أهمّية التفقّه في الدين وكونه طريقاً جليلاً للرقيّ الأخلاقي فقد حثّ العقل والقرآن والسنّة على تحصيله.
- يجب أن لا تطلب العلوم الدينيّة لغرضٍ دنيويٍّ، وإنّما تطلب لله تعالى وحده، فإن طلبت لله تعالى وحده صارت طريقاً فسيحاً لتزكية النفس وتطهيرها من الأمراض المعنويّة.

مذاكرة

- ما هي علاقة الدين بالحبّ؟ ما هي علاقة حقيقة الحبّ بالله تعالى؟
- ما الذي تؤدّي إليه واقعيّة الحبّ الإلهيّ؟
- ما الفرق بين مسلك «طلب الغايات الأخرويّة» ومسلك «الحبّ الإلهيّ» بالنسبة إلى وجود المقتضي للمعصية؟
- ما هي علاقة الحبّ الإلهيّ بنوع العبادة؟
- هل الحبّ الإلهيّ خاصٌّ بفئةٍ دون أخرى؟
- ما الذي يغلب على الناس في مسالك تهذيب النفس؟
- هل يمكن للعلم الحصولي أن يكون طريقاً ومسلكاً لتهذيب النفس؟
- هل يمكن أن يكون العالم الحقيقي صريعاً للشهوات وحبّ الدنيا؟
- لمن تطلب العلوم الدينيّة؟ وما هي نتيجة طلبها لله تعالى وحده؟

الدرس الرابع عشر

أخلاق الإنسان وصفاته في القرآن

(القسم الأوّل)

- أهداف الدرس
- تمهيد
- الأخلاق والصفات السلبيّة
- الأخلاق والصفات الإيجابيّة
- كلماتٌ على طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- مستويات أخلاق الإنسان وصفاته في القرآن.
- كون الأخلاق والصفات ذاتيّةً وكسبيّةً.
- الفرق بين العلم الحصولي والفطري قرآنيّاً.
- العلم في: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً...﴾.
- كون النسيان صفةً لازمةً للإنسان.
- مقام «في أحسن تقويم».
- كون الولاية لله وحده رافعةً للخوف والحزن.
- أشرف أنواع السخاء.
- المَواطن الخمسة التي تُعبّر عن أخلاقٍ عُليا يتحرَّك في ضوئها المؤمنون.
- علاقة واقعيّة الإيمان بالمواقف الصعبة.
- علاقة الاعتصام بالله بالإيمان الحقيقي، وبالصبر والثبات.

تمهيد

تناول القرآن الكريم حقيقة الإنسان من زوايا مختلفةٍ، وكلّ زاويةٍ تُقدِّم لنا بُعداً أخلاقيّاً أو تذكيراً بواقعيّةٍ لابدّ أن تمثل أمامنا دائماً، وهذه الأخلاقيّات والصفات يُمكن تقسيمها على أربع طوائف، هي:

الطائفة الأولى: الأخلاق والصفات السلبيّة.

الطائفة الثانية: الأخلاق والصفات الإيجابيّة.

الطائفة الثالثة: الأخلاق والصفات التي يدفعنا القرآن باتّجاه الاتّصاف بها.

الطائفة الرابعة: الأخلاق والصفات التي يربأ بنا القرآن عن الاتّصاف بها.

هذا إجمال المستويات الأربعة، وأمّا بيانها القرآني فستناول منها مستويين في هذا الدرس تاركين البحث في المستويين الأخيرين للدرس القادم.

الطائفة الأولى: الأخلاق والصفات السلبيّة

إنّ الأخلاق والصفات السلبيّة منها ما هو ذاتيٌّ في الإنسان، ومنها ما هو مكتسبٌ، والذاتيّة منها لا يُطلب فيها التخلّص منها؛ لعدم المكنة من ذلك، وإنّما يُراد من الإنسان أن يعي هذه الحقيقة ويسير في طريق الكمال والخلاص من الأثر السلبي للصفة، وأمّا المكتَسَبة منها فلابدّ من العمل على التخلّص منها والقضاء على آثارها؛ لأنّ هذه الصفات موجبةٌ لانحطاط الإنسان والإيقاع به في المهالك. ومن الصفات السلبية:

أوّلاً: الضعف والعجز والهلع والجزع

وهي من الصفات الذاتيّة للإنسان النوعي؛ حيث لا خلاص منها أبداً، قال تعالى: ﴿...وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ (النساء: ٢٨)، فالضعف في أصل خلقة الإنسان، والعجز خاصّيّته، ولذلك عليه الاستعانة بالقويّ القادر، وهذه الاستعانة أبديّةٌ؛ لأنّ الضعف ليس أمراً عارضاً على الإنسان ليتخلَّص منه، وإنّما هو حقيقته، وبحسب التعبير المنطقي: إنّه محمولٌ من صميمه لا بالضميمة.

وأمّا الهلع والجزع فصفتان وخُلقان لازمان للإنسان النوعي أيضاً؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾ (المعارج: ١٩ـ٢٠)، فهو سريع الاضطراب، قليل الصبر والتحمّل، كثير الشكوى، سريع السقوط؛ ولذلك جاء الإسلام ليعالج هذه الصفات من خلال ما يزرع في قلبه من الشجاعة والقوّة والأمن، وهذا ما تمنحه الصلاة الخاشعة، قال

تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج: ٢١ـ٢٣)، فالقائمون بالصلاة الدائمون عليها يمتلكون درعاً واقيةً تمنع عنهم نزوع النفس إلى المانعيّة.

ثانياً: العجلة

تقع العجلة في قبال التأنّي، وهي دليل الجهل وقلّة الحكمة؛ ولذلك نجد الله تعالى يُحبّ الصابرين الذين لا يعجلون في الحكم، ولا يعجلون في الجواب؛ فإنّ العجلة غالباً ما تُفضي للوقوع في الخطأ، حتّى أنّه لعجلته في الأمر تجده مندفعاً للدعاء بالشرّ على نفسه وعلى غيره كدعائه بالخير لنفسه، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ (الإسراء: ١١)، وعلاج العجلة ـ تهذيباً لا انتفاءً ـ إنّما يكون بواسطة أدب الصبر والتأنّي.

روي أنّ لقمان الحكيم عليه السلام دخل على النبيّ داود عليه السلام وهو يصنع الدرع، وكان أوّل إنسانٍ يصنع الدروع بعدما ليّن الله له الحديد كالطين، فأراد لقمان أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت، «فلما أتمَّ داود الدرع لبسها وقال: **نِعْمَ لبوس الحرب أنت**، فقال لقمان: **الصمت حكمٌ، وقليلٌ فاعله**، فقال له داود: **بحقٍّ ما سمّيت حكيماً**»[1].

ثالثاً: اليأس والفرح والفخر

وهي صفات التغيّر والتبدّل من حالٍ لحالٍ؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٨ ص٨٢؛ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، لأبي عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج١٤ ص٦١، نشر مؤسّسة التاريخ العربي، ١٤٠٥هـ، بيروت.

مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (هود: ٩ـ١٠)، فيدور بين يأسٍ كافرٍ وفرحٍ فخورٍ بطرٍ، والله تعالى لا يُحبّ هاتين الصفتين الأخيرتين؛ قال تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦)، وقال تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (النساء: ٣٦)، وهنا يحتاج الإنسان أن يتزوَّد بخصالٍ تساعده على مواجهة اليأس الكافر والفرح الافتخاري، وهي الثقة بما عند الله تعالى. والالتزام بحقيقة كون الأشياء في حوزتنا إنّما هي أماناتٌ تفرض علينا مسؤوليّةً جسيمةً، فإذا أراد الله تعالى أن يسلب منّا شيئاً منها فلازم ذلك هو الشكر؛ لأنّه تعالى رفع تكليفاً باسترداد الأمانة.

إنّ الإنسان المؤمن لا يصحّ منه وقوع اليأس، ولا أن يكون فرحاً بالمعنى القرآني؛ لأنّ المؤمن غير منقطع عن الله تعالى، فلا معنى لاجتياح اليأس قلبه، ولكنّه بصفته إنساناً ضعيفاً من حيث الخلقة والنشأة، قد تمرّ عليه ظروفٌ وابتلاءاتٌ تهزّ كيانه فيصيبه شيءٌ من اليأس والقنوط ، لاسيّما فيما إذا كان في طريق الإصلاح لنفسه، فالإنسان يحتاج إلى سنواتٍ طويلةٍ لكي يجني ثمار سيره وسلوكه، وليس من المنطقي أن يتوقّع أن ينقلب حاله من خلال أعمالٍ يسيرةٍ[1].

رابعاً: الخصام والجدل

إنّ قلّة التسليم لله تعالى تجعل من الإنسان خصيماً ومجادلاً ولو بغير حقٍّ، وما عرف التاريخ مخلوقاً أكثر جدلاً من الإنسان، فهو يُخاصم بباطله، ويُجادل بغير حقٍّ؛ قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (النحل: ٤) ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ

---

(١) يقال إنّ أحد العرفاء الكبار قد بقي في دائرة التحوّل في سيره وسلوكه قرابة الأربعين عاماً، وكان يضع في فمه حصاةً لكي لا يتكلّم بفضول الكلام، فبلغ بذلك مرتبةً كماليّةً رفيعةً.

﴿الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف: ٥٤).

فهو يشاهد الحقّ ويُعاين الحقيقة ولكنّه يتمرَّد على الحقّ والحقيقة، ويواجه ذلك باقتراحاتٍ عقيمةٍ، كما هو حال مشركي قريشٍ عند مواجهتهم لرسول الله صلّى الله عليه وآله؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ (الإسراء: ٩٠ـ٩٤)، والإنسان المعاصر ليس أقلّ جدلاً، فإنّ الألف واللام في كلمة «الإنسان» تفيد معنى الحقيقة والاستغراق، أي: حقيقة الإنسان جدليّةٌ، ونوع الإنسان جدليٌّ، وما ذلك إلّا لضعف خاصّيّة التسليم في النفس، وهذا ما يُفسِّر لنا ظهور الباطل واكتساحه لواقع الإنسان منذ أن عرف الإنسان حياته الاجتماعيّة.

وحيث إنّ الخصام والجدال صفتان تقودان الإنسان ـ في الأعمّ الأغلب ـ إلى مجانبة الحقّ وركوب الباطل، فإنّه يتعيَّن علينا مواجهة هذه الصفات، بمعنى الحدّ من تأثيرها، وذلك من خلال المراقبة الشديدة للنفس، فإنّ الإنسان عادةً ما يعيش الخصام والجدل في نفسه، وهو لا يعلم بأنّه بذلك يحوِّل ساعاته وأيّامه وسنواته إلى وقودٍ تحرقه نيران الخصومة والجدل بالباطل.

خامساً: الجهل والنسيان والإعراض عن شكر النعم

أمّا الجهل فهو النقص الذي يبقى ملازماً للإنسان ما دام لم يعرف نفسه ولم يعرف الله تعالى، وإنّما العيب في ديمومة الجهل، فالإنسان يولد وهو لا

يعلم شيئاً من العلم المركّب أو ما يسمَّى منطقيّاً بالعلم الحصولي[1]، قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (النحل: ٧٨)؛ فينبغي عليه طلب العلم وتحصيله، فبالعلم يكون الإنسان إنساناً شريطة الاقتران بالعمل؛ فإنّ عدم الاستواء بين العالم والجاهل الوارد في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (الزمر: ٩)، إنّما يخصّ العامل بعلمه، وإلّا صار مستخفّاً ومتهتّكاً[2]، فضلاً عن أنّ الشيطان لم يكن

(١) العلم علمان: بسيطٌ فطريٌّ ومركّبٌ كسبيٌّ، والأوّل لا يخلو منه إنسانٌ، ومنه ما يتعلَّق بمعرفة الله تعالى، إلّا أنّ الغفلة غالباً ما تكون مانعةً من الكشف عنه فيحتاج الأمر إلى مُنبِّهاتٍ تثير دفائن العقول، وهذا ما يقوم به الأنبياء عليهم السلام في مسائل التوحيد والمعاد فإنّهم لا يُؤسِّسون بقدر ما يكشفون عمّا اختزنته الفطرة الإنسانيّة، وهذا العلم البسيط هو من فصيلة العلم اللدنّي، إلّا أنّه مندمجٌ تحته بالمعنى العامّ، وأمّا العلم اللدنّي الخاصّ فقد اختصّ الله تعالى به أولياءه من الأنبياء والمرسلين والأئمّة عليهم السلام وبعض عباده الصالحين، قال تعالى: ﴿**فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً**﴾ (الكهف: ٦٥)، وأمّا العلم الثاني فإنّه وليد التحصيل، كما هو حال سائر العلوم التدوينيّة ـ الطبيعيّة وغير الطبيعيّة ـ فلا محصِّل لها بلا تحصيلٍ، وقد أشارت الآية الكريمة إلى خصوص العلم الحصولي لا البسيط، والشاهد على ذلك هو ما جاء في ذيل الآية حيث أعطت صورةً كاملةً عن وسائل العلم الحصولي، وهي السمع والأبصار والأفئدة (العقول)، وكما قيل في علم المنطق: «مَن فقد حسّاً فقد علماً»، أي: فقد علماً حصوليّاً، فما تلتقطه الحواسّ تكتنزه العقول في صورٍ ذهنيّةٍ، والمجموع كلّه لا يخرج عن دائرة العلم الحصولي. (منه دام ظلّه).

(٢) ورد في الخبر عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «**قصم ظهري عالمٌ متهتّكٌ وجاهلٌ متنسّكٌ، فالجاهل يغشّ الناس بتنسّكه، والعالم ينفّرهم بتهتّكه**». (منية المريد، للشيخ زين الدين بن عليّ العاملي (الشهيد الثاني): ص١٨١، تحقيق: رضا المُختاري، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدّسة.

جاهلاً، وإنّما كان غير مطيعٍ.

وأمّا صفة النسيان فهي صفةٌ لازمةٌ للإنسان، فذاكرته عاملةٌ فاعلةٌ ما دام يستشعر الحاجة لله تعالى، فيظلّ يدعوه دون مللٍ، فإذا ما أسبغ الله عليه نعمةً تعطَّلت ذاكرته وحضرت غفلته؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً...﴾ (الزمر: ٨)، فينسب النعم لغير الله تعالى، فيقول: فلانٌ أعطاني، وفلانٌ أغناني، ولولا فلانٌ ما مسَّني الخير أبداً، وغير ذلك من الأخطاء الفادحة على مستوى التوحيد العملي والأفعالي.

والأسوأ من ذلك كلّه أن يغفل الإنسان عن آيات الله وينساها، فعندئذٍ لابدّ له من المقابلة بالمثل في يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون؛ قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (طه: ١٢٦)، أي: كذلك اليوم تُترك.

وأمّا إعراضه عن شكر النعم فذلك ديدنه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾ (الإسراء: ٨٣)، وهذه السيرة المتواترة عن الإنسان جعلت العرفاء الشامخين يستقبلون الفقر بشعار: «مرحباً بشعار الصالحين»، ويستقبلون الغنى المادّي بشعار: «عُقوبةٌ عُجِّلت» ؛ لأنّهم يدركون جيّداً ما عليه الإنسان النوعي من الإعراض عن ذكر ربّه إلّا إذا ما نُعِّم، وكأنّه في تجارةٍ وربحٍ مادّيٍّ، كما أنّهم يدركون جيّداً جدوائيّة الابتلاءات في مسيرتهم السلوكيّة، بل ويُترجمون ابتلاءاتهم المتلاحقة بأنّها رسولٌ ناطقٌ بحبّ المولى سبحانه وتعالى لهم.

قال الإمام جعفرٌ الصادق عليه السلام: «**إنّ الله تبارك وتعالى إذا أحبَّ عبداً غتَّه بالبلاء غتّاً، وثجَّه بالبلاء ثجّاً، فإذا دعاه قال: لبّيك عبدي، لئن عجّلت لك**

ما سألت إنّي على ذلك لقادرٌ، ولئن ادّخرت لك فما ادّخرت لك فهو خيرٌ لك»[1]، فتأخير استجابة ما أراده العبد هو عين الاستجابة، فضلاً عن المدَّخر له، فيكون جامعاً للأمرين معاً.

سادساً: الظلم والكفر والغرور والبخل

قال تعالى: ﴿...إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: ٦)، وجمع الظلم والغرور قولاً وفعلاً كما جاء في قوله تعالى: ﴿...إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً﴾ (فاطر: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ (الإسراء: ١٠٠)، وما ذلك إلّا لحبّ الدنيا وشدّة الغفلة عن الموت، بل الإنسان يُصدِّق أنّ أمّه وأباه وأخاه وابنه يموتون، ولكنّه لا يصدِّق أنّه سيموت، فتمرّ عليه أخبار قوافل الموتى يوميّاً فيُحوقل وقلبه مشغولٌ بدنياه، وكما قيل في الحكمة: «دفنوهم ولم يتّعظوا»، ومَن يفعل ذلك غير الإنسان؟!

قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (عبس: ١٧)، فما أسوأ هذا الظلم والكفر بالنعم، والغرور بالدنيا، ولعلّ الأسوأ من ذلك هو أن يفخر الإنسان بظلمه وكفره وغروره، وقد يبلغ بالإنسان مسافاتٍ من الغفلة تجعله وهو على فراش الموت لا يتّعظ بمرضه، وإنّما يحنّ لأيّام ظلمه وكفره وغروره!! ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (المدّثّر: ١٩ـ٢٠).

إنّ هذه الأمراض الخطيرة تسلب من الإنسان إنسانيّته وتجعله في مهبّ

---

(١) أصول الكافي، مصدر سابق: ج٢ ص٢٥٣ ح٧. وقوله:«غتَّه» أي: غمسه. والباء بمعنى «في»، وأمّا الثجّ: فهو سيلان دماء الهدي والأضاحي، و «ثجَّه» أي: أَسَالَهُ.

عواصف الخطايا والمعاصي الجسام، ولا يبعد أن تعصب به خطايا الظلم فتلقي به في غيابة الشرك والكفر، فلا يبالي بعدها بما يقع منه على أهله والناس أجمعين، ولذلك فإنّ الأثر الوضعي المباشر للظلم هو الخيبة؛ قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ (طه: ١١١)، وأعظم الظلم هو الشرك بالله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِإِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، ولذلك لابدّ من الحذر الشديد من هذه الأمراض القاتلة والأوبئة الفتّاكة، والظلم يُرفع بإرجاع الحقوق إلى أهلها، والكفر والشرك والشكّ أمراضٌ علاجها اليقين والإيمان والعمل الصالح، وأمّا الغرور[١] فمنشؤه المال والسلطان وإقبال الدنيا على الإنسان، فيستسلم لضعفه ويظنّ أنّ ما أصابه من خيرٍ ومتاعٍ هو منحةٌ له، فيغترّ بما عنده، وعلاجه المباشر هو: «أن يعرف أنّ إقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان دون الكرامة والإحسان، والتجرّد منها سبب الكرامة والقرب إلى الله سبحانه، والطريق إلى هذه المعرفة: إمّا ملاحظة أحوال الأنبياء والأولياء وغيرهما من طوائف العرفاء وفِرق الأتقياء، أو التدبّر في الآيات

---

(١) الغرور هو: «سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهةٍ وخدعةٍ من الشيطان، فمَن اعتقد أنّه على خيرٍ إمّا في العاجل أو في الآجل عن شبهةٍ فاسدةٍ، فهو مغرورٌ، ولمّا كان أكثر الناس ظانّين بأنفسهم خيراً، ومعتقدين بصحّة ما هم عليه من الأعمال والأفعال وخيريّته، مع أنّهم مخطئون فيه، فهم مغرورون. مثلاً: مَن يأخذ المال الحرام وينفقها في مصارف الخير، كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها، يظنّ أنّ هذا خيرٌ له وسعادةٌ، مع أنّه محض الغرور؛ حيث خدعه الشيطان وأراه ما هو شرٌّ له خيراً، وكذا الواعظ الذي غرضه الجاه والقبول من موعظته، يظنّ أنّه في طاعة الله، مع أنّه في المعصية بغرور الشيطان وخدعته». (جامع السعادات، مصدر سابق: ج٣ ص٢).

والأخبار»[1]، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ المؤمنون: ٥٥ـ٥٦)، ولم يلتفت الإنسان لشدّة غفلته عن كون هذه الخيرات ليست سوى امتحانٍ واستدراجٍ؛ قال تعالى: ﴿...سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٢)، وليتنا نتأمّل قليلاً ونتّعظ بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: ٤٤).

وأمّا البخل فعلاجه الجود والسخاء، وأشرف السخاء هو العفو والتسامح عن ظلم الآخرين لك، وأن تسقط حقوقك المادّيّة والمعنويّة عمَّن لا يقدر على سدادها إليك، وأقلّ ذلك أن تقابله بالتغافل عن حقِّك بدلاً عن الإلحاح بالمطالبة.

سابعاً: الطغيان والكنود

ما إن يخرج الإنسان عن حدِّ الاعتدال في حاجاته المادّيّة إلّا وعلا صوت الطغيان في قوله وفعله؛ قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: ٦ـ٧)، ويعلو فيه صوت النكران والجحود؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: ٦)، فهو كفورٌ جاحدٌ بنعمة الله تعالى، وهي صفاتٌ بذيئةٌ جدّاً، تحطّم عُرى الإيمان لبنةً لبنةً، ولا تُبقي من القلب سوى هيكلٍ خاوٍ على ظلماته، ولا ريب أنّ الجحود كاشفٌ عن الوقاحة وانعدام الحياء، والإنسان إذا لم يستحِ يصنع ما يشاء؛ إذ لا رادع ولا مانع، ولذلك فمثل هذه الأمراض إذا ما استفحلت فعلاجها عسيرٌ، وكلّما سارعنا في ردع غلوائها كنّا على مقربةٍ من الخلاص والنجاة من براثنها.

---

(١) جامع السعادات، مصدر سابق: ج٣ ص٧.

وهنا على الإنسان أن يستحضر قدرة الله تعالى، ويقارنها بعجزه، فإن تأمّل في ذلك، لا يجد لطغيانه مبرّراً، وهكذا إذا ما استحضر نعم الله تعالى، من قوّةٍ في بدنه أو كثرةٍ في ماله أو نفوذ سلطانه، وغير ذلك ممّا يتمتّع به من عيشٍ رغيدٍ ورخاءٍ وسعةٍ، وكيف أنّ ما تمتّع به في الأيّام السالفة قد زال ولم يبقَ منه سوى الذكرى، وكيف أنّ ما عنده مصيره هو مصير ما فات منه، فكم أكلنا؟ وكم شربنا؟ وكم لبسنا؟ وكم تمتّعنا؟ ولكن أين آل كلّ ذلك؟!

بهذه الوقفات والتأمّلات والاستجابة للقراءة الموضوعيّة للواقع المرير، في كون كلّ ما عندنا مصيره الزوال، سنكون قد قطعنا نصف الطريق في العثور على جادّة الخلاص من هذه الأمراض والأوبئة القاتلة.

ثامناً: التسفّل دون الأنعام

قال تعالى: ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ (التين: ٥)، والأسفل في مقامه المعرفي والمعنوي هو الحيوان الذي لا يفقه، إلّا أنّ الإنسان لا يتوقّف سيره السفلي عند ذلك، فيذهب بتسفّله بعيداً ليكون أسفل من الحيوان نفسه؛ قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ (الأعراف: ١٧٩)، وليس أمام الإنسان السويّ المُبصر لتسفّله سوى المضيّ إلى الرقيّ في مراتب مقام الأحسنيّة، وكلّ يوم يمرّ لا نكون فيه أفضل من الأمس فنحن في تسفّلٍ وانحدارٍ، بل وكلّ يومٍ لا نتوب فيه من قصورنا فنحن في تسفّلٍ، بل وكلّ يومٍ لا نندم فيه على ما فات منّا من توهّمٍ وزيفٍ وقصورٍ، ولا تكتوي قلوبنا بلوعة الماضي المتدنّي، فنحن في تسفّلٍ أيضاً[1].

---

(١) اللّهمّ نسألك ونتوسّل إليك أن ترفع عنّا ركام الماضي، وأن تبدله بتوبةٍ نصوحٍ تستمدّ

هذا هو موجزٌ مُيسَّرٌ عن صفات الإنسان السيّئة التي تعرَّض لها القرآن الكريم، ولا ريب أنّ هنالك أخلاقاً وصفاتٍ سلبيّةً أُخرى أرجأنا الحديث عنها إلى مناسبةٍ أخرى، ولعلَّ بعضها مرَّ علينا في بحوثٍ سابقةٍ، وسيمرّ علينا بعضها الآخر في طيِّ الأبحاث القادمة.

الطائفة الثانية: الأخلاق والصفات الإيجابيّة

بعد تلك الجولة الموجزة حول الأخلاق والصفات السلبيّة للإنسان التي تعرّض لذكرها القرآن الكريم، ناسب أن يكون البحث بعدها في الصفات الإيجابيّة التي ورد ذكرها أيضاً في القرآن الكريم، وهذه الصفات كثيرةٌ أيضاً، وهي مستمدّةٌ من الأخلاق والصفات الإلهيّة الكبرى، وقد عرفنا بأنّ الأخلاق في أثرها الخارجي تكون سلوكاً، وفي انطباعها في القلب تكون صفاتٍ، ونحن مأمورون بالاتّصاف بصفات الله تعالى وبأثرها الخارجي وهو الأخلاق والسلوك، وبالتالي فإنّ الأخلاق بمعناها السلوكي والصفات بمعناها القلبي المنسوبة لله تعالى، لا حصر لها؛ فالله سبحانه مطلقٌ في مساحة صفاته، في مداها الأُفقي (عددها)، وفي مداها الطولي (مساحة كلّ صفةٍ)، أو قل: هو مطلقٌ في صفاته في العدد والمعدود، ولكنَّ هذا لا يعفينا من التعرّض للقليل منها؛ تقريباً للصورة وواقع الحال.

أوّلاً: مقام أحسن تقويمٍ

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤)، وهو مقام الخلافة الإلهيّة الذي يقتضيه الاستعداد الإنساني، فخلافة الإنسان لله تعالى هي المقام الإلهيّ والقرآني الذي ارتضاه الله تعالى للإنسان القويم، إلّا أنّ

حرارتها من دموعنا الحرّى، وقلوبنا الصرعى.

الإنسان غالباً ما يسوقه وهمه إلى تصوّراتٍ خاطئةٍ، فيفارق مقامه ظنّاً منه بأنّ بريق المادّة سيروي غليله، ويُطفئ لهيب عطشه المعرفي والمعنوي، ولكن ما هو إلّا سرابٌ بقيعةٍ؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩)، وسوف يمرّ على الإنسان موقفٌ تصعقه الدهشة وهو يُعاين ما أودعه الله تعالى فيه من قوىً وإمكاناتٍ مادّيّةٍ ومعنويّةٍ واستقامةٍ باطنيّةٍ في أوّل نشأته، وسيُصيبه من الندم والحياء الشديد ما تتحطّم له القلوب، وقد قيل بأنّ الخجل كلّه ليوم القيامة، لاسيّما وهو يعاين مخلوقاتٍ لم تُخلق في أحسن تقويمٍ، ولكنّها حشرت، وهي أشرف منه مرتبةً !! فواحسرتاه، ثمّ وامصيبتاه، وستمضي الحسرات واللوعات أدراج الرياح: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (ص: ٣)، يستغيثون ولكنّ الوقت ليس وقت قَبول توبةٍ، ولا وقت فرارٍ وخلاصٍ ممّا أصابهم.

ثانياً: الولاية لله وحدَه، الرافعة للخوف والحزن

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ (الكهف: ٤٤)، وقوله تعالى: ﴿...فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٩)، وهذه الولاية الحقّة أثرها الوضعي رفع مطلق الخوف والحزن عن الموالين؛ قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢)، وهذا مقامٌ رفيعٌ، ومن المؤسف والمؤلم أن يتنازل الإنسان عن مقامه هذا ويتسفّل إلى ما دون الأنعام ! وهل يرتضي المنطق السليم أن يأتي الإنسان يوم القيامة وهو وليٌّ للمال والمنصب والجاه؟! وهل يكون من المناسب أن يُبدل الإنسانُ الجوهرَ الفردَ بركامٍ حقيقته الوهم والزيف؟!

إنّ هذه الكلمات لا نطلقها ونريد بها الموعظة، وإنّما نريد بها تقرير حقيقةٍ واقعةٍ وستقع لكثيرٍ من بني الإنسان، فمتى نتعلّم الطريق؟ ومتى نقرّ بتقهقرنا القديم والجديد؟ ومتى نتعلّم كيف نعيش للحقّ كما تعلّمنا العيش للباطل؟

ثالثاً: إقامة العبادات طاعة لله تعالى

قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (التوبة: ٧١)، وهنا خمسة مواطن تُعبّر عن أخلاقٍ عُليا يتحرَّك في ضوئها المؤمنون والمؤمنات، وهي:

الموطن الأوّل: الأمر بالمعروف، وحريٌّ به أن يأمر نفسه بذلك وأهله والأقربين، فلا يطلب من الناس ما هو فاقدٌ له، والمعروف ما كان طريقاً لمعرفة الحقّ سبحانه، وليس لمجرّد معروفيّته بين الناس، فكثيرٌ من الناس لا تبالي بواقعيّة المعروف بقدر مبالاتها بمصالحها الخاصّة.

الموطن الثاني: النهي عن المنكر، وهو مواكبٌ ومرافقٌ للأمر بالمعروف، ولكنّه قد يكون فيه صعوبةٌ أكبر من الأمر بالمعروف نفسه؛ لأنّ الكثير من الناس لا ترتضي لنفسها أن توصف أو أن ترمى بالمنكر ليقع عليها النهي، ولعلّ النهي عن المنكر هو عينه ما يكون في مقام التخلية، كما أنّ الأمر بالمعروف هو عينه ما يكون في مقام التحلية، والتخلية أكثر صعوبةً من التحلية.

الموطن الثالث: إقامة الصلاة، وإقامتها يعني الإتيان بشروطها، فإذا نهتنا صلاتنا عن الفحشاء والمنكر نكون قد أقمنا الصلاة، وإلّا فهي مجرّد صورةٍ شاحبةٍ، وثوبٍ تستـَّرنا به أيّاماً لنوهم الآخرين بأنّنا من المصلّين، ولسنا كذلك.

الموطن الرابع: إيتاء الزكاة، والزكاة أعمّ من مصداقها الأبرز الكامن في الحقوق المادّيّة، فهي تشمل زكاة العلم والعمل. فما كان لك من علمٍ نافعٍ، عليك نشره وإيصاله إلى أهله، وما كان لك من عملٍ طيّبٍ تنتفع به فعليك أن تشمل به أخاك الإنسان، ولو برفع الأذى عن جادّة الطريق.

الموطن الخامس: إطاعة الله والرسول، ومن هذه الطاعة الرضا بالمقدور، وكفّ النفس البائسة عن الاعتراض والتمنّي، ومن هذه الطاعة أيضاً اتّخاذ الرسول صلّى الله عليه وآله قدوةً وأسوةً.

فإن اشتمل المؤمن على هذه المواطن الخمسة، كان أهلاً للرحمة الإلهيّة الخاصّة والخالصة: ﴿**أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

رابعاً: اشتداد الإيمان والإقدام في العسر والشدائد

وهذا الخُلق الرفيع يكشف لنا عن واقعيّة الإيمان وهويّته الحقّانيّة؛ قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ (آل عمران: ١٧٣)، وأنّى هذا الموقف الإيماني العظيم من زلزلة القلوب المُشار إليها في قوله تعالى: ﴿**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾ (الأحزاب: ١٠)؛ حيث بلغ بهم الخوف إلى أن يسيئوا الظنَّ بالله تعالى.

إنّ واقعيّة الإيمان عادةً ما تتجلّى في المواقف الصعبة، حيث يكتشف الإنسان معدنه، وهذه المواقف الصعبة لا تنحصر في الشدائد المتعارف عليها، والتي يُسمّيها القرآن بالضرّاء، وإنّما هي تشمل السرَّاء أيضاً، ففي السرّاء والرخاء ابتلاءٌ من نوعٍ آخر، ففي الضرّاء يكون الصبر والرضا بالحال، وفي السرّاء يكون الشكر والأداء، ولعلّ الشاكر في السرّاء والرخاء

هو أقرب إلى الله تعالى من الصابر في الضرّاء، فإنّ المبتلى بالضرّاء لا يملك غير التحمّل والصبر، وأمّا المبتلى بالسرّاء والرخاء فإنّه على محكٍّ مع صور الطغيان، فيكون الشكر وأداء الحقوق هو العمل الرادع للزيغ والطغيان.

إنّ الاعتصام بالله تعالى من أعاظم عرى الإيمان الحقيقي، كما أنّه من أركان الصبر والثبات، ولذلك إذا أصاب المعتصم بالله تعالى بلاءٌ قال: حسبي الله حسبي.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨)، وشتَّان بين الوعدين منهما، وشتَّان بين الطاعتين منّا، والإنسان على نفسه بصيرةٌ.
- ممّا جاء في وصيّةٍ لرسول الله صلّى الله عليه وآله لأبي ذرٍّ الغفاري: «يا أبا ذرّ، أتحبّ أن تدخل الجنّة؟ قلت: نعم فداك أبي، قال: **فاقصر من الأمل، واجعل الموت نصب عينك، واستحِ من الله حقّ الحياء**، قال: قلت يا رسول الله، كلّنا نستحي من الله، قال: **ليس كذلك الحياء، ولكنّ الحياء من الله أن لا تنسى المقابر والبلى، والجوف وما وعى، والرأس وما حوى، فمَن أراد كرامة الأجر فليدَع زينة الدنيا، فإذا كنت كذلك أصبتَ ولاية الله**»[1].

خلاصة الدرس

- الصفات السلبيّة منها ما هو ذاتيٌّ في الإنسان، ومنها ما هو مكتسبٌ.
- الضعف والعجز والهلع والجزع من الصفات الذاتيّة للإنسان النوعي.

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي، مصدر سابق: ص٥٣٤.

- العجلة دليل الجهل، وقلّة الحكمة، وعلاجها بالصبر والتأنّي.
- يحتاج الإنسان إلى سنواتٍ طويلةٍ ليجني ثمار سيره وسلوكه.
- الخصام والجدال يقودان الإنسان إلى مجانبة الحقِّ وركوب الباطل.
- عدم الاستواء بين العالم والجاهل إنّما يخصّ العامل بعلمه.
- الأسوأ من الظلم والكفر بالنعم والغرور بالدنيا هو أن يفخر الإنسان بظلمه وكفره وغروره، وأن يحنّ لأيّام ظلمه وكفره وغروره .
- يُرفع الظلم بإرجاع الحقوق إلى أهلها، وأمّا الكفر والشرك والشكّ فعلاجها اليقين والإيمان والعمل الصالح.
- أشرف السخاء هو العفو والتسامح عن ظلم الآخرين لك، وأن تُسقِط حقوقك المادّيّة والمعنويّة عمَّن لا يقدر على سدادها إليك.
- كلّ يومٍ لا نندم فيه على ما فات منّا من توهّمٍ وزيفٍ وقصورٍ، ولا تكتوي قلوبنا بلوعة الماضي المتدنّي، فنحن في تسفّلٍ.
- مقام «أحسن تقويمٍ» هو مقام الخلافة الإلهيّة الذي يقتضيه استعدادنا.
- سيمرّ على الإنسان موقفٌ تصعقه الدهشة وهو يُعاين ما أودعه الله تعالى فيه من قوىً وإمكاناتٍ مادّيّةٍ ومعنويّةٍ واستقامةٍ باطنيّةٍ في أوّل نشأته.
- الأثر الوضعي للولاية الحقّة هو رفع مطلق الخوف والحزن عن الموالين.
- هنالك خمسة مواطن تُعبّر عن أخلاقٍ عُليا يتحرَّك في ضوئها المؤمنون والمؤمنات، هي: «الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الله والرسول».
- إذا اشتمل المؤمن على هذه المواطن الخمسة فهو أهلٌ للرحمة الإلهيّة.
- تتجلَّى واقعيّة الإيمان في المواقف الصعبة التي لا تنحصر في الشدائد

المتعارف عليها، وإنّما هي تشمل حالات الرخاء والسرّاء أيضاً.

- الاعتصام بالله من عرى الإيمان الحقيقي، ومن أركان الصبر والثبات.

مذاكرة

- ماذا نعني بالصفات السلبيّة الذاتيّة والمكتسبة؟
- الضعف والعجز والهلع والجزع من أيِّ أنواع الصفات هي؟
- ما الذي يمتلكه القائمون بالصلاة، الدائمون عليها؟
- العجلة دليل أيّ شيءٍ؟ وكيف تعالج؟
- هل يمكن أن يجني الإنسان ثمار سيره وسلوكه من خلال أعمالٍ يسيرةٍ؟
- إلى أيّ شيءٍ يقود الخصام والجدال؟
- من هو العالم الذي لا يستوي مع الجاهل؟
- ما هو الأسوأ من الظلم والكفر بالنعم والغرور بالدنيا؟
- كيف يُرفع الظلم والكفر والشرك والشكّ؟
- ما هو أشرف أنواع السخاء؟
- ما هو مقام «أحسن تقويمٍ»؟
- ما هو الأثر الوضعي للولاية الحقّة؟
- ما هي المواطن الخمسة التي تُعبّر عن أخلاقٍ عُليا؟ وما الذي يجنيه المشتمل عليها؟
- متى تتجلّى واقعيّة الإيمان عادةً؟
- ما هو أعظم عرى الإيمان الحقيقي؟ وما علاقته بالصبر والثبات؟

الدرس الخامس عشر

أخلاق الإنسان وصفاته في القرآن

(القسم الثاني)

- أهداف الدرس
- تمهيد
- أخلاقٌ وصفاتٌ يدفعنا القرآن باتّجاه الاتّصاف بها
- أخلاقٌ وصفاتٌ يربأ بنا القرآن عن الاتّصاف بها
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- أهمّيّة الطهارة وتكرار التوبة في طريق إصلاح النفس وتهذيبها.
- علاقة القسط والعدل بالأمن والطمأنينة.
- مطلوبيّة إتقان العمل ومحبوبيّته.
- علاقة الخيانة بالاعتداء، وكون الخيانة تُوجب الخسران المبين.
- التداخل بين الإسراف والفساد والإفساد.
- علاقة الجهر بالسوء بهدر الكرامات.
- كون التواضع رداء الأنبياء، وأنّ التكبّر رداء الشيطان.

تمهيد

سنتناول في هذا الدرس ـ المتمّم للدرس السابق ـ الطائفتين الثالثة والرابعة من أخلاق الإنسان في القرآن. فالثالثة هي الأخلاق والصفات التي يدفعنا القرآن باتّجاه الاتّصاف بها، فيكون إحرازها هدفاً قرآنيّاً، والرابعة تمثّل الأخلاق والصفات التي يحذّرنا القرآن من الاتّصاف بها، فيكون نفيها والانتهاء عنها هدفاً قرآنيّاً، وهذه الأخلاق بمستوييها تمثّل خطّي التخلية والتحلية، وقد قدّمنا صفات التحلية؛ نظراً لاشتمالها على الطهارة والتوبة، وهاتان صفتان سابقتان على كلّ صفةٍ، أي: قبل المضيّ بالتخلية من الصفات البذيئة لابدّ لنا من الطهارة والتوبة.

وقد راعينا في هاتين الطائفتين درج أهمّ الصفات، وإلّا فهنالك صفاتٌ أُخرى مضاعفةٌ، وهي مهمّةٌ أيضاً، ولكنّنا وجدنا الكفاية في هذا

العرض الموجز، وقد راعينا التوجّه القرآني في تكثيف معاني الفكرة، والوضوح في العرض، ولم نتّجه نحو الاستغراق في بيان النكات التفسيريّة؛ فالهدف هو تعليميٌّ، وليس تفسيريّاً.

الطائفة الثالثة: أخلاقٌ وصفاتٌ يدفعنا القرآن باتّجاه الاتّصاف بها

أوّلاً: الطهارة

إنّ الطهارة بأقسامها سبيل مغادرة كلّ سوءٍ، لذلك فهي محبوبةٌ لله تعالى؛ قال تعالى: ﴿...وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨)، وأمّا المُطهَّرون ـ اسم المفعول ـ فهم محبوبون لله، فطهارتهم تُساوق عصمتهم، وإنّما الكلام في المطهِّرين ـ اسم الفاعل ـ فهؤلاء يُلحقهم الله سبحانه بالمطهَّرين من حيث المحبوبيّة في تحصيلهم للطهارة، وهذا التطهير تارةً يُراد به البدن والثياب، وهو أمرٌ يندب له العقل والشرع، وأخرى يُراد به العقل والقلب، فتطهير العقل من الشبهات، وتطهير القلب من الشكوك والأمراض المعنويّة، كلّ ذلك أمرٌ مطلوبٌ في نفسه، وبحسب إطلاق الآية فإنّ المراد جميع هذه الأُمور، كما أنّ التطهير يتعلّق بأعضاء الجسم، بنحوٍ لا يخلو عضوٌ واحدٌ من ضرورة التطهير، حيث تطهير العين من النظر إلى عورات الناس، وهذه العورات تشمل حتّى العيوب الظاهريّة، فلا تُبصر العين للعين المعابة، ولا لليد المقطوعة، وهكذا، فضلاً عن عدم نظرها إلى مطلق المحرّمات، سواءً عينيّةً خارجيّةً أو صورةً مرئيّةً، وتطهير الأذن من استراق السمع الحرام، وتطهير الأنف من شمّ الروائح المنبعثة من الموادّ المحرّمة، بل تطهيره من استنشاق الهواء في الفضاءات المغصوبة، وتطهير الفم من النطق بالحرام مطلقاً، بل وتطهيره عن مطلق الهذر والثرثرة والكلام الزائد، وتطهير اللسان

من تذوّق الأطعمة والأشربة التي هي محلّ شبهةٍ فضلاً عن المحرّمة.

وهكذا الحال في اليد والقدم والأعضاء المادّيّة الأخرى، فلا تمسّ اليد شيئاً مغصوباً، ولا تمتدّ لشيءٍ تحوم حوله الشبهات، بل لابدّ أن تُعوّد على مسّ الأشياء الطاهرة النقيّة، من قبيل إمرارها على كلمات الله في القرآن الكريم، فذلك موجبٌ لآثارٍ طيّبةٍ كثيرةٍ، ولا تقع القدم على موضعٍ مشبوهٍ فضلاً عن المحرّم، بل لابدّ أن تتعوّد المسير والمكوث في الأماكن الطاهرة، من قبيل المساجد والمراقد الطاهرة، ويُفضّل أن يُخصَّص في البيت مكانٌ محدودٌ لا تخطو فيه خطوةً إلّا وأنت على طهارةٍ، فتطيل المكوث فيه.

ثانياً: التوبة

إنّ التوبة ترياقٌ تنجلي به غبرة ذنوب الماضي، وهي تكراريّةٌ؛ لعدم الخلوّ من الوقوع في الذنب أو الخطأ، وتكرارها مطلوبٌ ومحبوبٌ؛ قال تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ...﴾ (البقرة: ٢٢٢).

ولا يغترّ الإنسان بطول عباداته وحسنها فيظنّ بأنّه قد تجاوز مقام التوبة، فالتوبة مقامٌ لا يغادره الإنسان حتّى إن صار من أولياء الله الصالحين؛ لأنّ المكوث في كلّ مقامٍ دانٍ وعدم المضيّ لمقامٍ عالٍ، يحتاج من الماكث إلى توبةٍ جديدةٍ، بل حتّى في صورة وصوله لمقامٍ عالٍ، عليه أن يعلن التوبة والاستغفار من مقامه الآنف، وهذه معانٍ سلوكيّةٌ وعرفانيّةٌ رفيعةٌ، لا يدرك كنهها إلّا مَن قطع أشواطاً طويلةً من السير والسلوك.

ثمّ إنّ التوبة لا تكون كذلك إلّا بشروطها الثلاثة، وهي الإقرار بالذنب، والتحسّر والبكاء على وقوعه منه، والعزم على عدم العود.

وهنا لابدّ من التنبيه إلى نكتةٍ دقيقةٍ تساعد كثيراً على تحقيق التوبة

النصوح، وهي أن يقطع التائب حبال التسويف، وأن لا يستهين بأقلّ الذنوب، فالإنسان لا يعلم أيّ الذنوب قد هوت به في وادٍ سحيقٍ، وأيّ توبةٍ سترتقي به سلّم الكمال، فلا يترك ذنباً إلّا وتاب عنه، ومن تلك الذنوب الخفيّة: طلب العلم لأغراضٍ دنيويّةٍ، والإتيان بالعبادات لأغراضٍ دنيويّةٍ، بل والإتيان بالأعمال الصالحة لاصطياد الدنيا، فمن ذلك ما يكون من الكبائر التي تهوي بالإنسان في قعر جهنّم.

ثالثاً: التقوى

في التقوى انطفاء بريق الخطايا، وهي خير زادٍ يحفظ الظاهر والباطن منّا من السوء والفحشاء، ولذلك فهي محبوبةٌ لله تعالى؛ قال تعالى: ﴿**بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ (آل عمران: ٧٦)، والتقوى واحدةٌ من ثمار الطهارة القلبيّة، فمَن كان قلبه ملوّثاً بالذنوب والخطايا والشبهات لن يجد الطريق للتقوى قبل الخلاص من براثن تلك المعاصي، فالتقوى صفةٌ إلهيّةٌ عظيمةٌ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ (المدّثر: ٥٦)، ولذلك فإنّ التقوى لا تتّصف بها القلوب الخربة، ولأنّ التقوى وقاءٌ للإنسان من السقوط في المعاصي كان الحثّ القرآني عليها بليغاً، وحيث ورد ذكر التقوى في عشرات الآيات، حتّى أنّها جُعلت غايةً لأصل العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ٢١)، وجعلت هدفاً صريحاً لأهمّ العبادات والفرائض، كما في الصوم؛ لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٣)، وكفى بالتقوى أن تكون للإنسان خير زادٍ

له في الدنيا، وخير إرثٍ وباقية له في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿...**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ (البقرة: ١٩٧). وكفى بها أن تكون علّةً لقبول الأعمال؛ قال تعالى: ﴿...**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ (المائدة: ٢٧).

رابعاً: الإحسان

إنّ الإحسان صفة الأحرار من عبوديّة الذات والأنا، والله تعالى يُحبّ أن نرتدي ثوب الحرّيّة والعتق من الأغيار؛ قال تعالى: ﴿...**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (البقرة: ١٩٥)، وقد جُبلت النفوس على الميل للإحسان والمحسنين؛ لأنّ في الإحسان تجاوزاً عن الأخطاء، ولذلك أمر الله تعالى رسوله صلّى الله عليه وآله بالعفو والصفح؛ قال تعالى: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (المائدة: ١٣)، وعليك بالعفو والصفح بالقدر الذي تُحبّ أن يُعفى به عنك ويُصفح، وإيّاك والوقوع في زحمة التشدّد وبراثن التعصّب، فالتعصّب للعقوبة في غير حقوق الله تعالى ما هو إلّا من بقايا حبّ الدنيا، فطوبى للعافين عن الناس؛ قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (آل عمران: ١٣٤)، وليس من العدل بحقّ النفس والناس أجمعين أن تُعاقب المُسيء على كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، فذلك من سوء الأدب، ومن النزوع إلى ملكة البخل والشحّ القابعة في النفس.

خامساً: القسط والعدل

إنّ القسط والعدل مطلبان إنسانيّان يجلبان الأمن والطمأنينة، والله تعالى يُحبّ فينا أن نكون طريقاً في توفير الأمن والطمأنينة، ولذلك فالقسط والعدل مطلوبٌ حفظهما وتحقيقهما حتّى مع الخصوم؛ فذلك أقرب للتقوى،

كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨)، ولذلك يُحبّ الله تعالى أن نكون متخلّقين بصفة القسط؛ قال تعالى: ﴿...وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة: ٤٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ...﴾ (النحل: ٩٠)، ومن العدل والقسط أيضاً: أن تعفو وتصفح بالقدر المستطاع، فذلك ليس من الإحسان فحسب، بل هو من العدل ابتداءً، فإنّك لا تدري في معاقبتك للمسيء قد تكون وقعت في الظلم وأنت لا تعلم.

سادساً: الصبر

في الصبر تكمن الغلبة والظفر؛ قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦)، فالصبر هو سرّ الثبات ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾، وعدم الاستسلام ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، والغلبة والظفر، فهم ربّيون، والربّيون هم جند الله تعالى، ومعقودٌ بنواصي خيولهم النصر؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافّات: ١٧٣)، ولكون الصبر هو مفاتح كلّ نصرٍ وسرّه فقد حثّ الشارع المقدّس على الاتّصاف به؛ قال تعالى: ﴿...وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)، ولهم البشرى على صبرهم في تحمّل البلاء في سبيل الله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥)، وإنّما صار لقمان الحكيم حكيماً لأنّه كان صبوراً، وقد مرّت علينا قصّته مع نبيّ الله داود عليه السلام، وكيف استعان بالصبر على نيل مراده في معرفة صنعة الدروع.

وبقي أن نشير إلى أنّ الخلق العظيم لا يُنال إلّا بقدم الصبر، ومن تطبيقات ذلك: خُلُق الدفع بالتي هي أحسن؛ قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصّلت: ٣٤ـ٣٥)، أي: لا يُوفَّق لهذه الخصلة الحميدة إلّا الذين صبّروا أنفسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبّه الله تعالى، ومَن كان صبوراً فهو ذو حظٍّ عظيمٍ، فصاحب الحظّ العظيم هو الصبور بنفسه.

سابعاً: التوكّل على الله وحده

في التوكّل على الله تعالى وحده تكمن واقعيّة الإيمان أيضاً؛ قال تعالى: ﴿...فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، فالإنسان إنّما يظهر معدن إيمانه الحقيقي في المواقف الصعبة والابتلاءات الشديدة، فهل يتزلزل كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ (الأحزاب: ١١)، أم يُقبل بتوكّله على الله تعالى، فيواجه عواصف الابتلاء بإقدامٍ وثباتٍ؟ وخير المواجهة ما كانت مع الشيطان وإغراءاته، فلا يُولّي الأدبار؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ (الأنفال: ١٥)، وأيّ كفرٍ أشدّ من كفر الشيطان ووساوسه؟! فمن ركن للشيطان وأسلم له العنان فقد ولّى دُبُره، ومن توكّل على الله تعالى وحده فهو حسبه؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ (الطلاق: ٣).

ثامناً: جهاد أعداء الله

إنّ الجهاد في سبيل الله تعالى هو سبيل العزّة والمنعة، فضلاً عن كونه باباً

فتحه الله لخاصّة أوليائه، كما جاء في حديثٍ رواه أبو عبد الرحمن السلمي، قال: قال أمير المؤمنين عليٌّ صلوات الله عليه: «**أمّا بعد، فإنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنّة، فتحه الله لخاصّة أوليائه...**»[١]، ولذلك أحبّ الله تعالى أن تكون فينا هذه الصفة النبيلة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾ (الصفّ: ٤)، والقتال في سبيله تعالى هو الجهاد في الاصطلاح القرآني والإسلامي، ويراد به الجهاد الأصغر لا الأكبر.

والجهاد ـ وهو فريضةٌ مقدّسةٌ، سواءً كان جهاداً أصغر أم أكبر ـ قد جعله الله تعالى وسيلةً لمعرفته الحقّة؛ قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (العنكبوت: ٦٩)، ومن سبل الله تعالى: معرفة الأسماء الحسنى، ومعرفة كمال النبوّة، ومعرفة الإمام المعصوم عليه السلام ومتابعته.

تاسعاً: إتقان العمل

إتقان العمل أمرٌ مطلوبٌ كماليّاً، ومحبوبٌ إلهيّاً، وقد صرَّح الخطاب النبويّ بهذه المحبوبيّة ـ حبّ الله تعالى ـ حيث قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ الله تعالى يحبّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[٢]، وقريبٌ منه ما روي في الكافي الشريف، لمّا همَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله بدفن ولده إبراهيم بعد أن وافته المنيّة فلاحظ في القبر خللاً، فسوّاه بيده الشريفة، وقال: «إذا

---

(١) الفروع من الكافي، مصدر سابق: ج٩ ص٣٦٠، الحديث رقم (٨٢٠٥). أيضاً:
ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، مصدر سابق: ج٢ ص٢٧٤، الحديث رقم (٦٧).
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج٣٧ ص٣٧٢، الحديث رقم (٢٢٦٩٩).

(٢) المعجم الأوسط ، مصدر سابق: ج١ ص٢٧٥؛ الجامع الصغير، مصدر سابق: ج١ ص٢٨٤، الحديث رقم (١٨٦١).

عمل أحدكم عملاً فليتقن»[1].

وغير ذلك من الصفات المحبوبة لله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله، من قبيل السماحة، والعفو، والعفّة، والنصح لسائر المسلمين، وحبّ الخير، وعمل المعروف، وحسن الخُلق، واللين، والرفق.

الطائفة الرابعة: أخلاقٌ وصفاتٌ يربأ بنا القرآن عن الاتّصاف بها

هنالك أخلاقٌ وصفاتٌ يبغضها الله تعالى في الإنسان ويدعوه لاجتنابها والتخلّص منها؛ فإنّها لا تليق بإنسانيّة الإنسان فضلاً عن عدم لياقة ذلك بشخصيّته الإيمانيّة، ومن تلك الأخلاق السيّئة والصفات البذيئة ما يلي:

أوّلاً: الخيانة والاعتداء

قال تعالى: ﴿**وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً**﴾ (النساء: ١٠٧)، وقال تعالى: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ (الأنفال: ٥٨)، فالخيانة تعني نبذ العهود والمواثيق، والله تعالى يقول: ﴿**...وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً**﴾ (الإسراء: ٣٤)، ونقضه يُوجب الخسران المبين، لأنّه غالباً ما يقترن بالإفساد في الأرض، والإفسادُ موجبٌ للخسران؛ قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (البقرة: ٢٧).

إنّ الخيانة هي بنفسها اعتداءٌ على النفس وعلى الآخرين، ولذلك ورد

---

(١) الفروع من الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٢٦٢، الحديث رقم (٤٥). قيل: إنّه رأى حجراً بجانب الجثمان، فصار يسوّي المكان المرتفع بيده ويقول: «**إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه**». (الطبقات الكبرى، لمحمّد بن سعد: ج١ ص١٤٢، نشر: دار صادر، بيروت).

النهي عن الاعتداء؛ لأنّه فرع الخيانة، والله تعالى لا يحبّ الخائنين، ولا يحبّ المعتدين؛ قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

ثانياً: الفساد والإفساد والإسراف

وهذه صفاتٌ متداخلةٌ، فالإسراف فسادٌ وإفسادٌ، والفساد والإفساد إسرافٌ أيضاً؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥)، وقال تعالى: ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧)، وغالباً ما يؤدّي الفساد إلى إلحاق الضرر الجسيم بعامّة الناس، فيخلق حالات الفقر والعوز، كما هو الحال في الإسراف فإنّه يؤدّي بالإضرار بصاحبه أوّلاً وبالذات، وبالآخرين ثانياً وبالعرض، فالإسراف يعني هدر الأموال والقدرات بلا طائلٍ؛ قال تعالى: ﴿...وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

ثالثاً: الجهر بالسوء

قال تعالى: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ (النساء: ١٤٨)؛ لأنّ مثل هذا الجهر المنبوذ يفضي إلى هدر الكرامات، فللمظلوم أن يَذكُر ظالمه بما فيه من السوء؛ ليبيِّن مَظْلمته، ولكن دون أن يبلغ مرتبة التشهير به؛ فذلك من الجهر بالسوء.

رابعاً: الاختيال والفخر والتكبّر

قال تعالى: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان: ١٨)، فإنّ التواضع رداء الأنبياء، وهو مطيّة العقل، كما جاء في وصيّة الإمام الصادق عليه السلام لهشام بن الحكم،

حيث قال له: «**يا هشام، إنّ لكلّ شيءٍ دليلاً، ودليل العقل التفكّر، ودليل التفكّر الصمت، ولكلّ شيءٍ مطيّة، ومطيّة العقل التواضع، وكفى بك جهلاً أن تركب ما نُهيت عنه**»[1]، أي: إنّ مطيّة العقل هو التذلّل والانقياد للدليل، لا أن يركب الجهل فيرتكب المعاصي.

ثمّ إنّ التواضع على محبوبيّته وميل النفس إليه بصورةٍ جبلّيّةٍ، فإنّه سلّمٌ لارتقاء الكمالات العُليا، التي من المحال أن تُشمّ رائحتها لو كان في النفس شيءٌ من الأنفة والتكبّر، ولو راجعنا بعض سير الأنبياء عليهم السلام نجد أنّ نبيّ الله موسى عليه السلام إنّما صار كليماً؛ لشدّة تواضعه لله تعالى[2].

إذن، بالتواضع تكون رفعة الإنسان لا انحداره[3]، فأنعم به من خلقٍ رفيعٍ.

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١ ص٣٥، الحديث رقم (١٢).

(٢) يروى أنّ نبيّ الله موسى عليه السلام إنّما استحقّ التكليم الإلهيّ له لأنّه كان إذا سجد لله تعالى يُمرِّغ وجهه بالتراب لشدّة تواضعه، فعن ابن أبي عمير، عن عليّ بن يقطين، عمَّن رواه، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام؛ قال: «**أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام أن: يا موسى، أتدري لم اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا ربّ، ولم ذاك؟ قال: فأوحى الله تبارك وتعالى إليه أن: يا موسى، إنّي قلبت عبادي ظهراً لبطنٍ فلم أجد فيهم أحداً أذلّ لي نفساً منك. يا موسى، إنّك إذا صلّيت وضعت خدّك على التراب ـ أو قال: ـ على الأرض**». (الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٣١٧، الحديث رقم (١٨٦٩). أيضاً:

ـ كتاب السنّة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل: ج١ ص٢٨٩، الحديث رقم (٥٥٥)، وأنّه عليه السلام صاحب الدعاء القرآني الجليل الدالّ على شدَّة تواضعه، الوارد في قوله تعالى: ﴿**فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ (القصص: ٢٤).

(٣) عن عبد الرحمن بن الحجّاج، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «**أفطر رسول الله صلّى الله عليه وآله عشيّة خميسٍ في مسجد قبا، فقال: هل من شرابٍ؟ فأتاه أوس بن خولي الأنصاري بعسٍّ مخيضٍ بعسلٍ، فلمّا وضعه على فيه نحّاه، ثمّ قال: شرابان يكتفى بأحدهما من صاحبه، لا**

وأمّا الاختيال والفخر والتكبّر فمن أردية الشيطان، فقد روي أنّ إبليس كان طاووس الملائكة، والطاووس معلوم الحال في اختياله، وروي أنّه كان يُقدِّم نفسه على آدم؛ لأنّه خُلِقَ من نارٍ، وخُلِق آدم من ترابٍ، والنار أشرف من التراب؛ ظنّاً منه أنّ حقيقة آدم عليه السلام تكمن في التراب، فيكون مقدّماً عليه، وما ذلك إلّا دليل جهله وتكبّره.

وأمّا تكبّره فذلك ممّا صرَّح به القرآن الكريم.

وينبغي أن يُعالج الإنسان جذور التكبّر في نفسه، فيكون حذراً منها، ويكون لها رصداً ورقيباً؛ فإنّ التكبّر له ظواهر وله بواطن، وقد قال تعالى: ﴿**لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**﴾ (النحل: ٢٣)، فكيف بالإنسان وهو ينزع ثوب التواضع وهو رداء الأنبياء، ويلبس ثوب التكبّر وهو رداء الشيطان، ﴿**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ**﴾ (ص: ٧٥).

وينبغي أن يُعلم أنّ من لوازم التواضع عدم الاغترار بالدنيا، والبشاشة في وجوه إخواننا المؤمنين، وإفشاء السلام.

هذا هو خلاصة الكلام في صفات الإنسان في القرآن، سلباً وإيجاباً، ما

أشربه، ولا أُحرّمه، ولكن أتواضع لله؛ فإنّ مَن تواضع لله رفعه الله، ومَن تكبّر خفضه الله». (الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٧٦٠، الحديث رقم ٢٥٧٥). أيضاً:

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج٤ ص٥٥٢، الحديث رقم (٩٠٠٨).

ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، مصدر سابق: ج٥ ص٤٣٢، الحديث رقم (٢٣٢٨).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «**إنّ في السماء ملكين موكّلين بالعباد، فمَن تواضع لله رفعاه، ومن تكبّر وضعاه**». (الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٣١٤، الحديث رقم ١٨٦٤).

حثّ عليها القرآن، وما نهى عنها، وكفى بالقرآن هادياً ومعلّماً.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨ـ٨٩)، والقلب السليم هو القلب الخالي من الشرك والشكّ والأدران المعنويّة. فما حثّ عليه القرآن من صفاتٍ داخلٌ في صناعة القلب السليم، وما نهى عن الاتّصاف به يدخل في صناعة القلب السقيم.
- سُئل الإمام جعفرٌ الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، فقال: «**القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحدٌ سواه**»، وقال: «**وكلّ قلبٍ فيه شركٌ أو شكٌّ فهو ساقطٌ، وإنّما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة**»[1].

خلاصة الدرس

- المُطهَّرون طهارتهم تُساوق عصمتهم.
- تطهير العقل من الشبهات، وتطهير القلب من الشكوك والأمراض المعنويّة، أمرٌ مطلوبٌ في نفسه.
- يُفضّل تخصيص مكانٍ في البيت لا تخطو فيه خطوةً إلّا وأنت على طهارةٍ، فتطيل المكوث فيه.
- التوبة ترياقٌ لغبرة ذنوب الماضي، وهي تكراريّةٌ؛ لعدم الخلوّ من الذنب.
- شروط التوبة: الإقرار بالذنب، والتحسّر على وقوعه، والعزم على تركه.

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٤٦، الحديث رقم (١٤٨٦).

- التقوى من ثمار الطهارة القلبيّة، فمَن كان قلبه ملوّثاً بالذنوب والخطايا والشبهات لن يجد الطريق للتقوى قبل الخلاص من براثن تلك المعاصي.
- الإحسان صفة الأحرار من عبوديّة الذات والأنا.
- التعصّب للعقوبة في غير حقوق الله تعالى ما هو إلّا من بقايا حبّ الدنيا.
- ليس من العدل أن تُعاقب المُسيء على كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، فذلك من سوء الأدب، ونزوعٌ لملكة البخل والشحّ القابعة في النفس.
- القسط والعدل مطلبان إنسانيّان يجلبان الأمن والطمأنينة.
- من العدل أن تعفو بالقدر المستطاع، فذلك ليس من الإحسان فحسب، فإنّك لا تدري في معاقبتك للمسيء قد تكون وقعت في الظلم وأنت لا تعلم.
- الصبور ذو حظٍّ عظيمٍ، فصاحب الحظّ العظيم هو الصبور بنفسه.
- مَن ركن للشيطان وأسلم له العنان فقد ولَّى الأدبار.
- الجهاد سبيل العزّة والمنعة، وهو بابٌ فتحه الله لخاصّة أوليائه.
- الخيانة نبذٌ للعهود والمواثيق، وهي اعتداءٌ على النفس وعلى الآخرين.
- الفساد والإفساد والإسراف صفاتٌ متداخلةٌ.
- التواضع رداء الأنبياء، وهو مطيّة العقل، فمطيّة العقل هو التذلّل والانقياد للدليل، لا أن يركب الجهل فيرتكب المعاصي.
- الاختيال والفخر والتكبّر من أردية الشيطان.

مذاكرة

- ما هي علاقة المُطهَّرين بالعصمة؟
- ما فائدة تخصيص مكانٍ في البيت لا نخطو فيه إلّا ونحن على طهارةٍ؟

- لماذا التوبة تكراريّةٌ؟
- ما هي شروط التوبة؟
- هل يمكن للقلب الملوّث بالذنوب والشبهات أن يجد طريقاً للتقوى؟
- ما هي علاقة الإحسان بالأحرار؟
- ما هي علاقة التعصّب للعقوبة بحبّ الدنيا؟
- هل من العدل معاقبة المُسيء على كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ؟
- ما الذي يجلبه القسط والعدل؟
- مطلبان إنسانيّان يجلبان الأمن والطمأنينة.
- مَن هو صاحب الحظّ العظيم؟
- ما هي علاقة الركون للشيطان بتولية الأدبار؟
- ما هي علاقة الجهاد في سبيل الله تعالى بالعزّة والمنعة؟
- كيف توضّح التداخل بين الفساد والإفساد والإسراف؟
- ماذا يعني أنّ التواضع مطيّة العقل؟

الدرس السادس عشر

الاقتداء الإيجابي والاقتداء السلبي

- أهداف الدرس
- تمهيد
- معنى القدوة والأسوة
- أهمّيّة القدوة في حياتنا
- محرّكيّة القدوة لقوانا الداخليّة
- القدوة المطلقة والقدوة المحدودة
- القدوة الإيجابية والقدوة السلبية
- أنواع الاقتداء
- الاقتداء بين متابعة الفعل ومتابعة الشخص
- ضوابط الاقتداء
- رقابيّة الاقتداء
- كلماتٌ في طريق الأخلاق
- خلاصة الدرس
- مذاكرة

أهداف الدرس

بيان ما يلي:

- معنى القدوة وأهمّيتها في حياة الإنسان.
- محرّكيّة القدوة لقوانا الداخليّة.
- معنى القدوة المطلقة والمحدودة، والقدوة الإيجابية والسلبية.
- الفصل بين الاقتداء الإيجابي والاقتداء السلبي.
- الفصل بين الاقتداء في متابعة الفعل والاقتداء في متابعة الشخص.
- ضوابط الاقتداء ورقابيّة الاقتداء.

تمهيد

لا ينفكّ الإنسان السويّ عن الحاجة إلى وجود قدوةٍ ومَثَلٍ أعلى له في حياته، يساعده على اختصار الجهد والزمان، ويساعده على تحريك الخزين الكامن في نفسه، فالإنسان لو خُلِّي ونفسه فإنّه عادةً ما يُصاب بالخمول والكسل، ولذلك ضرب لنا القرآن الكريم مثلاً أعلى للاقتداء به في أقوالنا وأفعالنا، وهو رسول الله صلّى الله عليه وآله؛ قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...**﴾ (الأحزاب: ٢١). ولكون القدوة فاعلاً حقيقيّاً في صناعة الشخصيّة فإنّها سلاحٌ ذو حدّين، فهنالك قدوةٌ صالحةٌ، وهنالك قدوةٌ غير صالحةٍ، كما أنّ هنالك أئمّةً يهدون إلى كلّ خيرٍ، وأئمّة كفرٍ يهدون إلى كلّ شرٍّ.

ونحن في هذا الدرس الأخير من دروس هذه الحلقة نريد التعرّض والختم بموضوع القدوة، فنبيّن معنى القدوة وأهمّيتها في حياتنا، والفرق بين

القدوة المطلقة والقدوة المحدودة، وما يلحق ذلك من الاقتداء الإيجابي والاقتداء السلبي، وهذا ما يدعونا للبحث في ضوابط القدوة ورقابيّة الاقتداء.

معنى القدوة والأسوة

جاء في لسان العرب: «القدوة من التقدّم، يقال: فلانٌ لا يقاديه أحدٌ ولا يباريه أحدٌ ولا يجاريه أحدٌ، وذلك إذا تميّز في الخلال كلّها»[١]. فالقدوة لا تقع في عرض المقتدي بها في الصفة والكمال؛ لذلك تقع مقصداً للمقتدي، ومن هنا قالوا في المعنى الاصطلاحي للقدوة: إنّ الاقتداء هو طلب موافقة الغير في فعله[٢].

والقدوة تطابق الأسوة في المعنى؛ قال القرطبي: «الأسوة: القدوة، والأسوة: ما يُتأسّى به، أي: يتعزّى به، فيُقتدى به في جميع أفعاله، ويتعزّى به في جميع أحواله»[٣].

أهمّيّة القدوة في حياتنا

إنّ التأسّي بالقدوة الصالحة أسرع وأنفع من طريقة «التجربة والخطأ» في الوصول إلى الهدف المطلوب[٤]، فربَّ أعمالٍ وإنجازاتٍ صرف عليها

---

(١) لسان العرب، مصدر سابق: ج١٥ ص١٧١.

(٢) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، مصدر سابق: ج٧ ص٣٥؛ فتح القدير (الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير)، لمحمّد بن عليّ بن محمّدٍ الشوكاني: ج٢ ص١٣٧، نشر عالم الكتب، بيروت.

(٣) تفسير القرطبي، مصدر سابق: ج١٤ ص١٥٥.

(٤) ولعلّ كثيراً من أعلام العرفاء الشامخين إنّما يشترطون وجود الأستاذ الكامل في طريق السير والسلوك، للأخذ بيد السالكين نحو التكامل، والحفاظ عليهم من الخمول والتقهقر ومن الوقوع في الأخطاء الجسيمة، فمَن ولج دائرة السير والسلوك من دون

أصحابها عمراً ثميناً ومبالغ باهظةً، يستطيع الإنسان أن يحقّقها في زمنٍ قصيرٍ جدّاً، وذلك بالمتابعة الحثيثة والتأسّي الفعّال والسير في نفس الطريق الذي سلكه سابقون عليه[1]، فعرّفوه وبيّنوا خباياه، وفوائده ومخاطره.

والإنسان بفطرته يميل إلى وجود القدوة الصالحة للاقتداء به، فالإنسان بطبعه يخشى من المجهول، فإذا سار في دربٍ دون قدوةٍ ودليلٍ فإنّه يكون مغامراً، وسائراً إلى مصيرٍ مجهولٍ، ولذلك يتعيَّن وجود القدوة؛ للخلاص

أستاذٍ فإنّه على الغالب سوف تعترضه مشكلاتٌ خطيرةٌ قد تعصف به في وادٍ سحيقٍ، وقلّما ينجو السالك في طلب الكمال من دون الاعتماد على أستاذٍ كفوءٍ واصلٍ، وقيل بأنّ الواصل من دون أستاذٍ هو أفضل من الواصل مع أستاذٍ، ويُسمَّى الأوّل: «المجذوب السالك»، وهو الذي سبق انجذابه الذاتي أو الإفاضي لله تعالى على سلوكه إليه، ويسمّى الثاني: «السالك المجذوب»، وهو الذي تقدّم سلوكه التعليمي على انجذابه الذاتي أو الإفاضي، والأوّل تكون له قدمٌ في دوحة التوحيد، تبلغ به مقاماتٍ لن يبلغها السالك المجذوب، ولكنّ السالك المجذوب أسرع وصولاً لكماله من المجذوب السالك لكماله، كما أنّ السالك لا يخشى عليه كثيراً من آفات الطريق، بخلاف المجذوب فإنّ طريقه موبوءٌ بالآفات القاتلة، ولعلّ معظم السقطات والتي تُسمّى بالشطحات إنّما قد وقعت من أناسٍ لم يتربّوا على أساتذةٍ كاملين، فلم يمكنهم من الوقوف على خبايا النفس، فوقعوا ضحيّةً لها.

للوقوف على تفاصيل الفرق بين «المجذوب السالك» وبين «السالك المجذوب» يُنظر كتاب «تعليقه بر شرح منظومة حكمت سبزواري»، للميرزا مهدي مدرّس آشتياني: ص٧٤٦ ضمن بحث «في شطرٍ من علم الأخلاق»، منشورات جامعة طهران، سنة الطبع ١٣٦٧ش، طهران.

(١) انظر: حياة القائد بين القدوة والاقتداء، للدكتور عليّ بن حسن عليّ القرني، منشورٌ في مجلّة جامعة أمّ القرى؛ وأيضاً في «موسوعة البحوث والمقالات العلميّة»، جمع وإعداد: عليّ بن نايف الشحود. (المكتبة الشاملة).

من نتائج الحسابات الاحتماليّة التي عادةً ما تزداد فيها نسبة الخطأ.

وقد تسالم العقلاء على الإفادة من التجربة، ويعنون بذلك تجارب الآخرين، وهذا هو معنى أن يتّخذ إنسانٌ قدوةً في حياته، حيث يكون القدوة عاقلاً حكيماً ذا تجارب، قد خبر الحياة، كما سيأتينا في بيان ضوابط القدوة؛ قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «**والعقل حفظ التجارب، وخير ما جرَّبت ما وعظك**»[1].

وقال الشيخ محمّد عبده في بيان ذلك: «أفضل التجربة ما زجرت عن سيّئةٍ وحملت على حسنةٍ، وذلك الموعظة»[2].

وعنه عليه السلام أيضاً: «**إنّ الشقيّ مَن حُرم نفع ما أُوتي من العقل والتجربة**»[3].

فلا غنى للإنسان عن القدوة الصالحة والمثل الأعلى الذي يطرح نفسه أمامنا كتجربةٍ ناجحةٍ وناضجةٍ، وإلّا فقدنا تلك القوّة المحرِّكة والموجّهة لقوانا الداخليّة.

محرّكيّة القدوة لقوانا الداخليّة

إنّ المثل الأعلى بحسب تعبير سيّدنا الأستاذ الشهيد الصدر رحمه الله هو الأساس للمحتوى الداخلي للإنسان، حيث يقول: «إنّ الأساس في حركة التاريخ هو المحتوى الداخلي للإنسان، وهذا المحتوى الداخلي للإنسان يشكّل القاعدة.

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق: ج٣ ص٥٢ رقم (٣١)، من وصيّةٍ له للحسن بن عليّ.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق: ج٣ ص١٣٦ رقم (٧٨)، من كتابٍ له إلى أبي موسى الأشعري.

الآن نتساءل: ما هو الأساس في هذا المحتوى الداخلي نفسه؟ ما هي نقطة البدء في بناء هذا المحتوى الداخلي للإنسان؟ وما هو المحور الذي يستقطب عمليّة بناء المحتوى الداخلي للإنسان؟ هو المثل الأعلى»[١].

إلى أن يقول: «وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدّد الغايات التفصيليّة، وينبثق عنه هذا الهدف الجزئي وذلك الهدف الجزئي، فالغايات بنفسها محرّكةٌ للتاريخ، وهي بدورها نتاجٌ لقاعدةٍ أعمق منها في المحتوى الداخلي للإنسان، وهو المثل الأعلى الذي تتمحور فيه كلّ تلك الغايات، وتعود إليه كلّ تلك الأهداف، فبقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشريّة صالحاً وعالياً وممتدّاً، تكون الغايات صالحةً وممتدّةً»[٢].

فالقدوة والمثل الأعلى يمتلك قوّة التأثير بالنحو الذي يمكّنه من توجيه رؤى الإنسان وتحييد إرادته باتّجاه رؤى وإرادة القدوة، فهو نقطة الجذب، ومحور حركة المقتدي، فلا يحيد عنه.

وبعبارةٍ أُخرى: «من خلال الطاقة الروحيّة التي تتناسب مع ذلك المثل الأعلى ومع وجهة نظرها إلى الحياة والكون، تحقّق إرادتها للسير نحو هذا المثل وفي طريق هذا المثل»[٣]. وكأنَّ القدوة والمثل الأعلى هو المهندس الحقيقي للبناء الداخلي للإنسان، فيحدِّد له خطوطه البيانيّة في توجّهاته

---

(١) المدرسة القرآنيّة، للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر قدّس سرّه: ص١٢٠، الدرس التاسع، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، نشر مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر قدّس سرّه، الطبعة الثانية المحقّقة، ١٤٢٤هـ، قم المقدّسة.

(٢) المصدر السابق: ص١٢١.

(٣) المصدر السابق.

وحركاته وسكناته، أو قل: هو الذي يصنع له حاضره ومستقبله.

القدوة المطلقة والقدوة المحدودة

إنّ للقدوة والمثل الأعلى تنوّعاً وتفاوتاً كبيراً راجعاً إلى طبيعة الإمكانات والقدرات والكمالات التي يشتمل عليها، فكلّ مثلٍ أعلى إنّما يكون مقدار تأثيره بتبع أُفُقه الوجودي، العيني والكمالي، فإذا كان محدوداً في عينيّته وكماله فهو مثلٌ أعلى محدودٌ أيضاً، وتأثيره وفاعليّته إنّما تتحدّد بحدوده الكماليّة، وإذا كان المثل الأعلى مطلقاً في عينيّته وكمالاته فبقاء تأثيره مطلقٌ وباقٍ ببقائه، وهذا ما يُوضّح لنا وجه التمسّك بالاقتداء بالقيم الإلهيّة، والاتّصاف بصفات الله تعالى، فهي لا تنضب ولا تنفد أبداً، ونحن إنّما نقتدي برسول الله صلّى الله عليه وآله، لأنّه المثل الأعلى في الاقتداء والاتّصاف بالصفات الإلهيّة، فالله تعالى هو الرحمن الرحيم، ورسول الله صلّى الله عليه وآله هو الرحمة التامّة المنزلة على العالمين؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، لذلك ـ وكما سيأتي ـ فإنّنا نشترط في القدوة الصالحة والمثل الأعلى أن يكون ربّانيّاً إلهيّاً، وبحسب تعبير المدرسة العرفانيّة: أن يكون مظهراً للأسماء والصفات الإلهيّة، فلا يصحّ اتّخاذ قدوةٍ ومثلٍ أعلى فاقدٍ للارتباط بالله تعالى، فذلك لا يخرج عن كونه مثلاً منخفضاً لا يزيد الإنسان إلّا تخلّفاً وتقهقراً.

القدوة الإيجابية والقدوة السلبية

تنقسم القدوة إلى قدوةٍ حسنةٍ وقدوةٍ سيّئةٍ، والقدوة الحسنة هي التي تملك كمالاً وتساعدك على الوصول إليه، وأمّا القدوة السيّئة ففيها نقصٌ تُسرّيه إليك، والقدوة الحسنة إنّما تُتصوّر في الشخص السائر في طريق الله

تعالى؛ لأنّ الهدف الأساس من وراء الاقتداء هو التزوّد بالكمال لا أن نرفع من غلّة النقص فينا، فكيف يكون الفاقد للصلة بالله تعالى يمتلك كمالاً معنويّاً حقيقيّاً؟ أليس فاقد الشيء لا يعطيه؟ من هنا لزم الاقتداء بالقدوة الحسنة؛ فإنّها تقرّب المسافات، وتدّخر لنا الوقت والجهد.

إنّ مشكلة القدوة السلبية ذات بعدين خطيرين، هما:

الأوّل: بُعد الفقد، وهو المحصّلة الأولى، حيث فُقد الكمال المطلوب تحصيله، فتكون المسيرة بلا محصّلةٍ، فيكون المقتدي كالعامل على غير بصيرةٍ لا تزيده سرعة المشي والاقتداء إلّا بُعداً عن الهدف.

الثاني: بُعد الكسب، وهو أن لا تكتفي القدوة السيّئة بحرمان المقتدي به من الكمال المطلوب، وإنّما سوف تُسرِّي له نقصها الكامن فيها، وهو معنى الكسب، فالمقتدي سوف يكتسب من القدوة سلوكها السلبي ونقصها الجليّ.

وهذان البُعدان يشكّلان الخسران المبين الذي سيكون عليه المقتدي ولو بعد حينٍ، بل إنّ السير في أوّل خطوةٍ مع القدوة السيّئة تبدأ الرحلة نحو الخسران المبين، وكلّما تأخّر كشف زيف القدوة السيّئة، تعقّد الرجوع. فالرجوع عن القدوة لا يتحقّق بمجرّد ترك القدوة؛ لأنّ المقتدى يكون بعد رحلةٍ طويلةٍ معه قد بثّ سمومه في سلوك المقتدي، فصار المقتدي يتحرّك بحركاته ويسكن بسكناته، ولذلك فإنّ الرجوع عن الاقتداء بعد رحلةٍ طويلةٍ معه لابدّ أن يكون رجوعاً عن السلوك المكتسب، وأمّا الكمال المفقود الذي كان مطلوباً في أصل الاقتداء فإنّه يمكن تداركه مع القدوة الحسنة، وإن كان الأمر ليس باليسير أيضاً؛ فإنّ المضيّ الطويل مع السلوكيّات الباطلة ربّما تترك ملكاتٍ يعسر الخلاص منها.

أنواع الاقتداء

النوع الأوّل: الاقتداء الإيجابي والاقتداء السلبي

في ضوء ما تقدَّم من انقسام القدوة إلى قدوةٍ إيجابيّةٍ صالحةٍ، وقدوةٍ سلبيّةٍ طالحةٍ، فإنّه يترشّح أمامنا النوع الأوّل من الاقتداء الإيجابي والاقتداء السلبي، فمَن تابع قدوةً حسنةً في سلوكه، كان ذا اقتداءٍ إيجابيٍّ، ومَن تابع في سلوكه قدوةً سيّئةً، كان ذا اقتداءٍ سلبيٍّ، وهذا أمرٌ واضحٌ ولا ريب فيه، وإنّما الكلام في الأنواع الأخرى من الاقتداء الإيجابي والسلبي.

النوع الثاني: الاقتداء الإيجابي ظاهراً والسلبي باطناً

وهو أن يتّخذ الإنسان لنفسه قدوةً صالحةً، تدفعه نحو الكمال دفعاً، وهذا هو الاقتداء الإيجابي بحسب الظاهر، ولكنّه في واقعه العملي يسلك سلوكاً لا يتطابق مع توجّهات قدوته الصالحة.

ومثال ذلك: أنّنا لا نتوقّف في اتّخاذنا الإمام الحسين عليه السلام قدوةً صالحةً لنا، وهذا اقتداءٌ إيجابيٌّ، ولكنَّ واقعنا قد لا يكون كذلك، حيث يمكن أن نلمح ونرصد الكثير من الأفعال والسلوكيّات التي تنتمي إلى بؤرة يزيد بن معاوية، وهذا هو الاقتداء السلبي، وحيث إنّ هذا الاقتداء غير معلنٍ، وإنّما يكشف عن السلوكيّات الخارجية، فإنّنا نطلق على هذا الاقتداء اصطلاح «صوريّة الإيجاب واقعيّة السلب»، وهذا ما يمكن وصفه بحضور المسلمين وغياب الإسلام، كما هو الحال في عيّناتٍ كثيرةٍ في المجتمع الإسلامي، حيث تجد مسلمين كثيرين، ولكنّك قليلاً ما ترى الإسلام.

النوع الثالث: الاقتداء السلبي ظاهراً والإيجابي باطناً

وهو عكس الثاني تماماً، فهنالك مَن يتّخذ في حياته قدواتٍ سلبيّةً، لا تمنح في واقعها كمالاً واقعيّاً، وإنّما هي أوهامٌ متضافرةٌ، وبحسب التعبير القرآني: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً...﴾ (النور: ٣٩)، ولكنّه لصدقه وحسن سريرته يكون سلوكه مغايراً، فهو بحسب اصطلاحنا «صوريّة السلب واقعيّة الإيجاب»، وهذا ما يمكن وصفه بحضور الإسلام وغياب المسلمين، كما هو الحال في عيّناتٍ كثيرةٍ في المجتمع الأوربي؛ حيث تجد صوراً واقعيّةً كثيرةً للإسلام، ولكنّك لا تجد إلّا قليلاً من المسلمين!!

النوع الرابع: الاقتداء القسري

ونعني به الاقتداء بالقدوات الحسنة، ولكنّها قدواتٌ محدودةٌ لا تمنح كمالاً كثيراً أو عميقاً، من قبيل اقتداء الأبناء بالآباء، فهنالك الكثير من الآباء الصالحين، ويمتلكون سريرةً حسنةً، ولكنّهم قليلو العلم، كثيرو الجهل، فيسرّون جهلهم للأبناء، ويصير الأبناء مستودعاتٍ لمعلوماتٍ وتصرّفاتٍ مغلوطةٍ من الناحية الشرعيّة، لا عن سوء قصدٍ، وإنّما بسبب الاقتداء القسري بالآباء، وإنّما صار هذا الاقتداء قسريّاً لأنّ الابن مجبولٌ على الاقتداء بأبيه، لأسباب الانتماء والتربية والتنشئة، كما هو واضح.

ومن الأمثلة الأخرى للاقتداء القسري: اقتداء الطلبة بأساتذتهم، فإنّ الكثير من الأساتذة في المدارس والأكاديميّات وحتّى في الحوزات العلميّة والمراكز الدينيّة ليسوا أهلاً للاقتداء بهم، ولكنّ الطلبة يجدون أنفسهم مقلّدين لهم؛ لطول العشرة معهم، فيأخذون عنهم سلوكيّاتٍ غير سويّةٍ،

ومعلوماتٍ غير صحيحةٍ، وهذا النوع من الاقتداء والتأثّر يبقى تأثيره لسنواتٍ طويلةٍ، حيث تجد الكثير من الطلّاب يعملون في ضوء معلوماتٍ أخذوها قبل سنواتٍ طويلةٍ من أساتذتهم، ولذلك فالطريق الأمثل لتحييد هذا التأثّر والمتابعة السلبيّة هو وصول الطلبة إلى مرتبة التحقيق، حيث سيدركون عندها خطأ كثيرٍ من المعلومات السالفة، كما أنّ التجربة سوف تكشف لهم خطأ كثيرٍ من السلوكيّات.

الاقتداء بين متابعة الفعل ومتابعة الشخص

وهنا يلزم الفصل بين الفعل وصاحبه، فإنّ الاقتداء تارةً يكون بالفعل من دون النظر إلى صاحبه، وأخرى يكون بالشخص من دون النظر إلى مدى صلاحيّة الفعل وصحّته، فالفعل بمجرّد أن يصدر من شخصٍ ما فإنّه يكون صحيحاً في نظر المقتدي.

ونظراً لكون هذه المسألة فيها شيءٌ من التعقيد فإنّنا بحاجةٍ إلى شفّافيّةٍ في معالجتها، وهذا يعتمد على درجات الوعي للحلول المطروحة؛ حيث يلزم أوّلاً الفصل بين شخصيّة المعصوم وغيره، فالمعصوم وحده مَن يصحّ الاقتداء بفعله لمجرّد صدوره منه، من دون الحاجة للنظر في واقعيّة الفعل، فالمعصوم لا يصدر منه إلّا الفعل الصحيح، ولكن مع ملاحظةٍ يسيرةٍ ودقيقةٍ جدّاً، وهي ملاحظة زمان وظروف الفعل، فقد يكون الفعل آنيّاً، وقد صدر لظروفٍ خاصّةٍ بنحوٍ لا يصلح لزمانٍ آخر إلّا إذا توفّرت الظروف الملائمة للفعل، كالتفرّغ لمواجهة الظَّلَمة، والتفرّغ للدعاء والعبادة، والتفرّغ لخدمة الناس، والتفرّغ لطلب العلم، فجميع هذه الأفعال قد صدرت من أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وهم من أهل العصمة، فبأيّ فعلٍ نقتدي؟

ولو لاحظنا المتفرّغ لمجاهدة الظَّلَمة، نجده يحتجّ بالإمام الحسين عليه السلام.

ولو لاحظنا المتفرّغ للدعاء والعبادة وخدمة الناس، نجده يحتجّ بالإمام زين العابدين عليه السلام.

ولو لاحظنا المتفرّغ للعلم، نجده يحتجّ بالإمام الصادق عليه السلام، وهكذا.

وهنا نقول: إنّ جميع هذه الأفعال صحيحةٌ ولازمة الاقتداء بها، ولكن مع ملاحظة الزمان والظرف الذي نحن عليه، فإذا كنّا في زمنٍ ينتشر فيه الجهل وانتشار الشبهات فلابدّ من التوجّه للعلم، وإذا كنّا في زمنٍ ينتشر فيه الظلم والظَّلَمة والفساد والطغيان فلابدّ من التوجّه لمجاهدة هؤلاء، وإذا كنّا في زمن الفقر والعوز وتردّي الجوانب الروحيّة فعلينا التوجّه للعبادة وخدمة الناس، وهكذا.

وأمّا بالنسبة لغير المعصومين فمن الضروري جدّاً عدم جعل عنوان الشخصيّة ملاكاً في الاقتداء، وإنّما لابدّ من النظر للفعل نفسه، فإن كان الفعل موافقاً للموازين الشرعيّة أو غير متقاطعٍ معها أخذنا به، وإلّا ضربنا به عرض الجدار، حتّى وإن صدر الفعل من أعظم شخصيّةٍ دينيّةٍ، فالحقّ لا يُعرف بالرجال، وإنّما يُعرف الرجال بالحقّ، ولذا جاء في الخبر عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال للحارث الهمداني: «**إنّك امرؤٌ ملبوسٌ عليك، إنّ دين الله لا يُعرف بالرجال، بل بآية الحقّ، فاعرف الحقّ تعرف أهله، إنّ الحقّ أحسن الحديث، والصادع به مجاهدٌ**»[1].

---

(١) الأمالي، للشيخ المفيد أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي: ص٥،

وفي ذلك دلالةٌ واضحةٌ على أنّ مقياس الاقتداء بالآخرين إنّما يكون عن طريق معاينة الفعل، ولا نكتفي بالشخص وخصوصيّاته، وإن كان للشخص وخصوصيّاته أثرٌ عظيمٌ في تقبّل الفعل وتحقّق الاقتداء، ولذلك فالاقتداء إنّما يكون بالفعل الصحيح الصادر من العالم الورع، فذلك يجلب للمقتدي الطمأنينة، وما نعنيه في تفاصيل هذا الاقتداء هو ما يتعلّق بالأخلاق وسائر أمور الدين، وأمّا الأمور الدنيويّة أو العلوم غير الدينيّة فلا تتعلّق بتشكيل الرؤية الكونيّة الإلهيّة، فلا ضرورة للنظر في شخصيّة المقتدى به، ولذلك فنحن نساير الكثير من علماء الغرب في مختلف العلوم غير الدينيّة مع أنّنا نعلم جيّداً بالجهات التي تصدر عنها تلك العلوم والمعلومات، كما أنّ الفضيلة لو صدرت منهم يُقتدى بها، كما هو الحال في أخذ الحكمة ولو من أفواه المجانين.

ضوابط الاقتداء

لا ريب أنّ للاقتداء الصحيح ضوابط وأصولاً ينبغي الوقوف عندها ومراعاتها والعمل في ضوئها، وقد حاول البعض حصرها في أصلين جامعين، هما: حُسن الخُلق، وموافقة العمل للقول، معتبراً أنّ الأصل الأوّل (حُسن الخُلق) جامعٌ لكلّ الأخلاق الإسلاميّة الحميدة، كالصدق، والأمانة، والصبر، والرحمة، والتواضع، والمودّة، والمحبّة، والعطف، والإيثار، والرفق، وما إلى ذلك، كما أنّ الأصل الثاني (موافقة العمل للقول) هو أنّ النفس مجبولةٌ على عدم الانتفاع بكلام مَن لا يعمل بعلمه، ولا يوافق فعله قوله،

الحديث رقم (٣)، تحقيق: علّي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة في قم، طبعة ١٤٠٣هـ، قم المقدّسة.

ولهذا حذّرنا الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (الصفّ: ٢ـ٣)[١].

وهذا صحيحٌ إلى حدٍّ ما، بمعنى عدم الاكتفاء بهذين الأصلين، وإن كانا ضروريّين، ولذلك فالصحيح أن يُقال في المقام: إنّ ضوابط الاقتداء ـ بالإضافة إلى ما تقدّم ـ هي:

- أن يكون شخص القدوة حكيماً ذا تجارب، قد خبر الحياة، فيما إذا لم يكن معصوماً، فليس من السليم الاقتداء بأشخاصٍ لم تعتركهم الحياة.
- لابد أن يكون متفقّهاً في دينه، فلا يصحّ الاقتداء بالإنسان الجاهل في أمور دينه حتّى وإن كان مدرسةً في الطيبة والأخلاق.
- أن يكون القدوة الصالحة شخصاً ربّانيّاً إلهيّاً، وبحسب تعبير المدرسة العرفانيّة أن يكون مظهراً للأسماء والصفات الإلهيّة، فلا يصحّ اتّخاذ قدوةٍ ومثلٍ أعلى فاقدٍ للارتباط بالله تعالى، فذلك لا يخرج عن كونه قدوةً هابطةً لا تزيد الإنسان إلّا تخلّفاً وتقهقراً، وهذه المظهريّة الأسمائيّة لا يُكتفى فيها بحُسن الظاهر من الأخلاق الحميدة، وإنّما لابدّ من المعايشة والمعاشرة من جهةٍ، ولابدّ من ظهور ملامح وامتيازاتٍ تكشف عن انطوائه على معرفةٍ إلهيّةٍ عميقةٍ، وهذا لا يكون أبداً إلّا لمن صرع حبّ الدنيا في قلبه، لا أن يكون هو صريعاً لحبّ الدنيا، فما دام القلب منطوياً على حبّ الدنيا وحبّ الظهور وحبّ الرئاسة وحبّ المال فإنّه لا طريق له للمعارف الإلهيّة الحقّة، وأنّ جميع ما توصّل إليه من معارف لا تعدو مساحة الصورة التي تجتمع مع حبّ الدنيا، بل هي طعمةٌ لحبّ الدنيا؛

---

(١) انظر: حياة القائد بين القدوة والاقتداء (أصول القدوة الصالحة)، مصدر سابق.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٤٩)، ولذلك لا يكفي في مَن نقتدي به أن يكون عالماً في العلوم الظاهريّة أو الحصوليّة، وإنّما لابدّ من التزوّد بالعلوم الإلهيّة الربّانيّة المتعلّقة بدائرة السير والسلوك المعرفي والمعنوي، أو قل: في دائرة السير المعرفي الأسمائي.

رقابيّة الاقتداء

هنا يكمن حجر الزاوية في صحّة ودوام الاقتداء السليم، وهي رقابيّة الاقتداء، والتي تنقسم إلى قسمين، هما:

الأوّل: رقابيّة الاقتداء بلحاظ المقتدي

ونريد به ملاحظة الإنسان المقتدي لنفس اقتدائه، هل هو متحقّقٌ بالشكل المطلوب، في القول والعمل، أم أنّه موسميٌّ تحكمه ظروف اللقاء بالقدوة؟

إنّ هنالك كثيراً من الناس ممّن تكون عباداته وإصلاحاته موسميّةً، فيتأثّر بكلمةٍ من هنا، وبموعظةٍ من هناك، أو في زمانٍ معيّنٍ دون أزمنةٍ أخرى، ولذلك لابدّ من استدامة الاقتداء، وهذا إنّما يكون بواسطة رقابيّة الاقتداء.

الثانية: رقابيّة الاقتداء بلحاظ المقتدى به (القدوة)

ونريد به أن يكون المقتدي ملتفتاً إلى بقاء صلاحيّة الاقتداء بالمقتدى به، فقد يكون المقتدى به صالحاً في زمانٍ دون زمانٍ آخر، لا لطروء فسادٍ في أخلاق القدوة، وإنّما لانتهاء كماله عند حدّه المألوف له.

ولأجل تقريب الفكرة نضرب مثالاً من الواقع التعليمي، فالطالب في المرحلة الابتدائيّة يتأثّر كثيراً بأساتذته، ويتمنّى أن يكون معهم في المرحلة

المتوسّطة والإعداديّة، ولكنَّ هذا خطأٌ من الناحية التعليميّة، فالمعلّم في مرحلته يكون ناجحاً ومعطاءً، ولكنّه في المرحلة الأعلى سيكون فاقداً لذلك، فلابدّ من إبداله بمعلّمٍ آخر جديرٍ بالمرحلة الجديدة، وهكذا الحال في الاقتداء، فقد يكون القدوة قدوةً صالحةً ونافعةً ومعطاءةً في زمانٍ دون زمانٍ آخر، وهنا تكمن أهمّيّة رقابيّة الاقتداء بلحاظ القدوة.

كلماتٌ في طريق الأخلاق

- قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ...**﴾ (الأنعام: ٩٠)، أي: بما هداهم الله تعالى، علينا الاقتداء به، وفي ذلك دلالةٌ أو إشارةٌ إلى ملاحظة الفعل نفسه لا الفاعل، فلم تقل الآية: فبهم اقتده، وإنّما قالت: ﴿**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾، فإذا كان الأمر كذلك مع تلك الثلّة الخالصة من الأنبياء والأوصياء والأولياء فكيف بمَن سواهم؟!
- قيل: إنّ اقتحام العقول والنفوس بغية التأثير فيها هو أصعب بكثيرٍ من اقتحام المواقع والثغور؛ وذلك لأنّ الناس يختلفون اختلافاً بيّناً في طريقة تفكيرهم، وفي تركيب أمزجتهم، وفي مستويات ثقافتهم، وهذا أمرٌ صحيحٌ، وخير طريقٍ للتأثير فيهم: هو أنّ طالب التأثير فيهم قدوةٌ لهم، فالقدوة قادرةٌ على ولوج جميع المناطق الصعبة في بناء الشخصيّة، فتلين لها النفوس، وتستجيب لها العقول، وتصدّق بها القلوب.

خلاصة الدرس

- الاقتداء سلاحٌ ذو حدّين، فهنالك قدوةٌ صالحةٌ، وهنالك قدوةٌ غير صالحةٍ.
- القدوة لا تقع في عرض المقتدي به في الصفة والكمال، لذلك تقع مقصداً للمقتدي، فالاقتداء هو طلب موافقة الغير في فعله.

- التأسّي بالقدوة أسرع من التجربة والخطأ في الوصول إلى الهدف المطلوب.
- يميل الإنسان فطريّاً إلى وجود القدوة؛ لأنّه يخشى من المجهول.
- الشقيّ مَن حُرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة.
- المثل الأعلى أساسٌ لبناء المحتوى الداخلي للإنسان، بل هو المهندس الحقيقي لبنائه الداخلي، فيحدِّد له خطوطه البيانيّة في توجّهاته وحركاته وسكناته، أو قل: هو الذي يصنع له حاضره ومستقبله.
- يمتلك المثل الأعلى قوّة التأثير بنحوٍ يمكِّنه من توجيه رؤى الإنسان وتحييد إرادته باتّجاه رؤى وإرادة القدوة، فهو محور حركة المقتدي.
- كلّ مثلٍ أعلى إنّما يكون تأثيره بتبع أُفُقه الوجودي، العيني والكمالي.
- القدوة الفاقد للارتباط بالله قدوةٌ هابطةٌ لا تزيدنا إلّا تخلّفاً وتقهقراً.
- القدوة الحسنة تمنحك كمالاً مفقوداً، وأمّا السيّئة فتزيد من نقصك.
- مشكلة القدوة السلبية ذات بعدين خطيرين، هما: بُعد الفقد، وبُعد الكسب، وهذان البُعدان يشكّلان الخسران المبين للمقتدي ولو بعد حين.
- للاقتداء أربعة أنواع، منها: الاقتداء الإيجابي، والسلبي، والقسري.
- الاقتداء إمّا أن يكونَ متابعةً للفعل أو متابعةً للشخص.
- المعصوم وحده مَن يصحّ الاقتداء بفعله لمجرّد صدوره منه، من دون الحاجة للنظر في واقعيّة فعله، ولكن مع ملاحظة زمان الفعل وظروفه.
- من الضروري عند الاقتداء بغير المعصومين عدم جعل عنوان الشخصيّة ملاكاً في الاقتداء، وإنّما لابدّ من النظر للفعل نفسه، فإن كان الفعل موافقاً للموازين الشرعيّة أخذنا به، وإلّا فلا.
- دين الله لا يُعرف بالرجال، بل بآية الحقّ، فاعرف الحقّ تعرف أهله.
- لو صدرت الفضيلة من غير أهل الدين والصلاح يُقتدى بها، كما في

أخذ الحكمة ولو من أفواه المجانين.

- للاقتداء الصحيح ضوابط ينبغي مراعاتها والعمل في ضوئها.
- من ضوابط الاقتداء أن يكون القدوة حكيماً مجرِّباً، متفقّهاً وربّانيّاً.
- تنقسم رقابيّة الاقتداء إلى: رقابيّةٍ بلحاظ المقتدي، ورقابيةٍ بلحاظ القدوة.

مذاكرة

- كيف توجّه كون الاقتداء سلاحاً ذا حدّين؟
- هل تقع القدوة في عرض المقتدي به في الصفة والكمال؟
- ما الفرق بين التأسّي بالقدوة وطريقة التجربة في الوصول إلى الهدف؟
- لماذا يميل الإنسان بفطرته إلى وجود القدوة الصالحة للاقتداء به؟
- ما هي علاقة المثل الأعلى ببناء المحتوى الداخلي للإنسان؟
- ما هي علاقة المثل الأعلى بتوجيه رؤى المقتدي وتحييد إرادته؟
- بتبع أيّ شيءٍ يكون تأثير المثل الأعلى في المقتدي؟
- ما الذي يفضي إليه الاقتداء بفاقد الارتباط بالله تعالى؟
- ما هما البُعدان الخطيران في القدوة السلبي؟
- ما هي أنواع الاقتداء؟
- ما الفرق بين الاقتداء متابعةً للفعل والاقتداء متابعةً للشخص؟
- ماذا يعني ملاحظة زمان وظروف الفعل عند الاقتداء بفعل المعصوم؟
- ما الذي ينبغي مراعاته عند الاقتداء بغير المعصومين؟
- هل يصحّ الأخذ بالفضيلة لو صدرت من غير أهلها؟
- ما هي أهمّ ضوابط الاقتداء؟
- ماذا نعني برقابيّة الاقتداء؟

الخاتمة

وهنا تنتهي محطّتنا الأولى من سلسلة الأخلاق التعليميّة والواقعيّة، وهي محطّةٌ تأسيسيّةٌ في أغلب دروسها وبحوثها، وسوف تشكِّل نظاماً أساسيّاً في بناء الحلقات القادمة، وقد ناسب ـ ونحن في خاتمة المطاف ـ أن نشير إلى خلاصة هذه الدروس التعليميّة، فقد انتهينا فيها إلى ما يلي[1]:

- اجتماع الأنبياء عليهم السلام على: كلمة التوحيد، ومكارم الأخلاق. والخُلق العظيم هو مكارم الأخلاق عملاً، وهو التوحيد عقيدةً، بل لو تجلَّى التوحيد عملاً لكان أخلاقاً، ولو صعدت الأخلاق إلى السماء لكانت توحيداً، ولذلك فإنّ من أهمّ أسرار التركيز القرآني على الأخلاق: حفظ الدعوة الإلهيّة للتوحيد.
- طلبة العلوم الدينيّة أولى الناس برعاية الأخلاق الإلهيّة، فإذا وقع الشرّ منهم وأصبحوا فريسةً لحبّ الدنيا وإغواء الشيطان فالدين إلى زوالٍ، فهم أشبه بالملح، وإذا فسد الملح فسد كلّ شيءٍ، ولذلك فإنّهم ما لم يكونوا متزوِّدين بالأخلاق الفرديّة لا يمكنهم غرس الأخلاق الاجتماعيّة

---

(١) ينبغي التذكير أيضاً بأنّ جميع الأهداف الأخلاقيّة والسلوكيّة العرفانيّة إنّما تصبّ في هذه الصرخة القرآنيّة المُدوّية: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ (هود: ١١٢)، والخطاب لأمّة الإنسان، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، وأنّ الاستقامة المطلوبة هي العودة العمليّة إلى مقام الأحسنيّة المشار إليه في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ (التين: ٤)، ولكي نستقيم كما أُمرنا، ولا نتمادى في الطغيان، لابدّ من حصانةٍ إلهيّةٍ رشيدةٍ، وهي الأخلاق الإلهيّة التي لأجلها وُصِفَ رسول الله صلّى الله عليه وآله بقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: ٤).

في الناس، وفاقد الشيء لا يُعطيه، ولعلّ من أهمّ أسباب انعدام تأثير موعظة بعض الطلبة في الناس: كونهم لا يعيشون واقعيّة الأخلاق الفرديّة.

- التوبة ـ وإن كانت نصوحاً ـ لا تمحو الآثار الوضعيّة للمعاصي السابقة، وإنّما لابدّ من إدامة العمل الصالح الموجب لزوال الآثار الوضعيّة لتلك الذنوب.
- من الحقائق العظيمة: أنّ ما يبطنُه الإنسان من علمٍ وأخلاقٍ وسلوكٍ سيتجلّى له في سكرات الموت، وسيتجسّد له في مواقف القيامة، ولذلك فإنّ الإنسان الحقيقي إنّما يكون بصلاح باطنه.
- إنّ الأخلاق هي أرضيّة البناء القرآني، ولذلك صار القرآن دستوراً أخلاقيّاً، ولذلك جعلها القرآن هي الواجهة العمليّة للدين، كما جعلها ضمانة النجاة في الآخرة، وهذه (دستوريّة القرآن للأخلاق) تنطلق من استراتيجيّته الثابتة وهي الدعوة للتوحيد، ولذلك فإنّ من أهمّ الأبعاد النظريّة للأخلاق في القرآن هي قيامها على أصل التوحيد، بالإضافة إلى اعتماد المفاهيم المُدركة، وملاءمة المفاهيم للفطرة والطباع البشريّة.
- كلّ أُمّةٍ ذات أخلاقٍ كريمةٍ هي أُمّةٌ موحِّدةٌ عمليّاً وإن كانت كافرةً نظريّاً، فالأخلاق هي الواقع العملي للإيمان بالله تعالى ورسوله والدار الآخرة.
- الاستقامة لا تعرف غير منطق الحبّ، ومع الحبّ يغيب وهم الخصومة، فلا معنى للنزاع والصراع مع حاكميّة الأخلاق الحميدة في نفوس البشر، فإنّ السيف يأسر الأبدان ويذلّلها، وأمّا الأخلاق فإنّها تأسر القلوب وتطوّعها.

- من أهمّ امتيازات البيانيّة الروائيّة للأخلاق: اعتماد الواقعيّة في بيان المفاهيم الأخلاقيّة، وإعطاء الثقة للمخاطب وزرع الأمل في التغيير، ولذلك فإنّ الاتّجاه التطبيقي للروايات يمثّل استراتيجيّةً عامّةً تتأكّد في الأخلاق، ولعلّ من أسرار التركيز الروائي على الأخلاق: إعطاء رسالةٍ للإنسان من أنّ ما يُحقّقه من إنجازاتٍ لا يُلحظ في الميزان الإلهي إذا كان خالياً من الأخلاق.
- البُعد الإيجابي لعقلنة الأخلاق هو حفظها من غائلة الإفراط والتفريط، والهدف من العلوم الحقَّة هو التخلَّق بها، فالعلوم لم تُوجد للجدل والمراء، وإنّما للعمل بما هو صحيحٌ منها.
- الأخلاق فضائل يُراد منها تزكية النفوس من الرذائل، وأمّا العرفان فيُراد به الوصول إلى الله تعالى ومعرفته، فالأخلاق سلوكٌ ظاهريٌّ نتعايش به مع أنفسنا ومع الناس، والعرفان سلوكٌ مع الله تعالى، أو قل: إنّ الأخلاق هي أشبه بالترجمة العمليّة للشريعة، وأمّا العرفان فإنّه أشبه بالترجمة العمليّة للعقيدة، ولذلك صارت الأخلاق مقدّمةً أساسيّةً للوصول إلى العرفان.
- التغيير في الأخلاق يختلف فيه الناس شدّةً وضعفاً، والتغيّر والتحوّل في الأخلاق بحسب المصالح تغلب عليه الحالة النفاقيّة في التغيّر السلوكي.
- التغيّر والتحوّل في الأخلاق بالمعنى القيمي تبعاً للزمان لا يعني الخروج من الحقّ إلى الباطل، وإنّما تجديد العمل بالحقّ في ظرفه المناسب له.
- الأخلاق الإلهيّة هي عين الصفات الثابتة لله تعالى، ولكونها إطلاقيّةً فأخلاقه كذلك، والاتّصاف بأخلاق الله تعالى هو الانتماء لله تعالى في القول والعمل، فهو اتّصافٌ بحقيقة الخُلُق الإلهي لا مجرّد دعوى

الانتساب والارتباط، وبعبارةٍ موجزةٍ: التخلّق بأخلاق الله يكمن في متابعة ما أمر به، والانتهاء عمّا نهى عنه.

- الإنسان الكامل لا يعني شخصاً بعينه، وإنّما هو مقامٌ معرفيٌّ ومعنويٌّ، خلاصته السير في عالم الصفات الإلهيّة والتخلّق بها، فالعلاقة بين الإنسان الكامل وبين أخلاق الله تعالى وصفاته هو التخلّق بأخلاق الله ظاهراً وباطناً.
- جميع الأشياء لا تُطلب لذاتها، باستثناء السعادة فإنّها تُطلب لذاتها، والسعادة الحقيقيّة هي السعادة الأخرويّة، ولذلك فإنّه من الضروري أن يكون الإنسان من أبناء الآخرة لا من أبناء الدنيا.
- شروط السعادة الحقيقيّة هي: الدوام والخلود، وعدم التعرّض للشقاء والألم ولو لطرفة عينٍ واحدةٍ، وملازمة الشعور بالطمأنينة والسلام.
- الهدف الباطني من وراء الصيام هو الوصول إلى إحياء ليلة القدر، والهدف من إحياء ليلة القدر هو طلب التوفيق للوقوف في عرفة.
- للضيافة العامّة (الصيام) هدفٌ أساسيٌّ هو التقوى، وللضيافة الخاصّة (الحجّ) هدفٌ أساسيٌّ هو التوحيد، وللضيافة الأخصّ (طلب العلم) هدفٌ أساسيٌّ هو معرفة الله تعالى، ومنه يتّضح: أنّ الضيافة الإلهيّة الأخصّ هي ضيافةٌ خاصّةٌ بطلبة العلوم الدينيّة.
- جميع القوى الكامنة في الإنسان تعبّر عن استعداداته الأوّليّة، وهذه الاستعدادات ليست نظريّةً، وإنّما هي حقيقةٌ واقعيّةٌ يعيشها كلّ إنسانٍ.
- أسباب الاستسلام للنكوص والتراجع المعنوي هي: ضعف الثقة بالنفس، وضعف الثقة بالله تعالى، والانخداع بوسوسة الشيطان، ولا شيء أخطر من قتل الاستعداد بالمعاصي، فهي محرقةٌ حقيقيّةٌ لمطلق

الاستعدادات، كما أنّها لا تورث غير المعيشة الضنك.

- قيل: إنّ مسالك تهذيب الأخلاق ثلاثةٌ، هي: تهذيب الأخلاق بالغايات الدنيويّة الصالحة، وبالغايات الأخرويّة، وبالحبّ الإلهيّ، ولكنّ الصحيح هو وجود مسلكٍ رابعٍ، وهو العلم الحصولي.
- الحبّ طريقٌ أمثل للخلاص من أخطر الأمراض المعنويّة، ولذلك فإنّ الدين هو الحبّ، ولهذا الحبّ حقيقةٌ وأصلٌ وهو حبّ الله تعالى، فإنّ هذا الحبّ الإلهيّ وحده يجعل الإنسان مستغرقاً في واقعيّة التوحيد العملي أو الأفعالي، ولذلك فإنّ هذا الحبّ يُخرج الإنسان من عبادة العبيد إلى عبادة الأحرار.
- كلّ يومٍ لا نندم فيه على ما فات منّا من توهّمٍ وزيفٍ وقصورٍ، ولا تكتوي قلوبنا بلوعة الماضي المتدنّي، فنحن في تسفّلٍ، ولابدّ لنا من المضيّ إلى مقام «أحسن تقويمٍ»، فهو مقام الخلافة الإلهيّة الذي يقتضيه استعدادنا.
- سيمرّ على الإنسان موقفٌ تصعقه الدهشة وهو يُعاين ما أودعه الله تعالى فيه من قوىً وإمكاناتٍ مادّيّةٍ ومعنويّةٍ واستقامةٍ باطنيّةٍ في أوّل نشأته.
- التقوى من ثمار الطهارة القلبيّة، فمَن كان قلبه ملوّثاً بالذنوب والخطايا والشبهات، لن يجد الطريق للتقوى قبل الخلاص من براثن تلك المعاصي.
- التعصّب للعقوبة في غير حقوق الله تعالى ما هو إلّا من بقايا حبّ الدنيا، وليس من العدل أن تُعاقب المُسيء على كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، فذلك من سوء الأدب ونزوعٌ لملكة البخل والشحّ القابعة في النفس.

- الاقتداء سلاحٌ ذو حدّين، فهنالك قدوةٌ صالحةٌ، وهنالك قدوةٌ غير صالحةٍ، والشقي من حُرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة.
- المَثَل الأعلى أساسٌ لبناء المحتوى الداخلي للإنسان، فيحدِّد له خطوطه البيانيّة في توجّهاته وحركاته وسكناته، وبعبارةٍ أخرى: هو الذي يصنع له حاضره ومستقبله؛ لأنّه يمتلك قوّة التأثير بنحوٍ يمكِّنه من توجيه رؤى الإنسان وتحييد إرادته باتّجاه رؤى وإرادة القدوة.
- للقدوة السلبي بُعدان خطيران، هما: بُعد الفقد، وبُعد الكسب، وهذان البُعدان يشكّلان الخسران المبين للمقتدي ولو بعد حينٍ.
- المعصوم وحده من يصحّ الاقتداء بفعله لمجرّد صدوره منه، من دون الحاجة للنظر في واقعيّة فعله، ولكن مع ملاحظة زمان الفعل وظروفه.
- الفضيلة تُطلب ولو من غير أهلها، كما أنّ الحكمة تؤخذ ولو من أفواه المجانين.
- لابدّ من العمل برقابيّة الاقتداء بقسميها: الرقابيّة بلحاظ المقتدي، والرقابيّة بلحاظ القدوة.

توصيات

وهنا نحتاج إلى أن نؤكِّد عدّة أمورٍ تساعدنا في عمليّة التغيير والرقي في السلّم الأخلاقي، وهي أمورٌ لا تختصّ بفئةٍ دون أُخرى، فهي خطابٌ نتوجّه به للجميع، لاسيّما الذين يجدون في أنفسهم توجّهاً ورغبةً حقيقيّةً للتغيير والتحوّل نحو الأفضل، وهذه الأمور نطرحها على شكل توصياتٍ، وهي:

١. إنّ أيّ تغييرٍ مطلوبٍ لابدّ أن تنطلق شرارته من داخل أنفسنا، فليس من الصحيح في التنظير القرآني في الأخلاق أن نطلب التغيّر فينا بواسطة الآخرين، وبعبارةٍ أخرى: لا تنتظر من الآخرين أن ينجزوا لك أعمالك، فقم بها بنفسك، فذلك سبيل التغيير الواقعي في نفسك؛ قال تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ (الرعد: ١١).

٢. إنّ أيّ تغييرٍ مطلوبٍ لابدّ أن ننطلق فيه انطلاقةً علميّةً، وهذا ما دعانا لعرض المطالب الأخلاقيّة بطريقةٍ تعليميّةٍ، فإذا وجد الإنسان رغبةً جامحةً في نفسه للتغيير، وحاول الانطلاق من نقطة التغيير في نفسه، ولكنّه صار يتحرّك بصورةٍ ارتجاليّةٍ مشوبةٍ بالعفويّة والجهل فإنّه يكون قد ساهم إلى حدٍّ كبيرٍ في وأد رغبته الجامحة في التغيير؛ لأنّه لن يجد أثراً واضحاً لممارساته، وسيصاب بالإحباط واليأس، ولا ينجو من ذلك إلّا ما ندر، فلا يصلح أن يكون قاعدةً أو مناطاً للتغيير، وأدنى ما يُطلب من المرء في العلم والتعليم هو حصول التفقّه في الدين بالقدر الذي يقيه من الوقوع في المشكلات الشرعيّة.

٣. لابدّ من إدامة المراقبة للنفس، فالمراقبة عملٌ وقائيٌّ عظيمٌ، والوقاية خيرٌ من العلاج، فإذا ما أغفل الإنسان دور المراقبة الحفظي والصياني فإنّه سيكون في مهبّ الريح، فربّما تعصف به زوبعةٌ من زوابع الدنيا في العصيان والتمرّد، فتلقي به في أدنى مراتب الإصلاح والسير، ونحن نعلم جيّداً بأنّ البناء صعبٌ جدّاً، ولكنَّ الهدم سهلٌ يسيرٌ، وهذه الورقة التي نقرأ فيها هذه السطور من السهل جدّاً إحراقها، ولكن كم من الصعوبة نواجهها في صناعتها وفي تحويلها إلى ورقةٍ مفيدةٍ في كتابٍ؟ ولذلك علينا الالتزام بالمراقبة بالقدر المستطاع، وبقدر مراقبتنا نكون قد حفظنا ما توفّرنا عليه من كمالٍ.

٤. إنّ ما نقرأه من سير الأنبياء والأئمّة والأولياء والصالحين والعلماء الأبرار لهو كثيرٌ، وفي سيرهم معانٍ عظيمةٌ ومواعظ جمَّةٌ جليلةٌ، ولكنَّ هذا الكمّ الكبير لا فائدة فيه من دون الاقتداء به، فالمطلوب الحقيقي في متابعة سير الصالحين هو الاقتداء بها لا لمجرّد تحصيل المعلومات، وإذا ما اقتصر دور المتابعة على تحصيل المعلومات فإنّنا لا نجني من قراءتنا سوى قسوة القلب، وطريق الاتّعاظ بتركة الماضين هو واحدٌ من الخطوط العريضة في النظريّة الأخلاقيّة القرآنيّة، ومن أهمّ الوسائل في تحقيق التغيير؛ قال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ (الحجّ: ٤٦).

٥. لابدّ من المداومة على العمل الصالح، ففي ذلك ثمرتان كبيرتان، الأولى تتمثّل بحفظ ما حُزناه من كمالٍ، والثانية تتمثّل بالخلاص من تبعات الماضي، فهذه التبعات لا تزيلها التوبة وإن كانت نصوحاً، وإنّما بالعمل

الصالح المقابل لتلك الأعمال السيّئة التي تركت آثارها السيّئة على النفس وانطبعت على القلب، ويُلاحظ في المداومة القدرة والإمكان، فلا يحمّل نفسه فوق طاقتها لكي لا تنطفئ فيه رغبةٌ في التغيير، وقد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّ هذا الدين متينٌ، فأوغلوا فيه برفقٍ، ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبتّ الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى**»[1].

٦. في صورة تخلّف الآثار الإيجابيّة عن الظهور في النفس فلا ينبغي اليأس من ذلك، وعلينا أن نفهم بصورةٍ جادّةٍ أنّ نفس أداء الأعمال الصالحة هو تغييرٌ واقعيٌّ نعيشه ونتحسّسه، فلا تطلب بعده شيئاً قد يُوهمك ويجعلك تدور في دوامة الإحباط واليأس، فإذا نزغ الشيطان في نفسك من عدم الجدوى فيما تقوم به، وأنّ التغيير أمرٌ محالٌ عليك، فأجبه بقوّةٍ بأنّك تعيش التغيير من خلال أدائك لنفس الأعمال الصالحة، ولو لم يقع في نفسك ذلك التغيير المطلوب لما جاءك الشيطان ليوسوس لك ويطلب منك الكفّ عن الأعمال الصالحة، فوسوسته لك دليلٌ واضحٌ على أنّه يعاني من لوعة الهزيمة أمامك، فلا تمنحه فرصة الإحياء في نفسك مرّةً أخرى، قال تعالى: ﴿**وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ (الزخرف: ٦٢)، وقال تعالى: ﴿**...وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ**

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج٣ ص٢٢٢، الحديث رقم (١٦٨٢). أيضاً:
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق: ج٢٠ ص٣٤٦، الحديث رقم (١٣٠٥٢).
المنبتّ: يقال للرجل إذا انقطع به في سفره وعطبت راحلته: قد انبتّ، من البتّ بمعنى القطع. والظهر: المركب، يريد أنّه بقي في طريقه عاجزاً عن مقصده، لم يقضِ وطره وقد أعطب مركِبه.

لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأنعام: ١٤٢)، فإذا ما ألقيت بوسوسته خلف ظهرك تكون قد انتصرت عليه مرّتين، والثانية عليه أشدّ من الأولى؛ لأنّك بتركك لوسوسته تكون قد اتّخذته عدوّاً لك وليس ناصحاً ومرشداً؛ قال تعالى: **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** (فاطر: ٦)، وينبغي أن يُعلم بأنّ الإصغاء لوسوسة الشيطان ـ والعياذ بالله تعالى ـ هو تعبيرٌ آخر عن الخضوع والطاعة له، فالحذر الحذر من ذلك؛ قال تعالى: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾** (يس: ٦٠).

٧. لابدّ من إدامة التوبة، فلا ينبغي التوهّم بانقطاع الحاجة إليها، فتلك من وسوسة الشيطان أيضاً، ولذلك جاء في الأذكار المستحبّة بعد كلّ فريضةٍ من الصلوات أن تقول سبعين مرّةً: «أستغفر الله ربّي وأتوب إليه»، فإنّه ذكرٌ جليلٌ، ووردٌ جميلٌ، ومن التوبة اتّهام النفس بالتقصير، فإيّاك أن ترى لنفسك شأناً وشأواً تتطاول به على الناس، ومن التوبة: الكفّ عن التمنّي، فالأماني بضاعة الحمقى، كما جاء في الخبر[1]، وأيضاً هي كما قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام في وصيّته الخالدة لولده الإمام الحسن عليه السلام، والتي جاء فيها: «**وإيّاك واتّكالك على المنى؛ فإنّها بضائع الموتى**»[2].

(١) انظر: مَن لا يحضره الفقيه، مصدر سابق: ج٤ ص٣٨٤، الحديث رقم (٥٨٣٤).

(٢) كشف المحجّة لثمرة المهجة: ص٢٣١، الفصل الرابع والخمسون ومائة.

المصادر

١. إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

٢. أربع رسائل، للشيخ أبي عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا، تحقيق: الأهواني، الطبعة الأولى، مصر سنة ١٣٧١هـ.

٣. الأصول من الكافي، لثقة الإسلام أبي جعفرٍ محمّد بن يعقوب الكليني الرازي (المتوفّى ٣٢٩هـ)، تحقيق: قسم إحياء التراث، مركز بحوث دار الحديث، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ.

٤. الأُصول من الكافي، للشيخ أبي جعفرٍ محمّد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م، قم المقدّسة.

٥. الأعلام قاموس تراجم، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م، بيروت.

٦. إلهيّات الشفاء، لأبي عليٍّ الحسين بن عبد الله بن سينا، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، عام ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة.

٧. الأمالي، لأبي عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (الشيخ المفيد)، تحقيق: عليّ أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، ١٤٠٣هـ، قم المقدّسة.

٨. الأمالي، لشيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسي، تحقيق: مؤسّسة البعثة (قسم الدراسات الإسلاميّة)، دار الثقافة، الطبعة الأولى، قم المقدّسة.

٩. الأمالي، للشيخ الصدوق أبي جعفرٍ محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، تحقيق ونشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة

(قسم الدراسات الإسلاميّة)، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، قم المقدّسة.

١٠. بحار الأنوار، للعلّامة محمّد باقر المجلسي، مؤسّسة الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، بيروت.

١١. تاريخ بغداد، أحمد بن عليّ الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، بيروت.

١٢. تحف العقول، للشيخ الثقة أبي محمّدٍ الحسن بن عليّ بن شعبة الحرَّاني، تحقيق: عليّ أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة.

١٣. التربية الروحيّة (بحوثٌ في جهاد النفس)، المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، مؤسّسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، الطبعة العشرون، ٢٠١٢م، قم المقدّسة.

١٤. ترتيب الأمالي، ترتيبٌ موضوعيٌّ لأمالي المشايخ الثلاثة: الصدوق والمفيد والطوسي، لمحمّد جواد المحمودي، مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٥. تعليقه بر شرح منظومة حكمت سبزواري، لميرزا مهدي مدرّس آشتياني، منشورات جامعة طهران، سنة الطبع ١٣٦٧ش، طهران.

١٦. تفسير الجلالين، لجلال الدين محمّد بن أحمد المحلّي وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار المعرفة، بيروت.

١٧. تفسير القرآن الكريم، لأبي حمزة الثمالي، أعاد جمعه وتأليفه عبد الرزّاق محمّد حسين حرز الدين، تقديم: الشيخ محمّد هادي معرفة، دفتر نشر الهادي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، قم المقدّسة.

١٨. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، لأبي عبد الله محمّد بن أحمد

الأنصاري القرطبي، مؤسّسة التاريخ العربي، ١٤٠٥هـ، بيروت.

١٩. تفسير القمّي، لأبي الحسن عليّ بن إبراهيم القمّي، تصحيح: السيّد طيّب الجزائري، مؤسّسة دار الكتاب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة.

٢٠. تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضمّ، للسيّد حيدر الأملي، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه: السيّد محسن الموسوي التبريزي، المعهد الثقافي نور على نورٍ، الطبعة الأولى، قم المقدّسة.

٢١. تفسير سورة الحمد، السيّد الإمام روح الله الموسوي الخميني، جمع وتحقيق: السيّد أحمد صولي الحسيني العاملي، دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، بيروت.

٢٢. التلويحات، لشهاب الدين السهروردي، نقلاً عن كتاب «رحيق مختوم، شرح حكمت متعالية»، للشيخ عبد الله جوادي آملي، مطبوع باللغة الفارسيّة.

٢٣. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، لابن أبي فراس المالكي الأشتري، مكتبة الفقيه، قم المقدّسة.

٢٤. التنبيه على سبيل السعادة، لأبي نصرٍ محمّد بن محمّد الفارابي، تحقيق وتعليق: الدكتور جعفر آل ياسين، دار المناهل، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، بيروت.

٢٥. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لأبي عليٍّ مسكويه أحمد بن محمّد، تحقيق: قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكيّة، ١٩٦٦م، بيروت.

٢٦. التوحيد، للشيخ الصدوق محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، دار المعرفة، بيروت.

٢٧. جامع السعادات، لمحمّد مهدي النراقي، تحقيق وتعليق: السيّد محمّد كلانتر، تقديم: الشيخ محمّد رضا المظفّر، منشورات مطبعة النعمان، النجف الأشرف.
٢٨. الجامع الصغير، لجلال الدين السيوطي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، بيروت.
٢٩. الجهاد الأكبر، للسيّد الإمام روح الله الخميني، منشور في المكتبة الشاملة.
٣٠. الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، للحكيم صدر الدين محمّد بن إبراهيم الشيرازي، تصحيح وتعليق: آية الله حسن زاده آملي.
٣١. حياة القائد بين القدوة والاقتداء، للدكتور عليّ بن حسن عليّ القرني، منشورٌ في مجلّة جامعة أمّ القرى، وفي «موسوعة البحوث والمقالات العلميّة»، جمع وإعداد: عليّ بن نايف الشحود، (المكتبة الشاملة).
٣٢. الخصال، للشيخ الصدوق أبي جعفرٍ محمّد بن عليّ القمّي، تحقيق: عليّ أكبر الغفاري، جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة.
٣٣. الدرّ المنثور، لجلال الدين السيوطي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ، بيروت.
٣٤. ديوان أبي العتاهية.
٣٥. ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، للحافظ محبّ الدين أحمد بن عبد الله الطبري، نشر مكتبة القدسي، ١٣٥٦هـ، القاهرة.
٣٦. الرسالة القشيريّة، لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القُشيري النيشابوري، تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، نشر بيدار، الطبعة الأولى، ١٣٧٤ش، قم المقدّسة.

٣٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلّامة شهاب الدين السيّد محمود الآلوسي البغدادي، قرأه وصحّحه: محمّد حسين العرب، بإشراف هيئة البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
٣٨. الروضة من الكافي، للشيخ أبي جعفرٍ محمّد بن يعقوب الكليني، تحقيق: عليّ أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ، طهران.
٣٩. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للإمام محمّد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ عليّ محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، بيروت.
٤٠. سعد السعود، لرضي الدين عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن طاووس الحسني، المطبعة الحيدريّة، الطبعة الأولى، ١٩٥٠م، النجف الأشرف.
٤١. سنن الترمذي، لمحمّد بن عيسى الترمذي، تحقيق: عبد الوهّاب عبد اللطيف، دار الفكر، ١٤٠٣هـ، بيروت.
٤٢. السنن الكبرى، للحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، دار الفكر، بيروت.
٤٣. سنن النبيّ صلّى الله عليه وآله، للسيّد العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي، تحقيق: الشيخ محمّد هادي الفقهي، طبع مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، ١٤١٦هـ، قم المشرّفة.
٤٤. شرح أصول الكافي، لمحمّد صالح المازندراني، تعليق: الميرزا أبي الحسن

الشعراني، مؤسّسة التاريخ العربي، الطبعة الثانية المصحَّحة، ١٤٢٩هـ، بيروت.

٤٥. شرح المائة كلمة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لكمال الدين ميثم بن عليّ بن ميثم البحراني، عنى بطبعه ونشره وتصحيحه والتعليق عليه: مير جلال الدين الحسيني الآرموي، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة، طبعة ١٣٩٠هـ.

٤٦. صحيح البخاري، لمحمّد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، ١٤٠١هـ، بيروت.

٤٧. صحيفة الإمام الحسين عليه السلام، للشيخ جواد القيّومي، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، الطبعة الأولى، ١٣٧٤ش، قم المقدّسة.

٤٨. الصحيفة السجّاديّة، للإمام زين العابدين عليه السلام، مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، بإشراف محمّد عليّ أبطحي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، قم المقدّسة.

٤٩. الطبقات الكبرى، لمحمّد بن سعد، دار صادر، بيروت.

٥٠. علم الأخلاق إلى نيقو ماخوس، للحكيم اليوناني أرسطو طاليس، ترجمه من اليونانيّة إلى الفرنسيّة: بارتلمي سانتهلير، نقله إلى العربيّة: أحمد لطفي السيّد، مطبعة دار الكتب المصريّة، طبعة ١٩٢٤م، القاهرة.

٥١. عيون الحكم والمواعظ ، لعليّ بن محمّد الليثي الواسطي، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، قم المقدّسة.

٥٢. عيون مسائل النفس وسرح العيون في شرح العيون، لآية الله الشيخ

حسن زاده آملي، مؤسّسة انتشارات أمير كبير، طهران: ١٣٧١ش.
٥٣. غرر الحكم ودرر الكلم، جمع: عبد الواحد الآمدي، تحقيق: السيّد جلال الدين الآرموري، جامعة طهران، الطبعة الثالثة.
٥٤. فتح القدير (الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير)، لمحمّد بن عليّ بن محمّد الشوكاني، عالم الكتب، بيروت.
٥٥. الفروع من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدّث أبي جعفرٍ محمّد بن يعقوب الكليني، تحقيق: عليّ أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، قم المقدّسة.
٥٦. فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، لمحمّد عبد الرؤوف المنّاوي، تحقيق: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، بيروت.
٥٧. كامل الزيارات، لجعفر بن محمّد بن قولويه، تحقيق: الشيخ جواد القيّومي، مؤسّسة نشر الفقاهة، مطبعة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، إيران.
٥٨. كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق أبي جعفرٍ محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي، صحّحه وعلّق عليه: عليّ أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في قمّ المقدسة، ١٤٠٥هـ.
٥٩. كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين عليّ المتّقي بن حسام الدين الهندي، مؤسّسة الرسالة، ١٣٩٩هـ، بيروت.
٦٠. لسان العرب، لمحمّد بن مكرم بن منظور الأفريقي، دار صادر، ١٤١٤هـ، الطبعة الثالثة، بيروت.

٦١. مـجمع البحرين، للشيخ فخر الدين الطريحي، تحقيق: السيّد أحمد الحسيني، مكتبة نشر الثقافة الإسلاميّة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.
٦٢. مجمع البيان في تفسير القرآن، لأمين الإسلام أبي الفضل ابن الحسن الطبرسي، مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، بيروت.
٦٣. محبوب القلوب، المقالة الثانية، لقطب الدين محمّد بن الشيخ الأشكوري اللاهيجي، تحقيق: الدكتور حامد صدقي والدكتور إبراهيم الدياجي، التراث المكتوب، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، إيران.
٦٤. المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء، للشيخ محسن الفيض الكاشاني، تصحيح وتعليق: الشيخ عليّ أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة.
٦٥. المدرسة القرآنيّة، للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر قدّس سرّه، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر قدّس سرّه، الطبعة الثانية المحقّقة، ١٤٢٤هـ، قم المقدّسة.
٦٦. مستدرك الوسائل، للميرزا حسين النوري الطبرسي، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، قم المقدّسة.
٦٧. مسند أحمد، للإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت.
٦٨. معاني الأخبار، للشيخ الصدوق محمّد بن عليّ بن بابويه القمّي، صحّحه: عليّ أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ، قم المقدّسة.
٦٩. المعجم الأوسط، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، سنة الطبع: ١٤١٥هـ.

٧٠. معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٩م، بيروت.
٧١. المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي عبد الحميد، طبع دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، القاهرة.
٧٢. معرفة الله، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، دار فراقد، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، قم المقدّسة.
٧٣. مفاتيح الجنان، للشيخ المحدّث عبّاس القمّي، دار الثقلين الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، بيروت.
٧٤. مقدّمة في علم الأخلاق، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري، دار فراقد للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، قم المقدّسة.
٧٥. مكارم الأخلاق، للشيخ الحسن بن الفضل الطبرسي، منشورات الشريف الرضي، الطبعة السادسة، ١٩٧٢م، قم المقدّسة.
٧٦. من الخلق إلى الحقّ... رحلات السالك في أسفاره الأربعة (مراتب السير والسلوك إلى الله)، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم الدكتور طلال الحسن.
٧٧. من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق أبي جعفرٍ محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: عليّ أكبر الغفاري، نشر جماعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة.
٧٨. منية المريد، للشيخ زين الدين بن عليّ العاملي (الشهيد الثاني)، تحقيق: رضا المُختاري، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدّسة.
٧٩. الميزان في تفسير القرآن، للسيّد العلّامة محمّد حسين الطباطبائي،

مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة.

٨٠. نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، للشيخ الحسين بن محمّد بن الحسن بن نصر الحلواني، تحقيق ونشر: مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، الطبعة الأولى المحقّقة، ١٤٠٨هـ، قم المقدّسة.

٨١. نهج البلاغة، خطب الإمام عليٍّ عليه السلام، جمع الشريف الرضي، تحقيق: الشيخ محمّد عبده، دار المعرفة، بيروت.

٨٢. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، للشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدّسة.

الفهرس